دراسات في نهج البلاغة

تأليف

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين (قدس سره)

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

الأستاذ سامي الغريري (الغراوي)

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

دراسات في نهج البلاغة

شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات في نهج البلاغة

تأليف

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين (قدس سره)

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

الأستاذ سامي الغريري (الغراوي)

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر

الكتاب : .... دراسات في نهج البلاغة

المؤلف: .... العلامة محمد مهدي شمس الدين (ره)

الناشر: .... مؤسسة دارالكتاب الاسلامي

الطبعة: .... الاولى ١٤٢٨هـ.ق / ٢٠٠٧م

المطبعة: .... مطبعة ستار

عدد النسخ: ....(٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي : ٣- ١٩٥ - ٤٦٥- ٩٦٤- ٩٧٨

ISBN: 978 - 964 – 465 - 195 – 3

قم - ميدان معلم - سميه ٢٢ - پلاك ٢٦

تلفن: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤

فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

فَهْرِس المَوضُوعَات

مُقَدِّمَةُ الطبعَةِ الثَالِثَة ٩

مُقدّمَةُ الطَبعةِ الثّانِيَة ١١

مُقَدِّمَةُ الطبعَةِ الأُولىٰ ١٥

المُجْتَمعُ وَالطّبقَات الإجتمَاعيّة

فِكْرَةُ المُجْتَمَع في نَهج البَلاَغَة ٢١

الطَبَقَة الإجتمَاعِيَة ٢٧

القيمَةُ العُليَا في الإسلاَم : التَقوىٰ وَالتّقسِيم الطّبقي ٣٥

مَدخَل إلىٰ دَراسَةِ الطّبقَاتِ في نَهج البَلاَغة ٥٩

العَسكريُون ٦٩

العَسكريُون خَطر وضَرورَة في آنٍ ٦٩

القُضَاة ٨١

الوُلاَة ٩٣

الكُتّاب ١٠٩

الزُرّاع ١١٩

التجّار والصنّاع ١٣٣

العمّالُ ومَنْ لاَ يَستطيعُونَ عمَلاً ١٤٣

المجتمَعُ القَبَليّ موْقِفُ الإمامِ عليه السلام مِنَ الرّوحِ القَبَليّة ١٥١

الحاكم

الحُكْمُ ضَرُورَة لِكلّ مُجتَمَع ١٦٧

مِنْ شُرُوط الحَاكِم ١٧١

طَبِيعَة الحُكْمِ عِنْدَ الإمَامِ عليه السلام ١٧٥

وَعلاَقَةُ الحَاكِم بالشّعب ١٧٥

حُقُوقُ الرّعيّةِ عَلىٰ الحَاكِم ١٨٧

طَبِيعَة الحَقّ، وَحُقُوقُ الحَاكِم عَلىٰ الرّعيّة ١٩١

التّعَاون بَيْنَ الحُكْم وَالشّعب ١٩٧

المُغَيبات

مَوْقفُ الرّفض لِلمُغَيّبَات ٢٠٣

فَلسَفَةُ مَوْقفِ الرّفض: نَزْعَة التّجريب: عَرضٌ وَمُنَاقَشَة ٢٠٥

إهتمامُ العِلم الحديث بطاقَاتِ الإنسان الخَفِيّة ٢١٣

التَعليلِ العِلمي لِظَاهِرة المُغيبات ٢١٧

المُغيبات في نَهج البَلاَغَة ٢٢٣

مُغيبات أُخرَىٰ ذَكرَهَا ابْن أَبي الحَديد ٢٥٥

الــوَعْــظ

خطأ أسلوب الوُعاظ التَقليديِّين وَالطَرِيقَة الصَحِيحَة لدَراسَةِ النُصُوص ٢٧٣
المَثلُ الأعلىٰ لِلحَيَاةِ في الإسلام حِينَ تَولّىٰ الإمَام عَليّ عليه السلام الحُكم ٢٧٧
الإدَارَة ٢٩١
الحقُوق ٢٩١
المَال ٢٩٢
النَظرَةُ الوَاقِعيَة إلىٰ الحَياةِ في الإسلاَم وَالخُلُق العَربيّ ٣٠٧
دَعوَةٌ إلىٰ التَوازن بَين الدُنيَا وَالآخرَة مَوقِفُ الإمَام عليه السلام مِنَ العَمَل لِلدُنيَا ٣١٩
إتبَاعُ الهوَىٰ وَطُولُ الأمَل: مَا يَعنيِ بهمَا الإمَامُ؟ وَمَا آثَارُهمَا في حَيَاةِ الإنسان؟ .. ٣٢٩
المَوعظَةُ بالتّأريخ، وَظِيفَة التّأريخ ٣٣٥
نَظرَةُ الإسلاَم في تَكوينِ الشَخصِيَة الفَاضِلَة ٣٤١
نَماذجُ مِنْ وَعظِ الإمَام عليه السلام بتقلّبِ الدُنيَا مَعنىٰ الزُهد وَعَنَاصِره ٣٤٩
فَهرَس الآيَات ٣٦٣
فَهرَس المَصَادر ٣٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَةُ الطبعَةِ الثَالِثَة

يُمثلُ نهجُ البَلاَغة أكثر النّصوص ثبَاتاً وديمُومةً وٱنتشاراً في فِكرنا الإِسلاميّ بَعد القُرآن الكَرِيم والسّنّة النّبويَّة الشَّريفَة.

ومَنشأ ذَلكَ هو مَضمون نَهْج البَلاَغة الَّـذي يَستجيب لحـلالاتٍ ثـابتة فـي المَوقف الإِنسَانيّ:

في صِراع الإِنسَان من أجل العَيش والتَّقدّم والكَّرامة....

وفي تَعاونه مع المُجْتَمع...

وفي تَعَاون فِئاته وتنَافرها في المُجْتَمع...

وفي إِنتصاراته وخَيبات أمله...

وفي مَخاوفه وطمُوحاته في موقفه أمَام الحيَاة وأمَام المَوت....

كلُّ ذَلكَ هو السّرُّ في خُلود نَهْج البَلاَغة.

من خلاَل كلِّ هذه السّمات الَّتي تطبعُ مضمُون نَهْج البَلاَغة، نَستشعر في كَثيرٍ من الأَحيَان نَبرة الثّورة والإِحتجاج... الثّورة عَلىٰ الذَّات بهَدف تَـربيتها عَـلىٰ

خُلُق الإيثار وتجَاوز الأَنانية نحو الآخرين، والثّورة عَلىٰ قِيم الجَاهلية وتقَاليدها لمَصلحة قيم الحضَارة ومُثُلِها.

في هذا العَصر، وفي هذا المُنعطف الخَطير من تأريخنا العربيّ والإسلاميّ حيث نواجهُ أخطر الإحتمالات الَّتي تَضعُ موضعَ التَّساؤل مَصيرنا كلَّه، ودورَنا الحضَاري أمَام هَجمة الإستعمار الجَدِيد من وجوهٍ شتّىٰ، وبمظاهر مُتنوعة، أخطَرها وأبرزُها الصَّاهرةُ الصّهيُونيَّة.

أقول في هذا العَصر، وهذا المُنعطف الخطير، يُمثّل نهجُ البَلاَغة حَاجة أساسيّة لجميع المعنيِّين بهذه المَرحلة وبمُواجهة المُؤامرة عَلىٰ المَصير، لأنّـه يُضيءُ طريقَ الجِهاد ويُعزّز روح الصّمود ويُنير البصَائر، آمل أنْ يقدّم هذا الكتَاب في طَبعته الثّالثة خِدمة لهذا الهَدف، وإذَا سَاهم هذا الكتَاب في إثارة الإهتمام بالقضَايا الَّتي تتّصل بتَعزيز صمُود الإنسَان أمَام المُؤامرة وتَعزيز مناعته أمَام الإغرَاء، فأنّه يكون قد حقّق أعظَم أغرَاضه.

نَسأل الله تَعالىٰ أنْ يُعلّمنا مَا نَجهل، وأنْ يُوفقنا للعَمل بخَير ما نَعلم، وأنْ يَجعل أعمَالنا خالصةً لوجهه الكَرِيم، والحَمدُ لله ربِّ العَالمِين.

مُحَمَّد مَهدي شَمس الدِّين

٩/٢/١٤٠٢ هـ

٦/١٢/١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمةُ الطّبعةِ الثّانِيَة

الحَمد لله ربّ العَالِمين. والصّلاة والسّلام علىٰ خَـير خَـلقه مُـحَمَّد وآله الطّاهرين.

ذكرتُ في مُقدّمة الطّبعة الأُولى لهذا الكتَاب «درَاسَات في نَهج البَلاَغة» أنّه أثر إنساني خَالد لا يحدّه مكَان، ولاَ تَنتهي الحَاجة إِلَيه في زمان، لأنّه من الآثَار الإِنسانيّة الّتي «لَم تُوضع لفَريق دون فَريق، ولَم يُراع فـيها شَـعب دون شَـعب، وإِنّما خوطب بها الإِنسَان أنىٰ وجد وكَان. ولأنّها تُلامس كلّ قَلب، وتُضمد كلّ جُرح، وتُكفكف كلّ دَمعة، كانت مُلكا للنّاس أجمَعين، وكَانت خَالدة عند النّاس أجمَعين».

وآمل أنْ يُلبي الكتاب حَاجة يَحسّ بها كَثير من المُثقفين الّذِين يَحملون في قلوبهم همُوم الحاضر في العَالِمين العَربي والإِسلاميّ.

فَعلىٰ صَعيد الشّخصية نـواجـه غـزوا فِكـرياً وحـضَارياً يَـهدف إِلىٰ تَـهديم شَخصيتنا، وذَلكَ بتَدمير مُقوماتها من العَقيدة، والحضَارة والتّأريخ.

وعَلىٰ صَعيد المُجْتَمع نُعاني من تَمزقات وصراعات تَستنزف قوىٰ الأُمّة، وتَجعلها عاجزة عن التّصدي لعدوها الصّهيوني، والهجُوم عليه بغَير الكَلمات والشّعارات والشّكاوي إلىٰ مَجلس الأَمن وما إلَيه من مُنظمات الأَقوياء الَّتي تَخدم مصَالحهم والَّتي تُضفي صفة الشّرعية عَلىٰ الظّلم الَّذي لَيس له مَثيل في التّأريخ. وهو الظّلم الَّذي حلّ بالعَرب والمُسلمِين في فَلسطِين بطَرد شعبها وتَوطين الصّهاينة فيها.

وعَلىٰ صَعيد المفَاهيم الإسلاميَّة يُعاني المُسلم المُتعلم وغير المُتعلم، المُثقف، وغَير المُثقف، من الإلتباس وسُوء الفَهم، بحيث أَنَّ «الزُّهد» و«القَنَاعة» و«التَّوكل» و«القَضاء والقَدر» وغَيرها غَدت تَعني في ذِهن كَثير من المُسلمِين معَاني السّلبِية أمَام تَحديات الحيَاة وحَركة التَّأرِيخ، والإستسلام للآخرين ولمَا يُريده الآخرون.

وَمَاذَا بَعد؟.

ثمّة غير هذا كَثير ممّا نُعاني منهُ عَلىٰ كلّ صَعيد.

وفي نَهج البَلاَغة الَّذي يُمثّل الإِسلاَم في صفَاته ونقَائه كمَا فهمه الإِمَام عليّ عليه السلام، وعَاشه، وطبّقه ـ في نَهج البَلاَغة أجوبَة مَبدئية عَلىٰ كلّ هذه الأُمور الَّتي نُعاني منها وغَيرها.

ولذَا فإِنّي آمل ـ كمَا قُلت آنفاً ـ أَنْ يُلبي هذا الكتَاب حاجَة يحسّ بها الكَثيرون منّا.

وقَد دفع بي هذا الأَمل إِلىٰ الإستجابة للطلبَات الكَثيرة الَّتي تَلح مُنذ سنِين عَلىٰ أَنْ يُعاد طَبع الكتاب بعد أَنْ نَفد تمَاماً، فَاستجبت إِلىٰ ذَلكَ رَاجياً من الله

تعَالىٰ شَأنه أَنْ يَجعله نَافعاً للنّاس وأَنْ يَنفعني به يَوم ألقاه سُبحانه وتَعَالىٰ.

وتَمتاز هذه الطّبعة عن سَابقتها بإِضافة بعض ما خَطر في البال من الأَفكار أثنَاء المُراجعة السّريعة له تَمهيداً لطَبعه.

كمَا تمتَاز بالتّنظيم والتّرتيب، وطَريقة يَسهل علىٰ البَاحث أَنْ يَرجع إِلىٰ نصُوص من نَهْج البَلاَغة بسُرعة، لأنّي اعتمدتُ ـ فيما أُثبته من النّصوص، ومَا لم أُثبته ـ عَلىٰ ذِكر أرقَام النّصوص، كمَا وَردت في طَبعات نَهْج البَلاَغة وأكثَر الطّبعات الحَديثَة لنَهج البَلاَغة تَحمل أرقاماً مُتسلسلة لنصُوص الإمَام عليّ عليه السلام. سوَاء في ذَلكَ الخُطب، أو الكُتب، أو الكَلمات القصَار.

أسأل الله تَعَالىٰ أَنْ يُعلّمنا ما نَجهل من الحقّ، وأَنْ يُوفقنا للعَمل بما نَعلم من الحقّ، وأَنْ يَتقبل هذا العَمل بأحسن قَبوله، وَيَجعله خَالصاً لوجهه الكَرِيم والحَمد لله ربّ العَالمِين.

مُحَمَّد مَهدي شَمس الدِّين

بَيروت: الخَميس ١٣ شعبَان ١٣٩٢ هـ

المُوافق: ٢١ أيلُول ١٩٧٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَةُ الطبعَةِ الأُولىٰ

الإِرث الثّقافي؛ ولَيس الحضَارة المَادية؛ هو أثمَن ما خَلفه الإِنسَان للإِنسان. فبالثقافة يَستكمل الإِنسَان وجوده الحقّ؛ لأَنّها تَمده بالمَعنىٰ الَّذي لاَ يكُون لولاَه سوىٰ وجود تافه في مِيزان القِيم والأَقدار.

ولَيست الحضَارة المَادية، مَهما عَظمت سوىٰ حَسنة صَغيرة من حَسنات الثّقافة الإِنسانيَّة إِذَا قِيست بالآثار المَعنوية لهَذه الثّقافة.

ولاَ تفُوتنا مُلاحظة أَنَّ أغلب الآثار الثّقافية وقتيَة ولَيست خَالدة؛ وتخص بَعض الشّعوب دون أَنْ تكون للإِنسانيّة كلّها، وذَلكَ لأَنّها تصدر بتأثير عوامل إِجتماعية مُعينة فتُلبي حاجات عَقلية وإِجتماعية مُعينة، ثُمّ تَفقد قِيمتها عندمَا يَنتفي العَامل الَّذي أثَارها، ولاَ يكون لها من الأَصالة والعُمق والعمُومية ما يُهيء لها أَنْ تَتعدىٰ مُحيطها الخاصّ إِلىٰ مُحيط أوسع.

وإِلىٰ جَانب هذا الإِرث الثّقافي المَوضعي الوقتي تَختص كلّ أُمّة من الأُمَم بآثار قَليلة تَعتبرها خَالدة عندها، لاَ ينال من جِدّتها الزّمان مَهما طال، لأَنّ

البَحث فيها يتّصل بما يَدخل في الكيَان الصّميمي لِتلك الأُمّة، فهي لذَلك تُعتبر عند هذه الأُمّة خَالدة ما دَام لها كيَان.

وأقل منها تِلك الآثار الّتي تُعتبر ملكاً للإنسانية كلّها في كلّ زمان. فلئن كان القِسم الأَعظم من الثّقافة الإنسانيّة مَحدوداً بحدود الزّمان والمكَان.

ولئن كان القِسم القَليل منها مَحدوداً بالمكَان وحده.

فإنّ القِسم الأَقل، والأَعظم قِيمة، من الثّقافة الإنسانيّة لاَ يحدّه زمان ولاَ مكَان.

هذه الآثار خَالدة عند النّاس كلّهم لأَنّها لم تُوضع لفريق دون فريق، ولم يُراع فيها شَعب دون شَعب، وإنّما خوطب بها الإنسَان أنّىٰ وجد وكَان.

ولأنّها تُلامس كلّ قَلب، وتضمد كلّ جُرح، وتُكفكف كلّ دَمعة، كانت ملكاً للنّاس أجمَعين، وكَانت خالدة عند النّاس أجمَعِين.

وهي قَليلة، ولكنّها لاَ تزال، عَلىٰ قلّتها، تُثير في النّاس الدّوافع الطّيبة النّبيلة، وتَسمو بهم إلىٰ أعلىٰ، إلىٰ ملاَعب النّور، كلّما شدّتهم عوَامل الشّر إلىٰ التُّراب.

* * *

ونَهج البَلاَغة من هَذه الآثار.

وسوَاء أنَظرت إليه من نَاحية الشّكل أو من نَاحية المَضمون وجدّته من الآثار الّتي تقل نظَائرها في التُّراث الإنسَانيّ عَلىٰ ضخَامة هذا التُّراث.

فَقد قيل في بَيان صَاحبه أنّه «دُون كلاَم الخَالق وفَوق كلاَم المَخلُوق»(١).

بَيان مُعجز البَلاَغة، تَتحول الأَفكار فيهِ إلىٰ أنغَام، وتَتحول الأَنغام فيه إلىٰ

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ١ / ٢٤، جوَاهر المَطالب في مناَقب الإمَام عَليّ لاِبن الدّمشقي: ١ / ٢٩٩.

أفكَار، ويَلتقي عليه العَقل والقَلب، والعَاطفة والفِكرة، فَإِذا أنتَ من الفِكرة أمَام كَائن حيّ، مُتحرك، يَنبض بالحَياة، ويَمور بالحَركة.

وتِلكَ هي آية الإِعجاز في كلّ بَيان.

ولَم يُكرّس هذا البَيان المُعجز لمَديح سُلطان، أو لإِستجلاب نَفع، أو للتّعبير عن عَاطفة تَافهة ممّا اعتاد التّافهون من النّاس أنْ يُكرّسوا له البَيان... إنّ البَيان في نَهْج البَلاَغة قَد كُرّس لخدمَة الإِنسَان.

فلَم يُمجّد الإِمَام الأَعظم في نَهْج البَلاَغة قوّة الأَقـوياء، وإِنّـما مَـجّد نـضَال الضّعفاء، ولَم يُمجّد غني الأَغنيَاء، وإِنّما أعلَن حقُوق الفُقرَاء، ولَم يُمجّد الظّالِمين العُتاة، وإِنّما مَجّد الأَتقياء والصُّلحاء.

إِنّ الحرّية والعبُودية، والغِـنىٰ والفَـقر، والعَـدل والظُّـلم، والجَـهل والعِـلم، والحَرب والسّلم، والنّضال الأَزلي في سَبيل عَالم أفضل لإِنسَان أفضَل، هو مَدار الحَديث في نَهْج البَلاَغة.

فنَهج البَلاَغة كتَاب إِنسَاني بكلّ ما لهَذه الكَلمة من مَدلُول: إِنسَاني بإِحترامه للإِنسان وللحَياة الإِنسانيّة، وإِنسَاني بمَا فيه من الإِعتراف للإِنسَان بحقُوقه فـي عَصر كان الفَرد الإِنسَانيّ فيه عند الحَاكمين هبَاءة حَقيرة لاَ قيمَة لهَـا ولاَ قَـدر، إِنساني بمَا يُثيره في الإِنسَان من حبّ الحيَاة والعَمل لها في حـدود تَـضمن لهـا سمُوها ونقَاءها.

لهذَا ولغَيره كان نَهْج البَلاَغة، وسَيبقى عَلىٰ الدّهر أثراً من جُـملة مـا يَـحويه التُّراث الإِنسَانيّ من الآثار القَليلة الّتي تَعشو إِليها البصَائر حين تَكتنفها الظُّلمات.

وحقّ له أنْ يكون كَذلك وهو عطَاء إِنسان كان كَوناً من البطُولات، ودُنياً من

الفضَائل، ومثلاً أعَلىٰ في كلّ ما يُشرّف الإِنسَان.

* * *

وهذَه دِرَاسَات في نَهج البَلاَغة قَصدتُ من وضعها إلىٰ أنْ أكشف عن نَاحية مَا فطن لها من كَتبوا عن الإِمَام عليّ عليه السلام، وهي آراؤه في الإِجتماع والإِقتصاد والسّياسة. فإنّ آراء الإِمَام الإِجتمَاعيَّة والإِقتصَاديَّة والسِّياسيَّة لَم تُلاق من الكتّاب العنَاية الَّتي تَستحقها، وكأنّ البَحث في نشَاطه السّياسي قد صَرفهم عن البَحث في نشَاطه العِلمي، مع أنَّ نشَاطه السّياسي لاَ يُمكن أنْ يفهم حقّ الفَهم إلاَّ إذَا دُرس عَلىٰ ضوء آرائه الإِجتمَاعيَّة والسِّياسيَّة والإِقتصَاديَّة.

وشيء آخر حَفّزني إلىٰ وضع هذه الدّراسات، وهو أنّ قِسماً كَبيراً من الوعاظ يُقدّمون نَهج البَلاَغة إلىٰ الجَماهير عَلىٰ أنّه كتَاب وَعظي يشلّ في الإِنسَان إرادة الحيَاة، عَلىٰ ما هو المَعروف من أسَاليب كَثير من وعّاظ هذه الأَيّام. فأردت أنْ أكشف في هذه الدّراسات عن أنَّ نَهج البَلاَغة لَيس كتَاباً وعظيّاً بقَدر ما هو كتَاب يُعنىٰ بمشَاكل الإِنسَان الرّوحية والإِجتمَاعيَّة والإِقتصَاديَّة ويَضع لها الحلُول، وحتَّىٰ القِسم الوعظي منهُ يَنكشف، إذَا ردّ إلىٰ أُصوله الإِجتمَاعيَّة، عن مفاهيم لاَ تمت إلىٰ ما يَقوله هؤلاء الوعّاظ بصلَة، ولاَ تَلتقي معهُ عَلىٰ صَعيد[1].

مُحمَّد مَهدي شَمس الدِّين

النّجف الأَشرف في شَعبان ١٣٧٥ هـ

المُصادف آذار ١٩٥٦ م

---

(١) في هذَا الكتَاب فَصل بعنوان «الوعظ» دَرسنا في القِسم الوعظي من نَهج البَلاَغة عَلىٰ أسَاس إجتماعي.

المُجْتَمعُ وَالطّبقَات الإجتمَاعيَّة

فِكْرَةُ المُجْتَمَع في نَهج البَلاَغَة

لعلّ فِكرَة المُجْتَمع من أقدَم الفِكَر الَّتي اهتدىٰ إِلَيها الإِنسَان ـ الفِكَر الَّتي لَعبت دوراً خَطيراً في تَطوير الحيَاة الإِنسانيَّة، ودَفعت بالإِنسان إِلىٰ القيَام بتجَارب كَثيرة كَانت، عَلىٰ ما فيها من أخطَاء وحمَاقات، تُربة خصبة لتجَارب أعظم أصَالة، وأشدّ إِحكاماً، وأقرب إِلىٰ شَريعة الصّواب من سَابقتها.

وكَانت أيضَاً حافزاً إِلىٰ القِيام بمُحاولات جَديدة تهدف إِلىٰ تَطوير الحيَاة الإِجتمَاعيَّة وإِرسائها عَلىٰ ركائز تضمن لها استقرارها ونموها.

ودَخلت هذه الفِكرَة دورها الذّهبي ـ ولاَ تزال فيه حتَّىٰ اليَوم ـ يَوم جَعلها العَقل العِلمي مَيداناً لبَحثه؛ فخَرجت، بهذا، عن أَنْ تكُون مَيداناً لتجارب عشواء، أو مَيداناً لتَطبيقات السّياسيِّين الضّيقي الأُفق، النّاظرين إِلىٰ قَريب، المُبتغين النّفع العَاجل من جّل ما يَصنعون ـ خرجت عن أَنْ تكون مَيداناً لِمثل هذه التَّجارب الفجّة لتَصير مَيداناً للنّظر العِلمي المُتزن الرّصين.

وصَار من هّم الفَيلسوف ـ وهو رجُل المَعرفة الأَوّل الَّذي عَرفته البَشرية بعد النَّبيّ ﷺ ـ أَنْ يَتعرف عَلىٰ آليَات الحيَاة الإِجتمَاعيَّة وقوَانينها؛ ويَدرس إِتّجاهاتها، ويُصنّف هذه القوَانين والإِتّجاهات.

خصّها بمَزيد من العنَاية سُقراط وأرسطو وأفلاطون، هذه القِمم الشّامخة في

الفِكر الفَلسفي، وتَعاقب بعدهم فلاسفة كَثيرون لم يغفلوا هذه الفِكرة ولم يَبخسوها حقّها من البحث والتّفكير.. حتّىٰ جاء ابن خُلدون فسجّل في (مُقدّمته) حَدثاً عِلمياً عَظيماً بالنّسبة إلىٰ هذه الفِكرة حين خَطا الخُطوة الأخيرة، فجَعل منها عِلماً قائما بنَفسه يَفترق عن الفَلسفة في مادته وهي الحيَاة الإجتمَاعيَّة، ويَفترق عنها في مَنهجه وهو المُلاحظة، ويَفترق عنها في غَايته وهي التّعرف عَلىٰ أحسن الوسَائل لتَنمية الحيَاة الإجتمَاعيَّة.

وجَاء العَصر الحَديث، عَصر الجمَاهير، فزَادت أهمية هَذه الفِكرة، وحصلت عَلىٰ هبتها العُظمىٰ من (أوغست كنت) في الفَلسفة الوضعيَّة، وأصبح لها دوَائر معَارف خاصّة هي دوائر المَعارف الإجتمَاعيَّة، وأصبح لها معَاهد عِلمية خاصّة لاَ تخلو منها جَامعة تُشرف عليها هَيئات عِلمية تخصصت في هذا العِلم: عِلم الإجتماع.

هذَا عرض خَاطف، وأرجو ألاَّ يكون مُقتضباً جدّاً، لمرَاحل تكوّن فِكرة المُجتَمع وتُبلورها.

وهُنا تجيء لَحظه التّساؤل عن صلَة نَهج البلاَغة بهذا كلّه؟.

والجوَاب عن ذلكَ: أنّنا أردنا أنْ نَكشف عن أنَّ نَهج البَلاَغة لم يَحظ بالإلتفات الجَدير به من هَذه النّاحية[1].

---

(١) أللّهمّ إلاَّ ما كَان مؤخراً من المُحاولة المُوفقة الّتي قام بها الأُستاذ الكَبير جورج جرداق في كتَابه القيم: «الإمَام عليّ عليه السلام: صَوت العَدالة الإنسانيّة» ففي هذا الكتاب الّذي يُعتبر فَتحاً جَديداً في عَالم التّأليف يُبرهن الأُستاذ جرداق عن وعي صَحيح لآراء الإمَام في الإجتماع الإنسَانيّ وسيَاسة الجمَاعات. والكتّاب، «يُعدّ» نَصر لحُريّة الفِكر، وللبَحث النّزيه، وبُرهان حيّ علىٰ أنَّ المُولف إنسَان وَاع لمهمّته كَأديب قَائد.

وسَنرىٰ بعد أَنْ نَعرف ما لفِكرَة المُجْتَمع في نَهج البَلاَغة من مكَان مَرموق بَين ما اشتمل عَليه من بحوث.

وبَعد أَنْ نَعرف أنّ الإمَام قَد تَمرس بهَذه الفِكرَة وعَاناها كمَا لم يَتمرس بها ولَم يُعانها حَاكم في زمَانه عَلىٰ الإطلاق.

وبَعد أَنْ نَعرف أَنّ مُعَاناته لها قَد انتهت به إِلىٰ نتَائج باهرَة ـ بعد أَنْ نَعرف هذا كلّه يَتبين لنا أَنّ نَهج البَلاَغة كَان يجب أنْ ينَال حظّاً من الإلتفات إلَيه من الإجتماعيِّين، لأَنّه يُسجل حَدثاً مُهماً في فِكرَة المُجْتَمع.

لاَ نُريد أَنْ نقول إنّ الإمَام قد اخترع عِلم الإجتماع لنَرتفع بنَسب هذا العِلم من ابن خُلدون إلىٰ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بعد أَنْ تَبين للدّوائر الإجتمَاعيّة أنّ الأَب الشّرعي لهَذا العِلم لَيس (أوغست كنت).

لاَ نُريد أَنْ نقول هذا، فلم يُكرّس الإمَام نَفسه لإختراع العلُوم، وإنْ كان قد شَارك في هذا المجَال الإبداعي فاخترع وحده العِلم الّذي حفظ للعَربية أُصولها وضمن لها الخلُود ذَلكَ علم النّحو.

لَقد كانت مُحاولة تَطبيق الصّيغة الإسلاميّة الصّحيحة للحَياة الإنسانيّة عَلىٰ المُجْتَمع في سَبيل بناء الإنسَان المُتكامل ـ كانت هذه المُحاولة هي همّه الكَبير كقَائد رسَالي بعد رسُول الله صلى الله عليه وآله.

ولقَد كانت مشاكل السّياسة والإدارة والحَرب هي شَاغله الأوّل وهي مَيدانه الأَصيل كحَاكم.

إنّ الّذي نُريد أَنْ نقوله هو أنّه ـ كحَاكم عَادل ـ قد فَكّر في المُجتمعات الّتي حَكمها. وفكّر في أفضل الطُّرق والوسَائل الّتي تَنتمي حيَاتها الإجتمَاعيّة وتَرتفع

بها إلىٰ الذّروة من الرّفاهية والقوّة والأمن، مع مُلاحظة أنّها تُدين بالإسلام وأنّ شؤون إقتصادها، وحَربها، وسِلمها، وعلاَئقها الإجتمَاعيَّة، تَخضع لقوَانين الإسلاَم، وأنّها يجب أنْ تأخذ سَبيلها إلىٰ النّمو في إطار إسلاميّ بَحت.

وقَد هدَاه تَفكيره إلىٰ نتَائج بَاهرة في التّنظيم الإجتماعي: فالحُكم وضَرورته، والنّزعة القَبلية وعقَابيلها، وشَغب الغَوغاء ونتَائجه، ودعَامات المُجتَمع ومقُوماته، والطّبقات الإجتمَاعيّة وآليتها ـ كلّ ذَلكَ خصّه الإمَام بمَزيد من البَحث والتّفكير، وطبّق النّتائج الّتي آهتدىٰ إلَيها علَىٰ المُجتمعات الإسلاميَّة، ولولاَ أنَّ أعدَاءه الأَشرار شَغلوه عن أنْ يفرغ لمهَام العَمل السّلمي لبَان هُنا من أعمَاله شيء عَظيم.

وإنَّ مَا بَين أيدينا من كلاَمه عليه السلام في المُجتَمع ليَدل دلاَلة واضحَة علَىٰ أنّه رَاصد إجتماعي من الطّراز الأوّل، وإنّ تَقسيمه للطّبقات الإجتمَاعيَّة وتَعريفه بآلياتها ليدخل في بَاب الحَدس العَبقري والإلهام.

ويَقيناً لو أَنَّ الشّريف الرّضي رحمه الله حَفظ لنا كلّ ما وقع إلَيه من كلاَم أمِير المُؤمِنين عليه السلام، ولم يُؤثر الفَصيح البَاذخ وحده لإنتهىٰ إلينا من ذَلكَ شيء عَظيم. ولو ضمّ ما ضَاع من كلاَمه إلىٰ ما حَفظ إلىٰ زمَان الشّريف لإنتهىٰ إلينا من ذَلكَ شيء أجل وأعظم خَطراً وقَدراً[1].

وسيكُون مَركز البَحث في حَديثنا هذا هو الطّبقات الإجتمَاعيَّة في نَهج البَلاَغة. وقَبل أنْ نأخذ سَبيلنا إلَيه يُحسن بنا أنْ نَدخل في حسَابنا أمراً بَالغ

---

(١) صَرّح الشّريف الرّضي رحمه الله في مُقدّمة (نَهج البَلاَغة) بأنّه آستجاب لرَغبة الأَصدقاء والأخوان في تَأليف «كتَاب يَحتوي علَىٰ مُختار كلاَم مَولاَنا أمِير المُؤمِنين عليه السلام... فأجبتهُم إلىٰ ذَلكَ... فأجمعتُ بتَوفيق الله تَعَالىٰ علَىٰ الإبتداء بإختيار محَاسن الخُطب، ثُمّ محَاسن الكُتب، ثُمّ محَاسن الحِكَم والأَدَب.

الأَهمية بالنّسبة إِلىٰ بَحثنا هذا، فَلقد قُلنا آنفاً إنّ الإِمَام لَم يَقصد إِلىٰ وضع أُصُول عِلم جَديد، وإِنَّما فكّر ـ كحَاكم عَادل ـ في شُؤون المُجْتَمع وخَرج من تَـفكيره بنتَائج طبّقها أو أرَاد تَطبيقها عَلىٰ المُجْتَمع، فلذَلك لم يُفرغ آراءه الإِجتمَاعيَّة كلّها في قَالب عِلمي مُجرد، وإِنَّما قدَّم بعضها مُفرغاً في التّجربة العِملية، ولاَ يَسـلبها قِيمتها كحَقيقة موضُوعية أنّها مفرغة في قَالب تَجريبي إِجتماعي يَسبغ عـليها، بَدل جمُود الحَـقيقة العِـلمية المُـجردة، حَـيوية وحَـركية تَـنشآن مـن حَـيوية الجَمَاعات وحَركيتها.

الطَبقَة الإِجتمَاعِيَّة

لاَ نَعرف مَتىٰ دَخلت فِكرة الطّبقة، كوحدة إجتمَاعيَّة كَبيرَة وذَات مَدىٰ رَحب، في تَركيب المُجْتَمع الإِنسَانيّ. ففي تأرِيخ الإِنسَان المَكتوب لاَ نَجد حضَارة تَألّقت ثُمّ أنطفأت إلاّ وكانت تَعرف فِكرة الطّبقات، وكَان لهَذه الفِكرَة واقع عِياني يضرب بجذوره عَميقاً في تَنظيماتها الإِجتمَاعيَّة.

كلّ المُجتمعات الَّتي وجدت وبَادت والَّتي لاَ تَزال مُستمرة الوجود تقُوم عَلىٰ النّظام الطّبقي. وهذَا يَعني، في ظاهر الحَال، أنّه لم يمّر عَلىٰ البَشرية وقتٍ طَويل لم تَعرف فيه فِكرة الطّبقات.

وربّما كان هذا حقّاً بالنّظر إلىٰ ما نُرجحه في تَعليل نشُوء المُجْتَمع الإِنسَانيّ.

فالمُجتمع الإِنسَانيّ، فيما نُرجح، يَخضع في نُشوءه لعَاملين: عَامل الغَريزة «بمعنَاها الوَاسع الَّذي يَشمل عَاطفة الأُبوة والدّوافع النّفسية إلىٰ تكوّين العَائلة» وعَامل الثّقافة بمعنَاها الوَاسع أيضَاً. وهذا يَعني أَنَّ المُجْتَمع الإِنسَانيّ وجد مُنذ اللّحظة الَّتي تَعدد فيها أفرَاد النّوع، فلم يمرّ عَلىٰ الإِنسَان أمد طَويل كان فيه حيوَاناً غِير إجتماعيّ.

ومُنذ أخذ المُجْتَمع الإِنسَانيّ في الإتّساع وجدت فِكرة الطّبقة سَبيلها إلىٰ العَقل. فالأَفراد يَختلفون في مقدار ما يَأتونه من أعمَال البر والخَير، ويَختلفون

في المواهب وفي القُدرة البَدنية، ويَختلفون تبعاً لهذا في القُدرة عَلىٰ الصّيد وحيَازته... هذِه الإمتيازات وأُخرىٰ غَيرها وجدت سَبيلها إِلىٰ الوعي الإنسَانيّ في تَصورات طَبقية آستتبعت فِكرة الطّبقات.

هذا، ولكنّنا حين نُريد أَنْ نتناول الطّبقات بالبحث لاَ يمكن أَنْ نتنَاولها عَلىٰ هذا المُستوىٰ السّاذج البَسيط، فقد أصبحت الطّبقة مُؤسّسة إِجتمَاعيَّة ضَخمة تَمدها بالغذاء تقَاليد عَريقة، وتقوم عَلىٰ جُذور موغلة في أعمَاق المَاضي.

* * *

مَا المَبدأ الَّذي يقوم عَليه الإنقسام الطّبقي؟.

لَقد آختلفت آراء الإجتماعيِّين في هذا المَبدأ، فبعضهُم يرىٰ أنّه المِهنة، وثَانٍ يَرىٰ أنّه الدّخل أو الثّروة، وثَالث يرىٰ أنّه الدّخل والمِهنة معاً.

ولأَجل الحصُول عَلىٰ جواب صَحيح لهذا السّؤال نُلاحظ أَنَّ هذا المَبدأ يَختلف بإختلاف النّظر إِلىٰ الطّبقة كمُؤسسة إِجتماعيَّة.

فتَارة ينظر إِلىٰ الطّبقة بإِعتبارها تقوم بدور مُعين في العَمليات الإِجتمَاعيَّة، وتُقدّم خدمَات مُعينة إِلىٰ المُجتَمع.

وأُخرىٰ يُنظر إِليها بإِعتبارها كُتلة بشرية ذَات مستوىٰ «مادي» إقتصادي واحد وذات مزَاج نفسي وعَقلي خاصّ يوحد بين مفَاهيم أفرادها في الأُسرة وغَيرها من المُؤسّسات الإجتمَاعيَّة، ومُختلف الأَذواق والطّباع والعَادات.

لاَ بُدّ من آعتبار المِهنة وحدها مَبدأ للإنقسام الطّبقي إِذَا نَظرنا إِلىٰ الطّبقة من زَاويَة الدّور الَّذي تقوم به في العَمليات الإِجتمَاعيَّة، وذَلكَ لأَنّ هذا الدّور يَشتق

من المِهنة الَّتي تُمارسها الطّبقة. أمّا حِين ننظر إلىٰ الطّبقة من زَاويَة مُستوىٰ الحيَاة المَادي والمَعنوي الَّذي تَتمتع به فلاَ بُدّ من آعتبار مَبدأ الإنقسام الطّبقي المِهنة والدّخل معاً، فالمِهنة بما تُخلفه في صَاحبها من آثار نَفسية مُعينة، والدّخل بما يُتيحه لصاحبه من مُستوىٰ مَعيشي مُعين يَشتركان في صياغة الحيَاة المَادية والنّفسية للإنسان.

ويَختلف مَبدأ الإنقسام الطّبقي عن هذا وذَاك حين نَنظر إلىٰ الطّبقة الإجتمَاعيَّة من زَاويَة المَركز الإقتصادي الَّذي تَتمتع به في المُجْتَمع حسب نظام الإنتاج والتّوزيع، ففي هذا الحَال لاَ بُدّ من جَعل مَبدأ الإنقسام الطّبقي الدّخل وحده، لأَنَّ مَجموع دخل الطّبقة يُعبر عن المَركز الإقتصادي الَّذي تَحتله بين الطّبقات الأُخرىٰ. والدّخل يُنظر إلَيه هنا بإعتباره ثَروة مُتكدسة تَارة ذات آمكانات إقتصاديَّة، لاَ بإعتباره وسيلَة إلىٰ بلوغ مُستوىٰ مَعيشي مُعين[1].

هذه مبَادىء مُختلفة للإنقسام الطّبقي، وهي تَختلف بإختلاف زَاويَة النّظر إلىٰ الطّبقة كمَا رَأينا.

ولكنّنا نُلاحظ أنّ هذه المَبادىء كلّها إنَّما تُعتبر مبَادىء آنقسام طَبقي فقط، ولاَ تَستتبع حُكماً تَقويمياً للطّبقات. فمبَادىء المِهنة أو الدّخل أو الدّخل والمِهنة معاً تُشير إلىٰ سبب الإنقسام وحده أمّا أَنَّ هَذه الطّبقة ذَات قَدر مُعين تَحتله في سلّم القِيم والأَقدار فذَلك شيء لاَ يَتضمنه مَبدأ من هَذه المبَادىء عَلىٰ الإطلاق.

(١) دُكتور مُحَمَّد ثابت الأفندي: الطّبقات الإجتمَاعيَّة: ٦٤ ـ ٨٠ وثمّة خلاَف في وجهة النّظر إلىٰ مَبادىء الإنقسام الطّبقي فقد ذكرنا هُنا أنّها لاَ تَستتبع أحكَاماً تَقويمية ولاَ تسلسلاً طَبقياً بخلاَف ما ذَهب إليه أصحَابها.

وهُنا نَتسأل: ما هو المَبدأ الَّذي يَستتبع الحُكم التّقويمي للطّبقات؟.

وبعبَارة أُخرىٰ: نحنُ لاَ نَتمثل المُجْتَمع في أذهاننا سَطحاً مُستوياً تتساوىٰ فيه الرّؤوس، وإنَّما نَتمثله هَرمي الشّكل، فبَينما توجد طَائفَة من النّاس تَحتل قمّة الهَرم توجد طَائفَة أُخرىٰ تَحتل قَاعدته: وتوجد بَينهما طوَائف تَختلف بالرّفعة والإنحطاط عَلىٰ حَسب قُربها أو بُعدها عن القمّة والحَضيض. وإذن، فَإذا كَان لكلّ طبقة من النّاس قِيمة مُعينة في التّصنيف الهَرمي الإجتماعيّ، فمن أين جَاء هذا التَّصنيف الّذي يَستتبع أحكاماً تَقويمية لمُختلف الطّبقات؟.

إنّنا، فيما أحسب، لاَ نَستطيع أَنْ نضع أيدِينا عَلىٰ ضَابط حَقيقي لهذا التَّصنيف الإجتماعيّ إلاَّ إذَا دَرسناه من زَاويَة القِيمة العُليا للحيَاة. وذَلكَ لأَنَّ أي حُكم تَقويمي إنَّما حَدث بسَبب هذه القِيمة العُليا، فترىٰ أنّه كلّما قَرب المرء من هذه القِيمة وشَارك فيها وزَاد في تأكيدها واكتسب خصَائصها، ارتفعت قِيمته وعَلت مَنزلته، وبالعكس نرَاه كلّما بَعُد عَنها ولم يُساهم إلاّ بقسط ضَئيل فيها أو لَم يُساهم فيها عَلىٰ الإطلاق هَبط في المَنزلة الإجتمَاعيَّة.

والقِيمة العُليا للحيَاة قد تكون المَال والثروة، أو الفَضيلة، أو السّياسة، أو الحَرب.

وقَد تكون هذه القِيمة العُليا عبَارة عن المَبدأ الّذي استدعىٰ التّشعب الطّبقي، وذَلكَ كما في المُجتمعات الَّتي يكون الإقتصاد هو القِيمة العُليا فيها، فَقد رأينا أنّ الإقتصاد وحده أو مُنضماً إلىٰ المِهنة يكون مَبدأً للإنقسام الطّبقي فَإذا ما كَان بالإضافة إلىٰ هذا قِيمة عُليا أيضاً استتبع حينئذٍ أحكاماً تقويميَّة تتفاوت بتفاوت القُدرة الإقتصَاديَّة الّتي تَملكها كلّ طَبقة من الطّبقات.

وقَد تكُون القِيمة العُليا شيئاً آخر غَير المَبدأ الّذي سبب الإنقسام الطّبقي

وحينئذٍ تَحدث هذه القِيمة انقساماً في دَاخل كلّ طَبقة من الطّبقات؛ وذلكَ كما لو كَانت القِيمة العُليا للحَياة عبَارة عن الفَضيلة، فإنّ هذه القِيمة تَستتبع أحكَاماً تَقويميَّة تَحدث انقساماً في دَاخل الطّبقات نَفسها، فقد يكون الفَرد مُنتسباً من حيث المِهنة أو المِهنة والدّخل أو القوّة الإقتصَاديَّة إلىٰ طَبقة ضَعيفة ومُنحطّة المُستوىٰ المَعيشي ولكنّه يكون بسَبب قُربه من القِيمة العُليا الَّتي هي الفَضيلة في ذَروة الهَرم الإجتماعيّ[1].

ومَهما يكُن من أمر فإنّ هذه القِيم الَّتي ذكرنا تَستتبع أحكَاماً تَقويمية تَختلف بإختلافها، ويَتشكّل وضع المُجْتَمع صحة وفَساداً بسَبب ما تُخلفه فيه هذه القِيم من آثار، وهذا ما نَلمسه حين نَدرس الطّبقات عَلىٰ أسَاس أنّ المَثل الأَعلىٰ للحيَاة هو الفَضيلة أو الإقتصاد.

فتَارة تكون القِيمة العُليا للحَياة هي الفَضيلة... هي أنْ يكون الإنسَان فاضلاً رَحيماً بالضُّعفاء، بَاذلاً لهم المَعونة دون أمل في تَلقي الجَزاء، سَاعياً في خدمَة النّوع مُؤثراً لذَلك عَلىٰ مصَالحه الخَاصّة وأطمَاعه، مُستعداً للتعاون مع الغَير في سَبيل المَنفعة العامّة، مُنافحاً عن الحقّ أيّاً كان مَوطنه ومُستقره، مُحارباً البَاطل في جَميع أشكاله وألوانه، شَاعراً بمسؤوليته كإنسان، عاملاً عَلىٰ ضَوء هذه المَسؤولية بحرَارة وإيمان.

تَارة تكون القِيمة العُليا للحَياة عبَارة عن هذا، وحينئذٍ تَتحدد المرَاتب الإجتمَاعيَّة عَلىٰ أسَاس هذه المفَاهيم، فيرقىٰ إلىٰ القمّة كلّ مَن استطاع أنْ يَجعل من نفسه مَثلاً أعَلىٰ للفَضيلة، ويَحتل المَرتبة السُّفلىٰ من المُجْتَمع أُولئك الَّذِين لاَ

(١) دُكتور مُحَمَّد ثَابت الأفندي: الطّبقات الإجتمَاعيّة: ٣٦ـ٤٤.

فَضيلة لهُم أو الَّذِين يَستمسكُون بالفَضيلة اَستمساكاً وَاهياً، وما بَينهما تتفاوت المَراتب الإِجتمَاعيَّة عَلىٰ أسَاس الحَصيلة الأَخلاقية الَّتي يَحويها الإِنسَان ويَعمل عَليها.

في مُجتمع كهذا تُوجد طَبقات، وقد رأيتُ الأَساس الَّذي أدىٰ إِلىٰ اَنقسامها، ولكن هذا التّفاوت الطّبقي النّاشيء عن تفَاوت المُستوىٰ الإِقتصادي والمَعيشي عند هذه الطّبقات من النّاس لاَ يأخذ صفة الصّراع المُتمثل في اَستغلال الطّبقات العُليا للسّفلىٰ ومُحاولة هذه الأَخيرة التّفَلت من أَسر هذا الإِستغلال بالتّورة أو بغَيرها من أسَاليب الصّراع، وإِنَّما تَنظر الطّبقات السُّفلىٰ إِلىٰ العُليا نَظر حُبّ ورحمَة وإِكبار، لأَنّها لاَ ترىٰ في الطّبقات العُليا مُستغلين يُريدون اَمتصاص دمَائها وجهدها، وإِنَّما تَرىٰ فِيهم رُسل إِصلاح ضحوا بمصَالحهم في سَبيل مصَالح الجَميع، وتنكروا لأَنفسهم وشهوَاتهم في سَبيل الآخرين، فهُم ليسوا مُستغلين لأَنَّ أكفهم لم تَتعود غير العَطاء. وفي مُجتمع كهذا تَنظر الطّبقات العُليا إِلىٰ السُّفلىٰ نَظرة رَحمة وإِشفاق وتُحاول جهدها أَنْ تَنشلها من الوهدة الَّتي قَبعت فيها إِلىٰ الأُفق العَالي حيث يُقبّل جَبينها نُور الشّمس. لاَ صرَاع ولاَ تنَاحر لأَنَّ الطّبقات هُنا لم تَنحطّ عن القمّة لأَنّها مُنعت من الصّعود. لاَ صرَاع ولاَ تنَاحر لأَنَّ الأجنحَة الَّتي يُحلق بها الإِنسَان هُنا لَيست شَيئاً خَارجاً عن النّفس يَملكه فَريق ولاَ يَجده الآخرون، وإِنَّما هي شيء يَنبع من النّفس.. هي أنتَ بما أودع الله فيكَ من إِمكَانات الصّعود، ولَم تَبق حَيث أنتَ لأَنّك لاَ تَملك هذه الإِمكانات، وإِنَّما لأَنّك فضّلت وَاقعك اللّاذ عَلىٰ الأُفق العَالي حيث الثّمن هو التّضحية وإِنكار الذّات.

في مُجتمع كهذا يَحتل الإِقتصاد مَرتبة ثَانوية من حيث التّقوِيم، فَإِذا اَتّخذه

الإنسَان وسِيلة لنَشر الفَضيلة كان مَزية يُحمد عَليها، وإلاَّ كان رَذيلة لاَ تَهبه قِيمة ولاَ تَسبغ عَليه قَدراً.

وأُخرىٰ تكون القِيمة العُليا للحيَاة هي الإقتصاد.. النّجاح المَادي الخَارق القَائم عَلىٰ تَكديس الأَموال وترَاكم العقَارات، حينئذٍ تَتحدد المَراتب الإجتمَاعيَّة عَلىٰ هـذا الأَسـاس، فـيَرتفع إلىٰ القـمّة أُولئك الأَغـنياء الكـبَار مُـلوك المَـال والأَعمال، ويَقبع في الحَضيض أُولئك الَّذِين لاَ يَملكون شيئاً أو يَملكون شـيئاً قَليلاً، وَتتفاوت مرَاتب النّاس بين هَاتين الطّبقتَين عَلىٰ مقدَار ما يَملكون.

في مُجتمع كهذا تُوجد طبقات كمَا رأيت، ولكن التّفاوت الطّبقي يأخذ صِفة الصّراع، لأَنَّ ما سَبب الإنقسام الطّبقي هو مَصدر القِيمة في المُجْتَمع، ولأَنّ القِيمة العُليا هُنا شيء خَارج عن النّفس فلاَ يكون للطّبقات السُّفلىٰ حينئذٍ أمل بالإرتفاع.

ومن هُنا يَنشأ عند الطّبقات السُّفلىٰ شعور بالإستغلال، ويوَاكب هذا الشّعور شعور آخر، فالطّبقات العُليا عندَ هؤلاَء تَعني ـ بالنّسبة إلَيهم ـ المَزاحم عَلىٰ مُتع الحيَاة والسّعادة والقوّة، ويُولّد هذا الشّعور في أنفسِهم مشَاعر الحِقد والبَغضاء، ويَدفع بهم إلىٰ الخيَانة والإجرام.

وهذا التّخطيط الَّذي ذَكرناه يَصح بالنّسبة إلىٰ كلّ المُـجتمعات الَّـتي تَـجعل الإقتصاد مثلاً أعَلىٰ لها، سوَاء منها ما يَرفع إلىٰ القمّة الرّأسماليّين، أو مَا يَرفع إلَيها العمّال والفَلاّحِين، لأَنّ الصّراع في هذه الأَخيرة هـو الصّـراع فـي المُـجتمعات الرّأسماليّة ومنَابعه هُنا هي منَابعه هُناك. فالأَحقاد، والمطَامع، والنّيات السّيئة، والمَكر الخَبيث هي المدّ النّفسي الَّذي يَطغىٰ عَلىٰ الكُتلة الإجتمَاعيَّة فـي هَـذه الحَالَة ويَنسج مَصيرها.

غَايَة ما في البَاب أنّ قمّة الهَرم الإجتماعيّ وقَاعدته مُتعاكستان فبينما يَحتل الرّأسماليّون القمّة في المُجتمعات الرّأسماليَّة يَحتلها ـ نَظرياً ـ العمّال في المُجتمعات الشّيوعيَّة القَائمة اليَوم. عَلىٰ أنّنا لاَ نَستطيع أَنْ نَعقل ما يُقال من أَنَّ الطّبقة العَاملة في المُجتمعات الشّيوعيَّة هي الَّتي تَحتل قمّة الهَرم الإجتماعيّ. إنّ العُلماء والأَطباء والمُهندسين والكتّاب والمُمثلين ورؤساء المصَانع ورؤسَاء الهَيئات العمّالية والمَزارع التّعاونية يَتمتعون بمِيزات إجتمَاعيَّة وإقتصاديَّة لاَ تُتاح لسَائر العُمّال.

وإذن لاَ فَرق بين المُجتمعات الرّأسماليّة والشّيوعيَّة في العقَابيل الَّتي تَنشأ من جَعل الإقتصاد قِيمة عُليا، ولئن كَان ثمّة فرق فإنّما هو في السّطح والشّكل، أمّا الأَعماق. وأمّا ينَابيع الصّراع فهي وَاحدة في كلّ هذه المُجتمعات.

وهَكذا تَرىٰ كيف أَنْ جَعل الإقتصاد قيمَة عُليا للحَياة يسوق إلىٰ التّفسخ الإجتماعي. ولاَ أتصور جَريمة أكبر من جَريمة المَاديّين الَّذين يُنادون بأنّ الإقتصاد هو القِيمة العُليا في الحيَاة، إنَّهم بخرَافتهم هذه يَجرون المُجْتَمع إلىٰ شرّ عَظيم، ويُشوهون المُثل الإنسانيَّة العُليا.

* * *

من هَذَين المَثلين تَعرف أَنَّ الطّبقات الإجتمَاعيَّة لاَ يُمكن أَنْ تَدرس دراسة موضُوعية صَحيحة تؤدي إلىٰ فَهمها حقّاً، وإلىٰ وعي مُستلزماتها القَريبة والبَعيدة إلاّ إذَا تناولها البَاحث عَلىٰ صَعيد المَثل الأَعلىٰ في الحيَاة للمُجتمع الَّذي يَدرس الطّبقات فيه.

ولاَ بُدّ لنَا، إذَا رُمنا وَعياً حقِيقياً لرَأي الإمَام في هَذه المَسألة، أَنْ نتنَاول مَسألة الطّبقات الإجتمَاعيَّة عَلىٰ هذا الصّعيد.

القيمَةُ العُليَا في الإِسْلاَم:
التّقوىٰ وَالتَّقسِيْم الطَّبقي

إِنّ الفَقر الَّذي هو عَجز إِنسَان أو جمَاعة من النّاس في المُجْتَمع عن وجدَان مَا يُوفر مُستوىٰ الكفَاية في العَيش ـ إِنّ الفَقر بهذا المَعنىٰ ظاهرة حاربها الإِسلاَم في تَشريعه ووصَاياه كما سنرىٰ ذَلكَ فيما يأتي من أبحَاث ـ وٱعتبرها شرّاً إِنسانيّاً بإِعتباره يسبب حرمَان الإِنسَان من أحد حقُوقه الَّذي هو الكفَاية في العَيش، وشرّاً إِجتمَاعياً بإِعتباره يعوق المُجْتَمع عن التَّقدم المَادي والمَعنوي، وٱعتبر الإِسلاَم أَنَّ المُجْتَمع الأَمثل الَّذي يسعىٰ إِلىٰ تكوينه هو المُجْتَمع الَّذي لاَ فَقر فيه ولا فُقراء.

ومن هنا فإِنّنا حين نَستعمل كَلمَة «طبقات» في سياق الحَديث عن الإِسلاَم فإِنّما نقصد بذَلك الفِئات الإِجتمَاعيَّة، وليس الطّبقات بالمعنىٰ الَّذي شاع ٱستعماله في الأَدب السّياسي في العَصر الحاضر، وإِنَّما حرصناً عَلىٰ ٱستعمال كَلمَة طبقات لأَنَّها وردت في كلام الإِمَام عليّ عليه السلام بمعنىٰ فِئات إِجتمَاعيَّة، ولم تكن في ذَلكَ الحِين قد تَضمنت معناها الَّذي تَعنيه الآن.

* * *

لقد اعترف الإسلام كما اعترف الإمام بالطّبقات الإجتماعيّة «الفئات» القائمة علىٰ أساس إقتصادي أو مهني أو عليهما معاً، وذلك لأنّ وجود هذه الطّبقات «الفئات» ضرورة لا غنىٰ عنها ولا مفرّ منها في المجتمع، فلا بُدّ أنْ يوجد تصنيف مهني يقوم بسدّ حاجات المُجتمع المُتجددة، ولا بُدّ أنْ يوجد أُناس لديهم مالٌ كثير وآخرون لا يملكون من المال إلاّ قليلاً لأنّ التّحكم التّام في توزيع الثّروات علىٰ نحو مُتساوٍ أمر مُستحيل إطلاقاً. وإذا اختلفت المهن وتفاوتت الثّروات فلا بُدّ أنْ يختلف مُستوىٰ المَعيشة ويتفاوت طراز الحيَاة المادي والنّفسي وحينئذٍ تُوجد الطّبقات.

وقد رأينا أنّ التّفاوت الطّبقي يَصير مَنبعاً للصّراع الطّبقي إذا جعل الإقتصاد مَثلاً أعلىٰ للحيَاة. وإذن، فالتفاوت الطّبقي النّاشيء عن التّفاوت الإقتصادي خَطر بقدر ما هو ضروري، وإذا لم يوضع للمُجتمع نظام يذهب بالخَطر من هذا التّفاوت ويَستبقي جانب الخَير فيه فإنّه خليق بأنْ يُسبب للمُجتمع بلبلَة تقوده إلىٰ الدّمار.

وهُنا تتجلىٰ عبقرية الإسلام وعبقرية الإمَام.

فَقد تدارك الإسلام هذه الثّغرة فسدّها بنظام من القوَانين عظيم، وجاء الإمَام فوضع قيوداً أُخرىٰ تحول بين التّفاوت في مُستوىٰ الدّخل وبين أنْ يُخلّف في المُجتَمع عقَابيله الضّارة، وآثاره الوَبيلة.

وعندَ الحَديث عن التّدابير الحَكيمة الّتي وضعها الإسلام لوقَاية المُجتَمع من شُرور التّفاوت في المُستوىٰ الإقتصادي يجيء الحَديث عن المَثل الأعلىٰ للحيَاة في الإسلام قَبل كلّ حَديث.

وحَديثنا عن المَثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم يَسوقنا إلىٰ الحَديث عن المَثل الأَعلىٰ للحيَاة عند الإِمَام. وما نَهج البَلاَغة إلاَّ انعكاس الإِسلاَم في نفس الإِمَام. ومن هُنا كان الحَدِيث عن أحدهُما يُلزمه الحَدِيث عن الآخر كما تَستهدي العَين بخيُوط الشّعاع عَلىٰ مَركز الإِشراق.

* * *

إنَّ المَثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم وعندَ الإِمَام هو التّقوىٰ. فقلَّ أَنْ تَرد سُورة في القُرآن لَم يَرد فيها الأَمر بالتَّقوىٰ، تقوىٰ الله. وقلَّ أَنْ تَرد خُطبة أو كلاَم فـي نَهج البَلاَغة لَم يَرد فيه الأَمر بالتَّقوىٰ، تَقوىٰ الله. فالقُرآن أمرَ بالتّقوىٰ، وفصّلها، ومَدح المُتّقين، والإِمَام أمرَ بالتّقوىٰ، ووَصفها، ومَدح المُتّقين.

قَالَ عليه السلام:

«عِبَادَ اللهِ، أُوصِيكُمْ بِـتَقْوَىٰ اللهِ فَـإِنَّهَا حَـقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَىٰ اللهِ حَـقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْـتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَىٰ اللهِ: فَإِنَّ التَّقْوَىٰ فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ[1]، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ. مَسْـلَكُهَا وَاضِـحٌ، وَسَـالِكُهَا رَابِـحٌ، وَمُسْـتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَىٰ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَالْغَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً. إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَىٰ، وَأَخَذَ مَا أَعْطَىٰ، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَىٰ فَمَا أَقَلَّ

(١) الجُنّة: الدّرع الوَاقيَة.

مَنْ قَبلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولَئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1]. فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَٱعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً»[2].

وقالَ عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي ٱبْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَىٰ رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَىٰ أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ؛ وَجِلاَءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَٱجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكَناً لِطُولِ

---

(١) سَبأ: ١٣.

(٢) أنظر، نهج البلاغة: الخُطبَة (١٩١) «لاَ تَضَعُوا مَن رَفَعَتْهُ التَّقْوَىٰ».

وَحْشَتِكُمْ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَىٰ عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا»[١].

وقال عليه السلام:

«فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ. بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ.

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ، وَالأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً. فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ. قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ

---

(١) أنظر، نهج البلاغة: الخُطبة (١٩٨) «التَّقوىٰ دَوَاءٌ».

حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنكُمْ نَبْوَتُهُ. فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ، وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوُّ أَطْبَاقِهِ، وَجُشُوبَةُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ، وَعَفَّىٰ آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ»[١].

وَلَكن مَا هي التَّقوىٰ؟.

إنّ الإمَامعليه السلام لَم يَتعرض لوصف التَّقوىٰ من دَاخل إذَا صحّ التَّعبير. إنَّه اكتفىٰ ـ علىٰ كثرة مَا قاله فيها ـ بوصفها من خارج: مِيزاتها، وفضلها، وثمرتها، وأصحَابها، أمّا هي بذاتها: مُقوماتها، طَبيعتها، فأمر لم يَتعرض لهُ الإمَامعليه السلام وإنَّما تَعرض لهُ القرآن.

ولعلَّ الإمَام تَرك الكلاَم في هذه الجِهة اعتماداً عَلىٰ ما جَاء في القُرآن، واعتماداً عَلىٰ أنَّ المُسلمِين إذْ ذَاك كانوا ولاَ شكّ يَعون ما هي التَّقوىٰ، فاكتفىٰ بتَشويقهم إلىٰ الأَخذ بها والاعتصام بحَبلها. أو أنَّ الإمَام قد تكلَّم في هذا المَوضُوع وأعطاه حقّه من البَيان ولَكن الشّريف رحمه الله لَم يقع عَلىٰ شيء منهُ، أو وَقع عليه ولم

---

(١) أنظر، نَهج البلاَغة: الخُطبَة (٢٣٠) «العَمَلُ يُرفَعُ».

يكُن بَين ما ٱختاره. وعَلىٰ أي حَال ففيمَا قدّمه لنا القُرآن غَني وكفَاية.

قَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2].

وقَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

وقَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4].

ورُوي عن النَّبيّ ﷺ أنّه قَالَ: «جماع التّقوىٰ في قَوله تَعَالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

---

(١) البَقرَة: ٢ ـ ٥.

(٢) البَقرَة: ١٧٧.

(٣) آل عِمرَان: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٤) المَائدة: ٨.

وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

من هَذه النّصوص الإلٰهية، وغيرها أكثر مِنها، نَعرف طَبيعة التَّقوىٰ: إنّها الفَضيلة في أرفع معَانيها وأجلّ صُورها.

إنّها الإيمان بالله في أطهر حَالاته وأسمىٰ معَانيه.

وبَذل المَال لمَن أعوزَه المَال... ولَكن كَيف...؟ إنّها بَذل المَال عَلىٰ حبّه... حُبّ الله تعَالىٰ، فلاَ آمتنان عَلىٰ المُعطىٰ ولا إفضال، ومتىٰ؟ إنّها بَذله في السّراء والضّراء.

وهي الصّبر في جَميع المواطن وجَميع الأَحوال. وهي كَظم الغَيظ، وهي العَفو عن النّاس، وهي العَدل فيهم والإحسان إلَيهم إلىٰ غير ذَلكَ من حَميد الأَخلاق وجَميل الخصَال.

هَذه هي التَّقوىٰ. فَإذا حقّقت التّقوىٰ في نَفسك: وعَيَت وجود الله وأمره ونَهيه في كلّ ما تَلم به من فعلٍ أو قولٍ، وتَحرّيت الفَضيلة أنّىٰ كانت فأخذت بها وأخضعت نفسك لها، وجَعلت من نفسك وجَميع إمكاناتك خَلية إنسانيّة حيَّة، تَعمل بحرَارة وإخلاص عَلىٰ رفع مُستوىٰ الكيان الإجتماعي الَّذي تَضطرب فيه، وصَدرت في ذَلكَ كلّه عن إرادة الله المُتجلية فيما شرّع من أحكَام، تكون قد حقّقت في نفسك المَثل الأَعلىٰ الَّذي نَصبه الإسلاَم.

فالمَال لاَ يَكسب قِيمة إلاّ إذَا بُذل حَيث أجَاز الله أَنْ يُبذل، وإلاّ إذَا آتّخذ

---

(١) النّحل: ٩٠.

أُنظر، مجمع البيان في تفسير ١ـ٣٧، روضة الواعظين: ٤٣٧، مستدرك الوسائل: ١١/٢٦٦ح ١٢٩٥٩، نور الثّقلين: ٢/٧٨ح ١٩٧، تفسير الثّعلبي: ١/١٤٢.

وسِيلة إِلىٰ رضوَان الله. أمّا أُولئك الَّذِين لاَ يَبذلون أموَالهم فلاَ جدوىٰ منهم للجَماعة، ولذَلك فلاَ مزيّة لهم عَلىٰ غَيرهم من النّاس الَّذِين لاَ مَال لهُم.

والسّلالة لاَ قيمة لها حِين لاَ يكُون صاحبها مُتّقياً لله.

والقوّة لاَ قِيمة لهَا حِين لاَ يَستخدمها صَاحبها في مَرضاة الله.

والسّلطان؟ إنَّه لاَ يَكسب صَاحبة قيمة إِلاّ إِذَا كان ذَا تَقوىٰ.

هُناك أغنيَاء وفُقراء، وحَاكمون ومحكُومون، وأقويَاء وضُعفاء، وأُناس تَحدروا من سُلالات لها مَاض عريق وآخرون لَيس لهم مَاض مذكور، ولكن كلّ هذا لاَ يرفع من صاحبه ولاَ يضع إِلاّ إِذَا اقترن بالتّقوىٰ أو عري عنها. وتَعاليم الإِسلاَم صَريحة في ذَلكَ لاَ لبس فيها ولاَ غموض، فهي تنص عَلىٰ أَنَّ القُطب الَّذي يَدور عليه التّفاضل لَيس شيئاً غَير التَّقوىٰ.

قَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1].

وقَالَ النّبيّ ﷺ:

«لَيس لعَربي عَلىٰ عَجمي فضل، ولاَ لأَبيض عَلىٰ أسود فَضل إِلاّ بالتَّقوىٰ»[2].

وقَالَ الإِمَام عليه السلام:

«وَلاَ تَضَعُوا مَنْ رَفعَتْهُ التَّقْوَىٰ، وَلاَ تَرْفَعُوا مَنْ

---

(١) الحُجرَات: ١٣.

(٢) أُنظر، سُنن البيهقيّ: ٩/ ١١٨، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ٥/ ٢٤٢، بحَار الأنوَار: ٧٣/ ٣٥٠ ح ١٣، العِقد الفَريد: ٢/ ١٨٥، تأريخ اليَعقوبي: ٢/ ٩١، نَيل الأوطار: ٥/ ١٦٤، حليَة الأولياء: ٣/ ١٠٠، فَتح البَاري: ٦/ ٥٢٧، التّرغيب والتّرهيب: ٣/ ٣٧٥ ح ٤٤٩٤، شُعب الإيمَان: ٤/ ٢٨٩ ح ٥١٣٧، مُسنَد أحمَد: ٥/ ٤١١ ح ٢٣٥٣٦، المُعجم الأوسط: ٥/ ٨٦ ح ٤٧٤٩.

رَفَعَتْهُ الدُّنْـيَا. وَلاَ تَشِـيمُوا بَـارِقَهَا، وَلاَ تَسْـمَعُوا نَـاطِقَهَا، وَلاَ تُـجِيبُوا نَـاعِقَهَا، وَلاَ تَسْـتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا»[١].

وإذن، فالقِيم الإجتمَاعيَّة تَتفرع عن هذا الأَصل، وتَنبثق من هذا اليَنبوع.

وهَكذا تكون الرّغبة في الخَير، ورضوان الله، ومُساعدة الضّعفاء، وتَكريس المواهب في سَبيل الجمَاعة تَقرُباً إلىٰ الله، هي رَائد كـلّ إنسَـان وعـي مـبَادي‌ء الإسلاَم. وهكذا يكون المُجْتَمع مُـتحاباً مُـتراحـماً مُـتآزراً مُـتعاوناً عَـلىٰ البـر والتَّقوىٰ، بدل أَنْ يكون في صرَاع يؤدي به إلىٰ التَّفسخ والإنحلال.

هذا هو المَثل الأعَلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم وعندَ الإمَام.

* * *

وَلكن الإِسلاَم حِين جَعل الفَضيلة مَصدر القِيمة الإجتمَاعيَّة، وأرَاد أتبَاعه أَنْ يَحملوا أنفسهم عَلىٰ هذا المَركب، صوناً للمُجتمع من أخطار التّفاوت الطّبقي لم يَغفل أمر الوَاقع النّفسي والشّعوري للإنسَان.

فإنّ القوي الغَني يَتغنىٰ بالفَضيلة في كلِ آن، ولكنّه عندما تَستيقظ فيه نوازع العُدوان يَمضي في سَبيل الشّر دون أَنْ يَصغي إلىٰ نداء فَضيلة أو تَقريع ضَـمير. وعندئذٍ تغدو الفَضيلة ضلاً لاَ أثر لهُ في صيَانة المُجْتَمع من أخطار التّفاوت الطّبقي.

لذَلك لم يَكل أمر تَحقيق القِيمة العُليا إلىٰ الإنسَان وحده، وإنَّما جَعل لها سَنداً من القَانون، ليكون لها من القوّة ما يَحمل الأغنيَاء الأَقوياء، وغَير الأَغنياء عَلىٰ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٩١)«وَلاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوىٰ».

التّمسك بها. وكان من ذَلكَ أَنْ سَاوىٰ بين جَميع الطّبقات في الحقُوق والوَاجبات، فالجَميع سواء أمَام الله، والجَميع سواء أمَام القَانون، وجَريمة الغني هي جَريمة الفَقير، وجَريمة الرّفيع هي جَريمة الصّعلوك، لاَ يَمتهن هؤلاَء لضَعفهم ولاَ يُحابي أُولئك لشَرفهم.

وبهَذا حال بين الطّبقات العُليا وبين أَنْ تَطغىٰ وتَعتز، لأنّه أثبت لهَا أَنَّ الغِنىٰ والسّلالة والمَاضي العَريق لن تُجدي شيئا أمَام القَانون. وحال بَين الطّبقات السُّفلىٰ وبين أَنْ تَشعر بالحَيف والضّعة والإِستغلال، لأنّه أثبت لها أَنَّ عَدم الغِنىٰ وأَنَّ ضِعة النّسب لاَ تَجعل من القَانون لها عدوّاً، وإِنّما هي أدعىٰ لأَنْ تَجعله أرفق بها، وأَحنىٰ عَليها، وأرعىٰ لشؤونها في السّراء والضّراء.

* * *

وحِين تَحتد الفروق الإِقتصَاديّة، فتتّسع وتعمق، تغيض منَابع الفَضيلة من المُجتَمع وتَسوده نوازع الحَيوان.

فأنتَ لا تَستطيع أَنْ تَطلب من جائع لاَ يجد القوت أَنْ يَصير فَاضلاً، لأَنَّ الحِرمان لاَ يَدفع إِلىٰ الفَضيلة وإِنّما يَخلق تَصورات الحرمَان الّتي تَدفع إِلىٰ التَّمرد والإِجرام حين لاَ يجد المَحروم اليَد البارّة الوصُول.

إِنّ الجَائع الّذي لاَ يَجد ما يسدّ جوعته وإِنْ خَشن وهَان، والعَاري الّذي يَجد للرّيح مثل لَسع السّياط، وللشّمس مثل مسّ الحَميم، والمَريض الّذي لاَ يجد ثَمن الدّواء ولاَ الخلاَص من اللأواء ـ هَؤلاء لاَ يَستطيعون أَنْ يَتغنوا بالفَضيلة حين يَرون الغني الكاسي الصّحيح الّذي لاَ يعرف معنىٰ للجُوع. فالفَضيلة ليست

طعاماً ولا كساءً ولا دواء، إنْ هؤلاء يَنقلبون إلىٰ قَتلة ومُجرمين ولصُوص حين لاَ يَجدون مَا يَسدون به حاجاتهم الأَولية من طريق مَشروع.

وهَكذا يَظهر إلىٰ العَيان الصّراع الطّبقي بالرَغم من أنَّ المَثل الأَعلىٰ هو الفَضيلة ومكَارم الأَخلاق.

وعىٰ الإِسلاَم هذا الوَاقع فَلم يَكل أمر صيَانة المُجْتَمع من أخطَار التّفاوت الطّبقي إلىٰ المَثل الأَعلىٰ وحده، وإنَّما أَولىٰ الإقتصاد مَاله من الأَهمية في أمر الصّيانة والعلاَج.

فشرّع الله تَعَالىٰ أحكَاماً تحول دون تكّون الثّروات بطَريق غير عَادل وغَير مَشروع ـ وتَحول بين أصحاب الثّروات بعد أَنْ تتكون لَديهم الثّروة بطَريق مَشروع وبين أَنْ يَستخدموها في أستغلال الآخرين.

وشرّع نظاماً للضّرائب (الزّكاة، الخُمس) والموَاريث يُفتت هذه الثّروات تَدريجياً، ويَحول بينها وبين التّراكم والتّعاظم، وأعطىٰ للحَاكم حقّ وضع اليَد عَلىٰ مَا تقضي به المَصلحة العامّة من أَموال الأَغنياء إذَا قضت بذَلك حاجة طَارئة تَعجز عن الوفاء بها المصَادر التَّقليدية لتَمويل النّفقات العامّة.

وشرّع نظاماً للأَموال العامّة يُغذّىٰ من الضّرائب ومصَادر الثّروة العامّة، يضمن مُستوىٰ الكفَاية في العَيش لجَميع النّاس. وبذلك يَحول بين المُجْتَمع الإِسلاميّ وبَين أَنْ توجد فيه ظَاهرة الفَقر بالمعنىٰ الإِقتصادي الإِجتماعيّ المَعرُوف، وإنْ كَان هذا لاَ يعني أَنْ يَتساوىٰ النّاس في دَخلهم وفيما يَملكون، لأَنَّ هذا أمر مُستحيل في أي مُجتمع يَتخيله الإِنسَان عَلىٰ الإِطلاق. ويَدخل في باب الأَحلام والتّصورات الطّوباوية الّتي تَأباها وَاقعية الإِسلام. وبذَلك يَشعر الفُقرَاء أَنَّهُم

لَيسوا مُهملين: لاَ عَين تـرعَاهم، ولاَ يـد تَأسـو جـرَاحـهم، وتَـقيلهم عَـثرات الزّمان... بل يَشعرون أنّهُم ملء سمع المُجْتَمع وبَصره، فتَختفي دوَافع الإجـرام من أنفسهم، وحينذَاك يقول لهُم الإسلاَم: إنّ المَثل الأَعلىٰ هو الفَضيلة، ويَطلب إلَيهم أَنْ يكُونوا فُضلاء... وأَنْ يَجعلوا الأَرض أُختاً للسّماء.

* * *

فقد وعىٰ الإمَام أنّ الإنسَان الجَائع، المُستغل، المَحروم، المُصفّد بالأَغلال لاَ يَستطيع أَنْ يكون فَاضلاً، وأَنَّ من اللّغو أَنْ يُوعظ بالوَعد والوَعـيد، والتّـرغيب والتّرهيب، وإنّ إنساناً كَهذا يَنقلب كَافراً: كَافراً بالقِيم، والفضَائل والإنسَان.

إنّ مِعدته الخَاوية، وجَسده المُعذب، ومُجتمعه الكَافر بإنسانيته، المُتنكر له، وشعُوره بالإستغلال، ومَيسم الضّعة الّذي يُلاحقه أنّىٰ كان ـ هذه كلّها تَجعله لصّاً، وسفّاحاً، وعدوّاً للإنسانيّة الّتي لم تَعترف له بحقّه في الحيَاة الكَريمة.

ووعىٰ أنّ المُجتَمع القَائم عَلىٰ سيَادة فريق وعبُودية فريق، وعَلىٰ آسـتغلال الأَسياد للعَبيد، والأَحرار للمُصفّدين بالأَغلال، مُجتمع لاَ يُمكن أَنْ تُـوجد فـيه فَضيلة ولاَ يُمكن أَنْ يُوجد فيه فُضلاء. إنَّه لَيس إلاّ مُجتمع لصُوص ومُـجرمين وعَبيد، تُسيّر أفرَاده الأَحقَاد والمكر والإستغلال، وما كَانت اللّصوصية والعبُودية ومَا إلَيها يوماً فضَائل تُشرف الإنسَان.

عَلىٰ أَسَاس من هذا الوعي جَعل الإمَام الإصلاح الإقتصاديّ أَسَاساً للإصلاح الإجتماعيّ.

ولقَد كان من الطّبيعي جدّاً ـ حتّىٰ عند المُفكرين والمُـصلحين ـ فـي عـصر

الإمَام وقبله أنْ يُوجد أُناس جَائعون فُقراء، وأنْ يُوجد أغـنيَاء يُـحارون كَـيف يُنفقون أموالهم، فلم يكُن الفَقر بذاته والغنىٰ بذاته مُشكلة إجتمَاعيَّة تَطلب حلاً، لأنّها في نظرهم أمر طَبيعي لاَ مَحيد عنه. إنَّما المُشكلة هي: كَيف السّبيل إلىٰ إسكات الفُقرَاء وحمَاية الأغنياء؟ فكَان الإمَام ـ بَعد النَّبيّ الأعظم ﷺ هو أوَّل من كَشف أنَّ الفَقر والغنىٰ مُشكلة إجتماعية خَطيرة، ونَظر إلَيها عَلىٰ أسَاس أفَاعيلها الإجتمَاعيَّة.

إنّ فَلسفة الفَقر عندهُ تَجتمع في هَاتَين الكَلمتَين:

«إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ»[1].

وَ «مَا رأيتُ نِعمة مَوفُورة إلاّ وإلىٰ جَانبها حقّ مُضيّع»[2].

ومن هُنا أصبح من أبرز المَشاكل الَّتي حَفل بها مَنهجه الإصلاحي يَوم وليَ الحُكم، مُشكلة الفَقر والغِني.

ولقد كَان مُجتمعه إذ ذَاك يُعاني جرَاحاً عَميقة بسبب هَذه المُشكلة، فَقد وليَ الإمَام الحُكم والتّفاوت الطّبقي في المُجتَمع الإسلاميّ عَلىٰ أشدّ ما يكون عُمقاً وٱتّساعاً.

ففي العَهد السّابق عَلىٰ ولاَية الإمَام ﷺ للحُكم كَانت الطّريقة المُتّبعة في التّقدير وإظهار الكَرامة هي التّفضيل في العَطاء. وقد أُتّبعت هذه الطّريقة في بَعض

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٢٨).

(٢) أنظر، روَائع نَهج البلاَغة لجُورج جُرداق: ٨٣ و ٢٣٣.

الحَالات بصُورة خَارجة عن حدود المَعقُول والمَقبول، فَفُضّلَ من لاَ سَابقة لهُ في الدِّين ولاَ قِدم له في الإِسلاَم عَلىٰ ذوي السّوابق والأَقدار.

وقد أوجد هذا اللّون من السّياسة المَالية طَبقة من الأَشراف لاَ تَستمد قِيمتها من المَثل الأَعلىٰ للإِسلام، وإِنّما تَستمدها من السّلالة والغِنىٰ والإِمتيازات الّتي ولاَ مَاض عَريق، وكان من عقَابيل ذَلكَ أَنْ أحسّ الفُقرَاء الضّعفاء بالدّونية وأستشعر الأَشراف الإِستعلاء، وحُرم الفُقرَاء المَال الّذي تَدفق إِلىٰ جيُوب الأَغنيَاء.

فلمّا وليَ الإِمَام الحُكم ألفىٰ بين يَديه هذا الإِرث المُخيف الّذي يُهدد بإِستئصال مَا غَرسه النَّبيّ ﷺ في نفُوس المُسلِمين.

وقَد عَالج هذا الوَاقع الّذي سِيق إِلَيه بالتّسوية بَين النّاس في العَطاء، فالشَّريف والوَضيع، والكَبير والصّغير، والعَربي والعجمي، كلّهم في العَطاء سواء. فَلم يَجعل العَطاء مَظهراً للتّفاضل بين الأَفراد والأَفراد والطّبقات والطّبقات. وبهذا أظهر للنّاس أَنَّ القِيمة لَيست بالمَال، وحَال بين الفُقرَاء والضّعفاء وبَين الشّعور بالدُّونية، وبَين الأَشراف والأَقوياء وبَين أَنْ يَشعروا بالإِستعلاء. وأهَاب بالنّاس أَنْ يَثوبوا إِلىٰ الله فيَجعلوا التَّقوىٰ مناط التّفاضل ومقِياس التَّقوِيم.

وقَد ثَارت الطّبقة الأُرستقراطية لسيَاسة المُساواة المَالية الَّتي قام بها الإِمَام فأشَاروا عَليه أَنْ يَصطنع الرّجال بالأَموال، فقَال:

«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ! أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي

غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ، وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ. وَلَمْ يَضَعِ ٱمْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَلاَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاَّ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَٱحْتَاجَ إِلَىٰ مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ، وَأَلأَمُ خَدِينٍ»[1].

ولَم يكُن هَذا كلّ ما يَنتظر الطّبقة الأُرستقراطية عَلىٰ يَديه يوم أمسَك بالزّمام، لقَد كانت أموال الأُمّة تَتدفق ـ تَحت عَينيه ـ قبل أنْ يتولىٰ الحُكم إلىٰ جيوب فريق من النّاس، فأخذ عَلىٰ نَفسه عهداً بمُصَادرتها، بردّها إلىٰ أهلها، وكان أَنْ أعلن للنّاس يوم وليَ الحُكم مَبدأ من جُملة المبَادىء الَّتي أعدّها لمُحاربة الفَقر الكَافر في مُجتمعه المُوشك عَلىٰ الإنهيار، فقَال:

«ألاَ إنّ كلّ قَطيعَة أَقطَعها عُثمَان، وَكلّ مَال أعطَاه مِن مَال الله، فَهو مَردُود في بَيْت المَال»[2].

«وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!»[3].

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٢٦) «أَنْ أَطْلُبَ النَّصرَ بِالْجَوْرِ».

(٢) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لاِبْن أبي الحَديد: ١ / ٢٦٩، شَرح نَهج البَلاَغة لمُحمَّد عَبده: ١ / ٤٦، روَائع نَهج البلاَغة لجُورج جُرداق: ٩٥، السِّيرة الحَلبيّة: ٢ / ٨٧.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٥) «مِن أينَ لَكَ هَذا؟»، وهَذا كلاَم جُزء من خُطبة خَطبها في اليَوم الثّاني من بَيعَة النّاس لهُ بالخلاَفة، ولَم يَذكر الرّضي﵀ النّص بكَامله.

وكَم كَان يَقضّ مَضجعه عَدم التّوازن في تَوزيع الثّروات في زمَانه ﷺ، فتَرَاه يُصرخ أكثَر من مرّة، من عَلىٰ مِنبر الكُوفة، بمِثل هذَا القَول:

«عِبَادَ اللهِ، إِنَّكُمْ ـ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ـ أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاٰ يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَلاٰ الشَّرُّ فِيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَلاٰ الشَّيْطَانُ فِي هَلاٰكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً. فَهَذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ. اَضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً! أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ، وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ، وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ»(١).

ولاَ يُعالج الفَقر عندَ الإِمَام بالمَواعظ والخُطب، وإِنَّما يُعالج بحمَاية مَال الأُمّة من اللُّصوص والمُستغلِين، ثُمّ بصَرفه في موَارده.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٢٩) «الأَغنِيَاء والفُقرَاء».

وبهذا عالجه الإمام، فكان عيناً لا تنام عن مراقبة ولاته على الأمصار: وعن التعرف على أموال الأمة وطرق جبايتها وتوزيعها.

وكم من والٍ عزل وحوسب حساباً عسيراً لأنه خان أو ظلم أو استغل.

وكم من كتاب كتبه عليه السلام إلى ولاته يأمرهم أن يلزموا جادة العدل فيمن ولوا عليهم من الناس[1].

وبينما هو يأمرهم بهذا يضع عليهم العيون والرقباء ليرى مدى طاعتهم وتنفيذهم لأوامره.

لقد كان عليه السلام، بهذا، أول من اخترع نظام التفتيش.

ولقد كان يكتب إلى ولاته:

(١) أنظر، نهج البلاغة ـ راجع مثلاً كتابه إلى الأشعث بن قيس عامل آذربيجان، رقم النص: (٥): «وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلاَ تُخَاطِرَ إلاَّ بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلاَّ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ، وَالسَّلاَمُ»، وكتابه إلى زياد بن سمية وهو متول على البصرة، رقم النص: (٢٠ـ٢١): «وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ الأَمْرِ، وَالسَّلاَمُ»، «فَدَعِ الإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ.

أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ ـ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالأَرْمَلَةَ ـ أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ، وَقَادِمٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَالسَّلاَمُ»، وكتابه إلى بعض عماله، رقم النص: (٤٦): «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَىٰ إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَىٰ مَا أَهَمَّكَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لاَ تُغْنِي عَنْكَ إِلاَّ الشِّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، وَالإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّىٰ لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلاَ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلاَمُ»، وغير ذلك كثير نجده في باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام في القسم الأخير من نهج البلاغة.

«أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لاٰ شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلاٰ وَكِيلَ دُونَـهُ. وَأَمَـرَهُ أَلاَّ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَـىٰ غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَـخْتَلِفْ سِـرُّهُ وَعَـلاٰنِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّىٰ الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ.

وَأَمَرَهُ أَلاَّ يَـجْبَهَهُمْ وَلاٰ يَـعْضَهَهُمْ، وَلاٰ يَـرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الْإِخْـوَانُ فِـي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَىٰ ٱسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبُؤْساً لِمَنْ ـ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ ـ الْفُقَرَاءُ، وَالْمَسَاكِينُ، وَالسَّائِلُونَ، وَالْمَدْفُوعُونَ، وَالْـغَارِمُونَ، وَٱبْـنُ السَّـبِيلِ! وَمَـنِ ٱسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَـلَّ بِـنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْـخِزْيَ فِـي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِـرَةِ أَذَلُّ وَأَخْـزَىٰ. وَإِنَّ أَعْـظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْـظَعَ الْـغِشِّ غِشُّ الْأَئِـمَّةِ، وَالسَّلاَمُ»[1].

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة ـ مِن عَهد لهُ إلىٰ بَعض عمّاله عَلىٰ الخَرَاج، رَقم النَّص: (٢٦). «أَعْـظَمُ الْـخِيَانَةِ

وليس الوُلاَة أعضاء في شِركة مُساهمة هَدفها أَنْ تَستغل الأُمّة وإنَّما هُم كمَا كَان يَكتب إلَيهم:

«مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ ٱجْتِنَابِهِ مَا لاٰ عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ. فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَٱصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاَءُ الأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الأَئِمَّةِ. وَلاٰ تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلاٰ تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلاٰ تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلاٰ صَيْفٍ، وَلاٰ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلاٰ عَبْداً، وَلاٰ تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَلاٰ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلاٰ مُعَاهَدٍ، إِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاَحاً يُعْدَىٰ بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ الإِسْلاٰمِ، فَإِنَّهُ لاٰ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الإِسْلاٰمِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَلاٰ تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً،

← خِيَانَةُ الأُمَّةِ».

وَلاٰ الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلاٰ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلاٰ دِينَ اللهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلاٰ قُوَّةَ إِلاّٰ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»[1].

وكَون الأَموال العامّة هي أموال الأُمّة مَفهوم لم يَأخذ صِيغته الحـقّة إلاّ عَـلىٰ لسَان الإمَام عليه السلام وفي أعمَاله. لَقد جَاءه أخوه عَقيل يَطلب زيَادة عن حقّه فـردّه مُحتجاً بأنّ المَال لَيس لهُ وإنّما هو مَال الأُمّة[2]، وجَاءه ثَان يَطلب إِلَيه أَنْ يُعطيه مَالاً، مُدلاً بمَا بَينهما من رَابطة الحُبّ فَردّه قَائلاً:

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة ـ من كتَابٍ له إلىٰ عمّاله عَلىٰ الخَرَاج، رَقم النّص: (٥١).

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَةُ (٢٢٤): «وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلاَلِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَىٰ اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَىٰ الْبِلَىٰ قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَىٰ حُلُولُهَا؟!.

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّىٰ اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَىٰ نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَىٰ وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظَىً؟! وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذٰلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَلٰكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَىٰ، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَىٰ! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ».

«إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ»[1].

* * *

بهذا كلّه لم يَكل الإسلاَم ولاَ الإمَام أمر التزَام الفَضيلة في السّلوك إلىٰ الضّمير وحدَه وإنّما جَعلا لها سنداً من القَانون يَكفل لها أنْ تَصير واقعاً إجتماعيّاً تـنبني عَليه العلاَقات الإجتمَاعيَّة والسّلوك الإنسَانيّ.

ولكنّهما لم يَجعلا القَانون كلّ شيء في حيَاة الإنسَان لئلا يكون آلة مسيّرة لاَ تَملك اختيار مَا تُريد، وإنّما أنَاطا جَانباً من سلُوكه بـمُلزمات الضّـمير بـعد أَنْ أيقظا هذا الضّمير. ولم يكلا أمر صيَانة المُجتمع من أخطَار التّفاوت الطّبقي إلىٰ الفَضيلة وحدهَا، لأنّها لاَ تسدّ حَاجات الإنسَان الّتي لاَ يقوىٰ بدونها عَلىٰ التزَام الفَضيلة ومكَارم الأَخلاق، وإنّما أنَاطا جانباً من مهمّة الصّيانة بالإقتصاد لأنّه هو الّذي يَسد حاجَات الإنسَان.

وهَكذا، بَين الضّمير اليَقظ والقَانون الوَاعي لحَاجات الفَرد والمُـجْتَمع يَـنمو الإنسَان المُسلم، ويأخذ سَبيله إلىٰ الكمَال النّسبي الّذي يُتاح للإنسَان.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٢٣٢) «حَول المَال».

قَالَ الشَّريف الرَّضي: كلّمَ الإمَام بهذا عَبدالله بن زَمعة، وهو من شِيعته، (عَبدالله بن زَمعة بن الأَسود ابن المُطّلب بن عَبدالعزىٰ بن قصي. أمّه قَريبة بنت أبي أُميَّة بن المُغيرة بن عمرو بن مَخزوم).

أنظر، رجَال الطّوسي: ٢٣، مَجمع الزَّوائد: ١٠ / ١٣، تَهذيب التّهذيب: ٥ / ١٩٢، تَهذيب الكمَال: ٣٣ / ١١٥.

وحَيث قَد تَبين لنَا مَوقف الإسلاَم ومَوقف الإمَام من الطّبقات الإجتمَاعيَّة والتّفاوت الطّبقي، فَلنسلُك سَبيلنا إلىٰ درَاسة الطّبقات الإجتمَاعيَّة في نَهج البَلاَغة.

* * *

رَاجع الأَوامر بالتّقوىٰ، ووَصفها، ووَصف المُتّقين في نَهج البَلاَغة في النّصوص التّالية:

رَقم: «١٥، و ٦٢ و ٨١ و ٨٢ و ١١٢ و ١٣٠ و ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٥ و ١٧١ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٦ و ١٨٩ و ١٩٠ (القَاصعة) و ١٩١ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٦ و ٢٢٨»[1]، وفي بَاب الكُتب رَقم (١٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٣٠ و ٣١، (وصيَّته لابْنه الإمَام الحَسن عليه السلام) و ٤٥ و ٤٧ و ٥٣ (عَهد الأَشتَر) و ٤٦ وفي المُختار من حِكمه وكَلماته القصَار ـ رَقم (٩٥ و ٢٠٣ و ٢١٠ و ٢٤٢ و ٣٤٤ و ٣٨٨ و ٤١٠)..

---

(١) «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ، وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ، وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ».

أنظر ٱلخُطْبَة رَقم (٢٣٤) من شَرح النّهج للسيّد عليّ نقي فيض ٱلإسْلاَم: ٨٠٢، وٱلخُطبَة: (١٩٢) من خُطب الشّريف الرّضي.

مَدخَل إلىٰ دَراسَةِ الطّبقَاتِ في نَهج البَلاَغة

مَصدَرنا الكَبير والأَساس من نَهج البَلاَغة، في دِرَاسة الطّبقات الإِجتمَاعيَّة عندَ الإِمَام هو كتَابه إلىٰ مَالك بن الحَارث الأَشْتَر النّخعي حِين ولاَّه مصر وعَزل به مُحَمَّد بن أبي بَكر عَنها يَوم شَغب الحِزب الأُموي عَلىٰ هـذا الأَخـير، وضَـعف أمره.

ولَكن لم يُطبّق في مَصر شيء من هذا القَانون الّذي كَـتبه الإِمَـام. فَـقد دسّ مُعَاوية من قضى عَلىٰ الأَشْتَر وهو في أعتَاب مَصر[1] بسم دسّ فـي كَأس مـن عَسل، وذَلكَ في سَنة (٣٨ هجرية)[2]، وبَعد ذَلكَ قُتل مُحَمَّد بـن أبـي بَكـر[3]،

(١) القَلزم ـ مَنْطقة السّويس حَاليّاً.

(٢) الأَشتر هو مَالك بن الحَارث النّخعي، أدرَك الرّسول ﷺ وكان رَئيس قَومه، شترت عينه في اليَرموك فلقّب بالأَشتر، ولهُ موَاقف شَهيرة في الجَمل وصفّين مع عَليّ عليه السلام وفي سنَة (٣٨ هـ) ولّاه علىٰ مصر، فأمر مُعاوية دهقَاناً وكان بالعَريش ـ مَدينة من أوّل أعمَال مصر من ناحية الشّام ـ أنْ يَدسّ له السمّ، فلمّا نَزل الأَشتر العَريش سمّه الدّهقان في عَسل، فقَال مُعاوية: «لله جنُود من العَسل».

أنظر، مُروج الذّهب: ٢ / ١٣٩ طَبعة بيروت، المُغتالين من الأَشـراف: ٣٩، وتأريـخ اليـعقوبي: ٢ / ١٣٩ طَبعة بيروت ومُعجم البُلدان: لُغة بَعلبك، شَرح النّهج لابن أبي الحَديد: ٢ / ٢٩، والطَبري في تأريخه: حوَادث سنَة (٣٨ ـ ٣٩هـ)، تهذيب الكمَال: ٢٧ / ١٢٦ الرّقم ٥٧٣١، مُعجم رجَال الحَديث: ١٤ / ١٦١ الرّقم ٩٧٩٦.

↔ التأريخ في كلّ يوم يكشف لنا منقبة من مناقب هذا الصعلوك! وهذا التقويم لمعاوية ليس من الشيعة حتى تقول هذا من مفتريات الشيعة، بل إنّ الأعجب هنالك إعتراف صريح من قبل مؤرخيكم ممّن يخلط بين الحق، والباطل بعد إطلاعه على أحاديث الرّسول الأكرمﷺ، وكذلك أقوال بعض الصحابة، والتابعين، بل حتّى من مستشاري معاوية نفسه، وبطانته، بأنّ معاوية ملعون على لسان رسول اللهﷺ، بل أمر المصطفى الأمجد، والّذي لا ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، المسلمين إذا رأيتم معاوية على منبري فأقتلوه، و... و... ثمّ بعد هذا الإطلاع يقول بكلّ صلافة ووقاحة أنّ سيّدنا معاوية دسّ السُم لسيّدنا الحسن، بواسطة جعدة بنت الأشعث، واشترك سيّدنا معاوية بسم الأشتر، و... ثمّ يقول: قتل سيّدنا يزيد سيّدنا الحسين، وهكذا يستمر في هذه الخزعبلات، والترهات، ثمّ يدّعي بأنّه من المؤرّخين المنصفين المحايدين... وها هو عبد الله بن بديل يقول في معاوية: «إنّ معاوية أدّعى ما ليس له، ونازع الأمر أهله، ومن ليس مثله...».

أنظر، وقعة صفّين: ٢٣٤، طبعة القاهرة، تأريخ الطّبريّ: ٩/٦، ابن الأثير: ١٢٨/٣، الإستيعاب: ١/ ٣٤٠، شرح النّهج لابن أبي الحديد: ١/ ٤٨٣المقاتل: ٤٣، وأنساب الأشراف: ١/ ٤٠٤، وابن أبي الحديد في شرح النّهج: ٤/ ١١ و١٧، ابن كثير: ٨/ ٤١، تأريخ الخلفاء: ١٣٨، الإصابة ترجمة الحسن، ابن قتيبة: ١٥٠، الصّواعق: ٨١، المسعودي في مروج الذّهب بهامش الكامل: ٢/ ٣٥٣، ٦/ ٥٥، وتهذيب تأريخ دمشق لابن عساكر: ٤/ ٢٢٦، وأسماء المغتالين من الأشراف: ٤٤، وتأريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢٥، وابن الأثير: ٢/ ١٩٧، وابن شحنة بهامش ابن الأثير: ١١/ ١٣٢، تأريخ الدّول الإسلاميّة: ١/ ٥٣، تذكرة الخواصّ: ٦٢، تأريخ أبي الفداء: ١/ ١٩٤، الإستيعاب: ١/ ٣٨٩، تأريخ الخلفاء للسيوطي: ٧٤، مستدرك الحاكم: ١٧٦/٣.

أنظر، في شرح الخطبة: (١٩).

العسل الّذي كان يدس فيه السمّ، وقتل به الأشتر النّخعيّ.

العسل الّذي كان يدس فيه السمّ، وقتل به عبدالرّحمان بن خالد.

العسل الّذي كان يدس فيه السمّ، وقتل به خالد بن الوليد عندما دخل دمشق مستخفياً.

أنظر، الإستيعاب: ٢/ ٣٩٦ تحت رقم ١٦٩٧، أسد الغابة: ٣/ ٢٨٩، تأريخ الطّبريّ: ٦/ ١٢٨، وابن الأثير: ٣/ ١٩٥، المغتالين من الأشراف: ٤٧، ابن كثير في البداية والنّهاية: ٨/ ٣١، الأغاني: ١٤/ ١٣، مختصر ابن شحنة في هامش ابن الأثير: ١١/ ١٣٣، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١٧١ طبعة بيروت.

وتمّت لمُعاوية الغَلبة عَلىٰ مصر فَنزل عنها لعَمرو بن العاصّ وفَاء بـالعَهد الّـذي بَينهُما[1].

---

(٣) مُحَمّد بن أبي بَكر وأمّه أسمَاء بنت عُميس الخَثعمية تزوّجها أبو بَكر بعد اَستشهاد جَـعفر بـن أبـي طَالب فولدت له مُحمّداً في حجّة الودَاع بطريق مكّة. ثمّ نَشأ في حجر عليّ بعد أبيه وشهد معه حَرب الجَمل وكان علىٰ الرجّالة وشهد معهُ صفّين، ثمّ ولاّه مصر فدخلها في ١٥ شهر رمضَان (٣٧هـ). فجهّز مُعاوية جَيشاً بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر فتغلّب عمرو عليه سنَة (٣٨هـ) وقَتله مُعاوية بن خديج صبراً، ثمّ أدخلوا جَسده في بَطن حمَار ميّت وأحرقُوه، وعندما بلغ ذلك عَائشة بَكت بُكاءً شديداً.

وهي الّتي خَاطبت أمّ حبيبة أخت مُعاوية بن أبي سُفيان عندما عَملت الأخيرة شَوت كَبشاً وبَعثت بِهِ إلىٰ عَائشة تشفّياً بقتل مُحمّد بطَلب دمّ عُثمان، فقَالت عَائشة: قَاتل الله اَبنة العَاهرة، والله لاَ أكلت شوَاءً أبداً، ثمّ ضمّت عيَاله إليها، ورَعت حقّه ولم تَنسه مدىٰ الحيَاة، وهو القَائل لها بـعد أنْ اَنـتهت معركة الجَمل وأدخل رَأسه إليها، قَالت: مَن أنتَ ويلَك؟.

قَالَ: أبغَض أهلك إليك.

قَالت: اَبن الخَثعمية؟.

قَالَ: نَعم.

قالت: الحَمد لله الّذي عَافاك...

اُنظر، تذكرة خواصّ الأمّـة: ١١٤ طَـبعة النّـجف، التّـمهيد والبَـيان: ٢٠٩، الأغـاني: ٢١/٩، الإشتقاق: ٣٧١، الطّبري واَبن الأثير واَبن كثير في ذكر حوادث سنَة (٣٦هـ)، الإصابة حرف المِيم: ٣ ق ٢/٤٥١، الإستيعاب: ٣/٣٢٨، الفتوح لاِبن أعثَم: ١/٤٧٢ وما بعدها، الإمَامَة والسّياسَة لاِبن قُتيبة: ١/٥٥ وما بعدها، تَهذيب الكمَال: ٢٤/٥٤١ الرّقم ٥٠٩٧، شَرح النّهج لاِبن أبي الحَديد: ٣/١٩٠.

(١) لَم يُوافق عَمرو بن العاصّ عَلىٰ الإشترَاك مع مُعَاوية في العَـمل السّـياسي والعَسكـري ضـدّ أمِـير المُؤمِنين عَليّ عليه السلام إلاّ بعد أنْ تَعهد مُعَاوية بأنْ يُولي عَمرو بن العاصّ عَلىٰ مَصر ولاَية مُطلقة. وقَد جَاء في صكّ الولاَية المَذكورة «إنّ مُعَاوية أعطىٰ عَمرواً اَبن العاصّ مصر وأهلها هِبة يَتصرف كَيف يشَاء».

وقَد ورَدت بعض الإشَارات في نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٢٦) إلىٰ هَذه الإتّفاقية بين مُعَاوية وعَمرو بن العاصّ منها قَوله: «وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّىٰ شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَىٰ الْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا، وَعَلاَ سَنَاهَا، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ،

⟷

وما بين أيدينا من هذا العَهد لَيس تمَامه. لاَ، إنّما قُطع منه اختارها الشّريف الرّضي رحمه الله. ولَيته أثبته كلّه، إذن لزدنَا بصراً بآراء الإمَام في هذا المَوضُوع، ولَكن مَاذا نَصنع والشّريف لم يَختر إلاَّ البَلِيغ من كلاَمه عليه السلام.

ويُحسن بنا أَنْ نُنوه، ونحنُ عَلىٰ أعتاب البَحث عن الطّبقات الإجتمَاعيَّة في نَهج البَلاَغة، بأنّ التّقسيم الطّبقي الَّذي ذَكره الإمَام يقوم بالدّرجة الأُولىٰ عَلىٰ الوظيفة الإجتمَاعيَّة الَّتي تُوديها كلّ طَبقة، وهُناك تقسيم آخر يتم في دَاخل الطّبقات هو التّقسيم عَلىٰ أسَاس المَثل الأعَلىٰ، والتّقسيم الأوّل لاَ يَستتبع حُكماً تَقويمياً عَلىٰ الشّخص المُنتسب إلىٰ طَبقة ما يَجعله في القمّة أو يَنحدر به إلىٰ الحَضِيض.

إنّ التّقسيم الَّذي يَستتبع الحُكم التّقويمي، أعني الَّذي يُحدّد قِيمة الشّخص، إنّما هو التّقسيم الثّاني، فالإنسَان الَّذي يَستغل إمكاناته في سَبيل خَير المُجتَمع هو في القمّة أمّا الإنسَان الَّذي يتّخذ هذه الإمكانات سَبيلاً إلىٰ العَيث والإفساد وإضرار المُجتَمع فذلك شخص يَحتل مَركزه في الطّبقات السُّفلىٰ.

وإذن فترتيب الطّبقات في التّقسيم لاَ يعني تَرتيبها في القيمَة، فيكُون الجُنود

↔ فَإنّهُ أدْعَىٰ إلَى النّصْرِ».

ومِنهَا: «عَجَباً لِابنِ النّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأهْلِ الشّامِ أنّ فِيَّ دُعَابَةً، وأنّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ: أُعَافِس، وأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً. أمَا ـ وَشَرُّ القَوْلِ الكَذِبُ ـ إنّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيَخُونُ العَهْدَ، وَيَقْطَعُ الإلَّ، فَإذَا كَانَ عِنْدَ الحَرْبِ فَأيُّ زَاجِرٍ، وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أنْ يَمْنَحَ القَرْمَ سُبّتَهُ. أمَا وَاللهِ إنّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللّعِبِ ذِكْرُ المَوْتِ، وَإنّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الحَقِّ نِسْيَانُ الآخِرَةِ، إنّهُ لَمْ يُبَايعْ مُعَاوِيَة حَتّىٰ شَرَطَ أنْ يُؤتِيَهُ أتِيّةً، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَىٰ تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً». نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٨٤).

هم الطّبقة العُليا ويكُون المُعدمون هم الطّبقة السُّفلىٰ، وتكُون قيمَة ما بَينهما عَلىٰ هذَا التّرتيب قُرباً من الجُنُود وبُعداً عنهم. لاَ، فَقد عَرَفت أنّ الإِمَام لَم يُراع قيمَة كلّ طَبقة حين قدّمها وأخّرها، وإِنّما رَاعىٰ الخَدمات الإِجتمَاعيَّة الّتي تقوم بها، أمّا القِيمة فلاَ تُقاس إلاّ بالتّقوىٰ.

ونُقدم بين يَدي بَحثنا هذا مُلاحظة لها خَطرها، وهي: أنَّ هُناك طَبقات «فِئات» اَفترض الإِمَام وجُودها وتَحدث عنها كأهل الخَرَاج، وَالتُّجّار والصُّنّاع، والمُعدمين، وهُناك طَبقات لم يَفترض وجُودها، وإِنّما تَكلّم رَأساً في كَيفية إِنشائها وتكوينهَا، فإلاَمَ تُشير هَذه المُلاَحظة؟.

إنّ ما تُشير إِلَيه هذه المُلاحظة، فيما أرىٰ، أمر طَريف جدّاً ومُعجب حقّاً، فالطّبقات الّتي تكلّم الإِمَام في كَيفية إِنشائها وتكوينها هي: طَبقات «فِئات» العَسكريّين، والوزرَاء، والوُلاَة، والقُضَاة. وهذه الهَيئات هي الّتي تَشرف عَلىٰ تَنظيم المُجْتَمع وسَير الحيَاة الإِجتمَاعيَّة والإِقتصَاديَّة والسِّياسيَّة والدّفاعيَّة، وبها يَتعلق مَصير المُجْتَمع النّير أو الوَبيل، وقد كانت هَذه الأَجهزة قَبل عَهد الإِمَام فَاسدة ومُتهرئة فأرَاد الإِمَام أنْ يُنشئها من جَديد.

ومن هَذه المُلاحظة نَستَكشف مدىٰ عَظمة الإِمَام في المسَائل الإِجتمَاعيَّة. فالمُجتمع، خيرّه وشرّه، نحنُ نَصنعه بأيدِينا، ولَيس ضَربة لاَزمة لنا أَنْ نَعيش في مُجتمع مُتذائب مُتداع لاَ يُوفر لأَفراده فُرصاً حَسنة، وإِنّما بإِمكاننا أَنْ نَعيش في مُجتمع حَسن التّنظيم يَجد فيه كلّ فرد من الأَفراد المجَال الرّحب لتَحقيق مطَامحه الّتي يُريد، ولاَ يتم ذَلكَ إلاّ إِذَا أصلحنا الأَجهزة الّتي تُدير آلة الحُكم أو بَدّلناها بأُخرىٰ أجدىٰ منها.

بهذه العَقلية العَظيمة الوَاعية نَظر الإمَامعليه السلام إلىٰ المُجتَمع الإسلاميّ في أيّامه، وبهذه العَقلية العَظيمة الوَاعية وضع له هذا النّهج وسنّ له هـذا القَـانون، ولكـن مُجتمع مصر لم يَسعد بتَطبيق هذا النّظام.

* * *

قسّم الإمَام الرّعية إلىٰ طَبقات «فِئات» تِسع.

١ ـ (جُنُودُ اللهِ).

٢ ـ (كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ)، وهُم بمَنزلة الهَيئة الوزَارية ومُساعديهَا.

٣ ـ (قُضَاةُ الْعَدْلِ).

٤ ـ (عُمَّالُ الْإنْصَافِ وَالرِّفْقِ).

٥ ـ (أَهْلُ الْجِزْيَةِ .... مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ).

٦ ـ (وَالخَرَاج ... مِنْ مُسْلِمَةِ الْأُمَّة).

٧ ـ (التُّجَّارُ).

٨ ـ (أَهْلُ الصِّنَاعَاتِ).

٩ ـ (الطَّبَقَةُ السُّفلىٰ).

ولكنّه في مَورد ثَان جَعل القُضَاة والوُلاَة والكتّاب طَبقة وَاحدة، وإنْ كَان فيمَا بَعد قد جَرىٰ في الكلاَم عن الطّبقات عَلىٰ تَقسيمه الأوّل.

ومَع أنّه يُمكن إدراج الكتّاب والوُلاَة في طَبقة واحدة بإعتبارهم إداريِّين من حَيث الوظِيفة، وبإعتبار أنّ «نَوع الحيَاة» الَّذي يُحيونه واحد أيضاً، فَإنّ مُستوىٰ الدّخل والإنفاق والتّصورات الإجتمَاعيَّة عندهُم واحدة أو مُتقاربة تقَارُباً شَديداً

أقول مع أنّه يُمكن إدراج هَاتين الطّائفتَين في طَبقة واحدة جَعلهما الإمَام طَبقتين مُتمايزتين. وأحسب أنَّ الّذي دَفعه إلىٰ ذَلكَ رَغبته الأكيدة في التَّنصيص التّام عَلىٰ كَيفية تأليف كلّ جهاز من أجهزة الحُكم في الدَّولة لئلاَّ يَقع اللّبس والإبهام من آشتراك طَائفتَين مُختلفتي مجَال النّشاط في حَديث واحد.

ونحنُ، مُحافظة منّا عَلىٰ إبراز جَميع خصَائص العَهد، سَنجري في كلاَمنا عن الطّبقات حَسب تَقسيمه عليه السلام وإنْ لم تَكن ثُمّ ضَرورة، بلحَاظ الطّبقات ذَاتها، تدعو إلىٰ آتّباع هذَا النّهج.

* * *

وبَعد أنْ قسّم الإمَام الطّبقات عَلىٰ النّحو الّذي رَأيت، تـقدّم بـمُلاحظة ذَات مَغزىٰ، وهي أنَّ كلّ واحدة من هَذه الطّبقات، عدَا الطّبقة الّتي لاَ تَستطيع عَملاً، ضَرورية للمُجتمع، والعَمل الّذي تقوم به ضَروري الوجود، وكمَا أنّه يَـعتد فـي وجُوده عَلىٰ جهود الآخرين كذَلكَ جهُود الآخرين لم تكُن لتوجد لولاَه. ولذَلك قَالَ عليه السلام:

«وَٱعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاٰ يَصْلُحُ بَـعْضُهَا اِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاٰ غِنَىٰ بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَـمِنْهَا جُـنُودُ اللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْـخَاصَّةِ، وَمِـنْهَا قُـضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْـلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْـلِمَةِ النَّـاسِ، وَمِنْهَا التُّـجَّارُ وَأَهْـلُ الصِّـنَاعَاتِ، وَمِـنْهَا الطَّـبَقَةُ

السُّفْلَىٰ مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّىٰ اللهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَىٰ حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ - ﷺ - عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً»[١].

لولاَ الجُنُود لإنعَدم الأَمن، وحِينئذٍ تَنعدم التّجارة ويَختل نظَام الزّراعة، وإذَا آختل هَذان آنهار الكيَان الإجتماعيّ.

ولولاَ التّجارة والزّراعة لمَا وجدت الضّرائب الَّتي تَمد الجُنُود بالمَال والسّلاح.

ولولاَ التّجارة لحَدثت أزمَات إجتمَاعيَّة تَنشأ من تكدُّس الإنتاج في غير مكَان الحَاجة إلَيه، وعَدم وجُوده في مكَان الحَاجة إلَيه.

والعمّال «الوُلاَة» والكتّاب يَشرفون عَلىٰ تَنظيم هذا النّشاط ولولاَهم لتَسيب وآتّجه آتّجاهات غَير صَالحة.

ولولاَ القُضَاة للجَأ النّاس إلىٰ تَسوية مَشاكلهم بالعُنف، وذَلكَ يؤدي إلىٰ بَلبلة الإجتماع.

وإذن، فالنّشاطات الإجتمَاعيَّة مُتشابكة ومُتداخلة، ولَيس فيها لأَحد عَلىٰ أحد فضل، فكلّ واحد من النّاس يُؤدي عملاً يأخذ في مُقابله من المُجْتَمع أعمالاً كَثيرة، ولو كفّ المُجْتَمع عن تَقديم المَعونة لهُ لمَا أمكنه أَنْ يقوم بشيء.

قَالَ عليه السلام:

«فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ.

---

(١) أُنظر، نهج البلاَغة: الرّسالة (٥٣) «النّاس طَبقَات».

ثُمَّ لاٰ قِوَامَ لِلْجُنُودِ اِلاَّ بِمَا يُخرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَىٰ جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيما يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ.

ثُمَّ لاٰ قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ اِلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا.

وَلاٰ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً اِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيما يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لاٰ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ»[١].

عَهْدُ الأَشْتَر

حَيث كَان النّشاط الإجتماعيّ مُتشابكاً عَلىٰ هذا النّحو، مُتداخلاً عَلىٰ هَـذه الشّاكلة، فيَجب أَنْ تشق لهُ القنوَات الَّتي يَجري فيها عَلىٰ نحو لاَ يَختل ولاَ يَتدافع، ولاَ يطغىٰ لون منهُ عَلىٰ لَون، وأمر هذا مَوكُول إلىٰ الحَاكم.

قَالَ عليه السلام:

«وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَىٰ الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِن حَقِيقَةِ مَا

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «الجُنُود حُصُونُ الرَّعِيَّةِ».

أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْإِهْتِمامِ وَالْإِسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَ تَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَىٰ لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ»[١].

عَهْدُ الأَشْتَر

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «الجُنُود حُصُونُ الرَّعِيَّةِ».

العَسْكريُّون

العَسكريُون خَطر وضَرورَة في آنٍ:

هم خَطر لأَنَّ الطّبقة الَّتي يَنتمون إِليها هي أقوىٰ طَبقات الأُمَّة كلّها؛ فالجَيش طَوع أمرهم، والسّلاح تَحت أيديهم، ولاَ قوّة تَمنعهم من الثّورة إِذَا ما أرَادوا، ولاَ حَاجز يَحول بَينهُم وبين ظُلم الرّعية إِذَا تَمكن ذَلكَ من أنفسهم، ووجد هوىٰ في صدورهم.

والوجدَان الَّذي يَنتظم أفراد هذه الطّبقة يَقتضيهم ذَلكَ ويَنزع بهم نحوه، فـإِنَّ التّصورات الَّتي يتكون منها هذا الوجدَان هي تصورات القوّة والغَلبة والفَتك، ومَا يتبع هذه من تَصورات الخُيلاء والإِستعلاء.

وطَبيعة عَملهم العَسكريّ تَقتضيهم أَنْ يُواجهوا مشَاكلهم مـن طَـريق العُـنف والقَسر وتَحملهم عَلىٰ أَنْ يَحلّوها من هذا الطّريق. وطَبيعة عَملهم أيضاً تَجعلهم يَنظرون إِلىٰ المجمُوعات الإِنسانيّة «كوحدَات عَددية» تقوم بعَمل مُعين لاَ أكثَر ولاَ أقل وذَلكَ لأَنّهم لاَ يَنظرون من الجُندي الَّذي يَدين لهم بالطّاعة إِلىٰ أكثَر من أنّه آلة تُجيد ٱستعمال السّلاح، أمّا ما ورَاء ذَلكَ من صفَات نَفسية وسمَات ذَاتية فلاَ يَنظرون إِلىٰ شيء منها، لأَنَّ هذه كلّها تَنطمس في التّجمع البَشـري الضّـخم المُسمىٰ بالجَيش، ولأنّها لاَ تَعني كَثيراً في أَدَاء المُهمّة المَطلُوبة من الجُندي.

وإذا كانوا يَنظرون إلىٰ الجمَاعة الإنسانيّة عَلىٰ هذا النّحو فلاَ يؤمّنون من الإنحرَاف عن جَادّة الصّواب في مُعاملتهم مع النّاس، لأنَّ الصّفات النّفسية هي الّتي يَجب أنْ تلحظ في هذه المُعاملة، وهم يُغفلونها لأنَّ طَبيعة عَملهم تقتضي ذَلكَ كمَا رَأيت.

هذَا الوجدان الطّبقي «وهو ضَروري إذْ لولاَه لمَا كانوا عَسْكريّين» خَطر إذَا أحتدّ، وعبّر عن نَفسه في غير أوانه وجَرىٰ في غير أقنِيته الحَقيقية.

هذَا هو وجه الخَطر فيهم.

وهُم ضَرورة لأنَّ وجودهم يَحفظ الأمن ويَصون الدَّولة، ويَردع السّفيه ويَضرب عَلىٰ يد المُعتدي.

وحَيث كانوا ضَرورة فلاَ بُدّ من وجُودهم، وحيث كانوا خَطراً فلاَ بُدّ من تفَاديه.

وإذ قد لزم هذا وذَاك فَقد شرّع الإمَامعليه السلام للحَاكم نظَاماً يَستهدي به في تَأليف هذه الطّبقة من جَديد، وشَريعة يجري عليها في أنتخاب مَن يُريد ضمّه إلَيها من رَعيته، وسنّة يأخذ بها في مُعاملتها. وقَصد من ذَلكَ كلّه إلىٰ أنْ يُؤمّن من هذه الطّبقة جانب الضّرورة، ويَنأىٰ بها عن أنْ تكون مَصدر خطر وإرهاب.

* * *

الشّخصية العَسكريّة ضَرورة لاَزمة للقَائد العَسْكريّ لزوم الهوَاء لكلّ كَائن حيّ.

وهَذه الشّخصية عبَارة عن طَائفَة من الصّفات تَلتقي في القَائد فتكُون له شَخصيته.

فيَجب أنْ يكون القَائد العَسكريّ مُتّصفاً بصفَة النّفوذ والهَيبة الّتي تَجعله نَافذ الأَمر، وذَلكَ لأنَّ الصّفة الأُولىٰ المَطلوبة من الجُندي هي الطّاعة وبدونها لاَ يُمكن

أنْ يَنجح جَيش عَلىٰ الإطلاق، ومَا لم يكُن للقَائد العَسكري صفَة النّفوذ والهَيبة بعُدت الطّاعة عن منَال يَديه، وحينئذٍ لاَ يَنجح في عَمله العَسْكريّ.

ويَجب أَنْ يكون واجداً لصفَة الخُبرة بمن يَعمل تَحت يَديه مـن مَـرؤوسِيه، عَارفاً بإمكاناتهم وكفَاءاتهم، ليَضع كلاً منهُم في مَوضعه اللّائـق بـه، لأَنَّ خَـطأ بَسيطاً في تَعيين قَائد ربّما أدّىٰ إلىٰ كَارثة قَومية.

ويَجب أَنْ يكون واجداً للثّقافة العَسْكريَّة: عَارفاً بأَسـاليب قـيَادة الجَـيش وحَركاته، والإستراتيجية العَسْكريَّة.

ولمّا كان القَائد هو المَثل الأَعلىٰ للجُندي وجب أَنْ يكون هـذَا القَـائد مَـثلاً يُحتذىٰ لجنُوده في الصّبر عَلىٰ المَكاره، والتّفاني في القيام بالوَاجب، وهُما من ألزم الصّفات العَسْكريَّة في الجُنُود والقَادة عَلىٰ السّواء.

ولاَ توجد هذه الصّفات في عامّة النّاس، وهي لَيست صفَات تَنحدر بالورَاثة من جِيل إلىٰ جِيل، بل لاَ بُدّ فيها من التَّربية المَنهجية الوَاعية.

ولَم تكُن في زمن الإمَامعليه السلام مدَارس وكلّيات عَسْكريّة تُقدّم مثل هَؤلاء القَادة في كلّ وَقت.

هَذه المُلاحظات دفعت بالإمام إلىٰ تَعيين العنَاصر الّتي يؤخذ منها هَؤلاء. هذه العنَاصر هي البيُوتات الشَّريفَة ذَات الأَحساب والتّقاليد المُتوارثة، فقد كانت هذه البيُوتات تأخذ أبناءها بتَربية قَاسية واعية تُوفر لهؤلاء الأَبناء الثّقافة العَسْكريَّة، وهي من أهم ما كان يأخذ به العَرب ويَعنون بإتّقانه، وتَغرس في أنفسهم الشّعور بالمَسؤولية والتّحمل والصّبر عَلىٰ المكَاره. وقد كانت هذه البُيوتات تَحتل فـي نفُوس أبناء الشّعب، وهم الّذِين يُؤخذ منهم عامّة الجُند، مركزاً سَـامياً حَـصلت

عَليه بسبب الخَدمات الَّتي تُقدّمها هذه البيُوت للأُمّة في الحَرب والسّلم عَلىٰ السّواء، وهذا يُوفّر للقَائد صفَة الهَيبة، ويَضمن لهُ نفوذ الأَمر وحصُول الطّاعة.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ ٱلْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ؛ ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلاَ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلاَ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ ٱتِّكَالاً عَلَىٰ جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

وَلكن هَؤلاء القَادة يَستمدون من وسطهم العَائلي تَصورات القوّة والإستعلاء لمكَان مَا لهُم من مَركز مَرموق في المُجْتَمع، ويَستمدون من وظِيفتهم الجَدِيدة مَا يُعزز هذه التّصورات ويَمدها بالحرَارة والفعَالية، ويَنزع بها إلىٰ التَّحقيق نظراً إلىٰ

(١) أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسالة (٥٣) «رُؤسَاء الجَيْش».

مَا توفر لهم من الهَيمنة عَلىٰ الجيُوش والسّلاح، ويَستمدون من ثقافتهم ما يُزيّن لهُم الفِعل ويُبرر لهُم العَمل ـ هذه اليَنابيع الثّلاَثة للوجدَان الطّبقي عند العَسْكريِّين تَعمل دَائماً عَلىٰ إثارة هذا الوجدان وبَعثه. وهُنا يَظهر وجه الخَطر فيهم، وقد وضع الإمَام العلاَج الوَاقي من هذا الخَطر.

فإلىٰ جانب الصّفات السّابقة يَجب أَنْ تتوفر في القَائد صفَات أُخرىٰ:

مِنهَا: الثّقافة الدِّينية، وهذه الثّقافة لاَ يَكفي فيها أَنْ تكُون «عِلماً» بالوَاجبات الدِّينية فَقط وإِنَّما يَجب أَنْ تكون «وعيَاً» لهَذه الواجبات بحَيث تكون في جهاز القَائد النّفسي قوّة دَافعة تَحمله عَلىٰ أَنْ يَسير عَلىٰ هَديها في حيَاته العِملية، ولاَ تَبلغ هذه الثّقافة هذا المَدىٰ في تأثيرها إِلاَّ إِذَا ٱستحالت في القَائد إِلىٰ «طَاقة شعُورية» مُحركة.

ومِنهَا: أَنْ يكُون أمِيناً لاَ تَمتد يَده إِلىٰ مَا لَيس له، حَليماً لاَ يَحمله الغَضب عَلىٰ فِعل ما لاَ تُحمد عُقباه، واسع الصّدر يَجد العُذر مَوقعاً في نَفسه، رَحيماً بالضّعيف لاَ يتّخذه مَوضعاً لإِظهار مَدىٰ سُلطته... وهَكذا، فإلىٰ جَانب الثّقافة الدِّينية الَّتي يجب أَنْ تَبلغ من نَفس القَائد مَرتبة الطّاقة الشّعوريَّة يَجب أَنْ يكُون عَلىٰ مُستوىٰ أخلاقي عَال يصدّه عن الإِفساد، ويُمسكه عَلىٰ الجَادة، ويَأخذ بعُنقه إِلىٰ الهُدىٰ.

قَالَ عليه السلام:

«فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ للهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَىٰ

الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَىٰ الأَقْوِيَاءِ،
وَمِمَّنْ لاَ يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلاَ يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ»(١).

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

وبَعد أَنْ نَهج الإِمَام القوَاعد الَّتي يَجب أَنْ تُتَّبع في اختيار أفرَاد هـذه الطّبقة أخذ في بيَان الأُسلوب الَّذي يَجب أَنْ تُعامل بهِ.

يَرىٰ الإِمَام أنّه لاَ يجوز للحَاكم أَنْ يَعتمد عَلىٰ التّربية وحدهَا، وعَلىٰ الخُلق الشّخصي وحدَه فيمَا يَرجع إِلىٰ ضمَان إِخلاص هذه الطّبقة. فهو بقَدر ما يَحرص عَلىٰ أَنْ يكون القَادة العَسْكريُّون ذوي تَربية عَالية وخُلق مَتين يَحرص كذَلكَ عَلىٰ تَوفير ما يَتوقون إِلَيه من النّاحيتَين: المَادية والمَعنوية.

فهَؤلاء القَادة يَتوقون إِلىٰ أَنْ يَروا أعمَالهم الَّتي يقُومون بها تُلاقي التَّقدير الَّذي تَستحقه عند الحَاكم، ويَتوقون إِلىٰ أَنْ يَروا أَنَّ عَين من فَوقهم تَرعاهم وتَتعاهد أعمَالهم وتوفّيها ما تَستحق من جَزاء. وهؤلاَء القَادة، كغَيرهم من النّاس، خَاضعون للضّرورات الإِقتصَاديَّة، وربّما كانت حَاجتهم إِلىٰ المَال أكثر من حَاجة غَيرهم إِلَيه، وإِذ كانوا كذَلكَ فلاَ بُدّ للحَاكم من مُراعاة حَالتهم الإِقتصَاديَّة.

ولاَ يَجوز له أَنْ يَعتمد عَلىٰ الخُلق والتّربية في ضمَان إِخلاصهم وتَمسكهُم بمُثلهم العُليا، فإِنّ الحَاجة تَدفع إِلىٰ الإِجرام أو الإِنحرَاف. ولاَ بُدّ له من تَتبع مآثرهم والإِشادة بها، ومَدحهم، والثّناء عليهم بما أبلوا من بَلاء حَسن، وأتوا من فِعلٍ عَظيم.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «رُؤسَاء الجَيْش».

فأمّا حِين تَغفل عنهُم عَينه: فلاَ يَتفقد أحوَالهم، ولاَ يُوليهم منهُ جانب اللِّين والرّأفة ـ حِين يَجدون هذا منهُ يَشعرون بأنّ أعمالهم لاَ تجد ثوَابها وإنّ جُهدهم يَذهب أدرَاج الرّياح، ويَعظم في أعينهُم الصّغير ويَصغر العَظيم، وتَنعدم ثقتهم بالحَاكم، ويَذهب ودّه من قلُوبهم، فلاَ يَمحضونه النّصح، ولاَ يَخدمونه بصدق، لأنّهم لاَ يَجدون في أنفسهِم ما يَدفعهم إلىٰ خِدمته وهو مُتخاذل عنهم مُقصر مَعهم، ويَدفعهم هذا المَوقف النّفسي إلىٰ آستثقال دَولته، وآستطالة مُدّته، والتّبرم بحُكمه، فمَاذا يَمنعهم، وهذا مَوقفهم منه، عن أنْ يَنتقضُوا عليه ويَكيدوا لهُ ويُواجهوه بما لو أحسَن السّياسة لاِتّقاه.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلاَ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلاَ تَحقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ.

وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالاً عَلَىٰ جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِندَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ

يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ.

وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاٰةِ ٱسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلاٰدِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وإِنَّهُ لاٰ تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ، وَلاٰ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاَّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَىٰ وُلاٰةِ الأُمُورِ، وَقِلَّةِ ٱسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِبْطَاءِ ٱنْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ. فَٱفْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو الْبَلاٰءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ»[(١)].

عَهْدُ الأَشْتَر

وتأمل الفقرة الأخيرة: «فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ...» فإنّها تتضمن مَغزىٰ عَميقاً، فبَدلاً من أَنْ يُوجه اللّوم إِلىٰ النّاكل لنكُولة ممّا قَد يُولّد في قَلبه الضّغن والنّية السّيئة ـ بدلاً من هذا يُبعث إِلىٰ العَمل عن طريق المُنافسة، فحِين يَسمع الثّناء عَلىٰ ذوي البلاَء الحَسن من أقرَانه، وحِين يرىٰ أَنَّ العَمل يَجد صدىٰ مُستحباً عند الرّئيس يُعبّر عنهُ بالتّقدير، يَندَفع إِلىٰ العَمل ببَاعث نَفسي فَيجد فيه مُتعة ولذّة يَدفعانه إِلىٰ إِتقانه، بَدل أَنْ يُزاوله مُكرهاً، لو دُفع إِلَيه عن طَريق اللّوم فلاَ يَجد فيه لذّة، ولاَ يشعر نحوه بأي سُرور نَفسي يَدفعه إِلىٰ التّجويد والإِتقان.

وعَلىٰ الحَاكم أَنْ يكون يَقظاً في تتبُّع أفعَالهم، فيَنسب الفِعل إِلىٰ صَاحبه، ولا

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «رُؤساء الجَيْش».

يَتجاوز به إلىٰ غَيره، ولاَ يقصر في جَزائه، فإنّ غَفلته عنهُم تُشعرهم بأنّ أعمالهم لاَ تَجد ثوَابها الحقّ، ولاَ تَلقىٰ التَّقدير الَّذي تَستَحق.

قَالَ عليه السلام:

« ثُمَّ اَعْرِفْ لِكُلِّ اَمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَلاٰ تَضُمَّنَّ بَلاٰءَ اَمْرِئٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلاٰ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاٰئِهِ »[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

والمقيَاس في الجَزاء والثّواب وحُسن الأُحدوثة نَفس العَمل، لاَ السّلالة ولاَ الغِنىٰ ولاَ أي شيء آخر.

قَالَ عليه السلام:

« وَلاٰ يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ اَمْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلاٰئِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلاٰ ضَعَةُ اَمْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاٰئِهِ مَا كَانَ عَظِيماً »[2].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

والمُشاركة الوجدَانية من الأُمور الَّتي يَجب توفرها بين القَائد وجنُوده. فحِينما تتوفر المُشاركة الوجدانيّة بين القَائد وجنُوده، ويَشعرون بأنَّهُم لَيسوا تَحت سُلطان جبّار يَسومهم العذَاب، ويتّخذهم سُبلاً إلىٰ إظهار سُلطانه، ووسَائل

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «رُؤسَاء الجَيْش».

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «رُؤسَاء الجَيْش».

لخدمة مآربه، وإنّما هُم تحتَ رعَاية أبٌ بَارٌ يَعمل لخَيرهم، ويَسعىٰ لإسعادهم، ويَحدب عَليهم، ويَرأف بهم، ويُوجههم نحو ما فيهم صلاَحهم.. حينما يَستقر في أعمَاقهم هذا الشّعور يَعملون بإخلاص وإتقان وحرَارة وإيمان، ويُقبلون عَلىٰ عَملهم بشَوق رغبَةً منهُم في إبهاج قَائدهم وإشاعة الزّهو والفَرح في قَلبه، فإنّ القَائد بجنُوده، وكلّما كان عَملهم رَائعاً ومُتقناً دلَّ ذَلكَ عَلىٰ حُسن تَوجيهه ووَاسع خُبرته وعَظيم مَعرفته. ولَيس بخَاف ما يعُود به هذا عَلىٰ الدَّولة من القوّة والتّماسك.

وكمَا أنَّ المَحبّة والعَطف والخُلق الحَسن شُروط لاَزمة في حصُول هذا الشّعور عند الجُنُود فإنّ تَأمين النّاحية الإقتصَاديَّة شَرط لاَزم أيضاً. فلاَ يَسع جُندياً أنْ يَخلص لعَمله وهو يَسمع، بقَلبه، صُراخ زوجته وأطفَاله من الجُوع أو العِري أو المَرض، لذَلك أرشَد الإمَام الحَاكم إلىٰ أنَّ طَبقة العَسكريِّين يَجب أَنْ تتألف ممّن يولون كلا النّاحيتَين: الإقتصَاديَّة والمَعنوية عَظيم اهتمامهم، وإنَّ خَير قوَاده خَيرهم لجنُوده، وأحدَبهم عَليهم، وأرفَقهم بهم، وأرعَاهم لشؤونهم في السّراء والضّراء، فإنّ هذا هو السّبيل الوَحيد إلىٰ تَوليد هذه المُشاركة الوجدَانية الَّتي تَعود عَلىٰ الدَّولة بأجل الفَوائد وأعظم الخَيرات.

قَالَ عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ
فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ
وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ

همُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ»[١].

عَهْدُ الأَشْتَر

ولأجل التّوسع في مَعرفة مَوقفه من الجَيش وقَادته رَاجع قِسماً من كتَابٍ لهُ إلىٰ أُمرَائه عَلىٰ الجَيش[٢]. ووصيّته لشُريح بن هَانيء عندمَا وجّهه عَلىٰ مُقدّمته إلىٰ الشّام[٣]. وكتَابه إلىٰ العُمّال الّذين يَطأ الجَيش عَملهُم[٤]. وفقرَات من كـتَابه

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «رُؤسَاء الجَيْش».

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالَة (٥٠). «لاَ سِرَّ دُونَكُمْ إلَّا فِي حَرْبٍ».

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَىٰ الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَىٰ رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَىٰ إِخْوَانِهِ.

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ وَجَبَتْ للهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ؛ وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَىٰ الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَىٰ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً، فَخُذُوا هٰذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ، وَالسَّلَامُ».

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالَة (٥٦). «إلىٰ شُرَيْح بن هَانِيء».

«اتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَخَفْ عَلَىٰ نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ، وَلا تَأْمَنْهَا عَلَىٰ حَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ، مَخَافَةَ مَكْرُوهٍ؛ سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ. فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً».

(٤) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالَة (٦٠). «الْجَيْش وَالْمُوَاطِنُون».

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلَادِ.

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُوداً هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَىٰ، وَصَرْفِ الشَّذَىٰ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَىٰ ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ، لا يَجِدُ

↔

إلى أُمراء الأَجناد لمّا اسْتُخلف[1].

هَذه النّصوص في «بَاب المُختَار من كُتب مَولاَنا أَمِير المُؤمِنِين».

↩ عَنهَا مَذهَباً إِلىٰ شِبَعِهِ. فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنهُمْ شَيْئاً ظُلْماً، عَنْ ظُلْمِهِمْ وَكُفُّوا أَيدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَن مُضَارَّتِهِمْ، وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا اسْتَثْنَيْنَاهُ مِنهُمْ. وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الجَيْشِ، فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَا لاَ تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلاَّ بِاللهِ وَبِي، فَأَنَا أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ اللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ».

(١) أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسالَة (٧٩). «إلىٰ أُمَرَاء الجُند».
«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ».

القُضَاة

السّلطة القَضَائيّة من أعظَم سُلطات الدَّولة، بها يُفرق بَين الحقّ والبَاطل، وبها يُنْتصف للمَظلوم من الظّالم. وحِين تجنح الظّروف بهَذه السّلطة إلىٰ الإسفَاف فإنّها لاَ تنزل إلىٰ الحَضيض وحدهَا وإنّما تَجر مَعها المُجْتَمع كلّه أو بَعضه.

حِين تَسف تَصير في عَون الظّالم وتَعضد المُجرم، وحيث أنّها تَنطق باسم العَدالة فإنّها تَسكت كلّ فمّ، وتُطفيء جَذوة الحيَاة في كلّ إنسَان يَتصدىٰ لها.

ومَاذا يحدث حِينئذٍ؟.

يَحدث أَنْ يَستشري الفَساد، ويَعظم الجَور، وتَعم الفِتنة، ويَكون المَظلُوم في الخيَار بين أَنْ يَرفع أمره إلىٰ هَذه السّلطة فيُسلب حقّه بآسم العَدل بعد أَنْ سَلبته إيّاه القوّة، وبَين أَنْ يَسكت حتّىٰ تُحين الفُرصة فيَستعيد حقّه عن طَريق العُنف، وفي بَعض هذا شرّ عَظِيم.

وإنّ الإمَام عليه السلام ليُقدر هذه السّلطة حقّ قَدرها، فيَختم وصَاياه إلىٰ عَامله فيمَا يَتعلق بها بقَوله:

«ثُمَّ ٱخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لاٰ تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلاٰ تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلاٰ يَتَمَادَىٰ فِي الزَّلَّةِ، وَلاٰ يَحْصَرُ مِنَ

الْفَيْءِ إِلَىٰ الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَىٰ طَمَعٍ، وَلاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَىٰ فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

وَهَذا مَا لَم نُشاهده منهُ في غَير هذه الطّبقة من الطّبقات الّتي يتألف مِنها جهَاز الحُكم، ممّا يَدل عَلىٰ أنّه كان يَعي كيف أنّ القَضاء حِين يَصير إِلىٰ غَير أَهْله يَنقلب إِلىٰ أدَاة للظُّلم: ظُلم الضّعفاء، ويَصير مُؤسّسة تَرعىٰ مصَالح الأَقوياء فحَسب.

وقَد تَحدث كَثيراً عن هؤلاء الّذِين يَتسنمُون مَناصب القَضاء ولَيسوا لهَا بأَهل، فيَتحولون بهذا المَنصب إِلىٰ أَدَاة للشرّ والإِفسَاد.

قَالَ عليه السلام :

«وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّىٰ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ آرَائِهِ، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَىٰ أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ،

(١) أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسَالَة (٥٣). «القُضَاة».

وَيقُولُ: أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وَبَيْنَهَا ٱضْطَجَعَ، فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ، لاَ يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَىٰ فَيَتَّبِعَهُ، وَلاَ بَابَ ٱلْعَمَىٰ فَيَصُدَّ عَنْهُ. وَذٰلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ!»[1].

وقالَ عليه السلام:

«وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً، مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الأُمَّةِ، عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، بَكَّرَ فَٱسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّىٰ إِذَا ٱرْتَوَىٰ مِنْ مَاءٍ آجِنٍ، وَٱكْتَثَرَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا ٱلْتَبَسَ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَىٰ الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ: لاَ يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ. فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاَتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَىٰ الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يَذْرُو الرِّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ لاَ مَلِيٌّ - وَاللهِ - بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلاَ أَهْلٌ لِمَا قُرِّظَ بِهِ، لاَ

---

(١) أنظر، نهج البلاغة: الخُطبَة (٨٧) «يَصِفُ الحَقَّ، وَيَعْمَلُ بِهِ».

يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلاَ يَرَىٰ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ. تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ. إِلَىٰ اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلَّالاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً، وَلاَ أَغْلَىٰ ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ»(١).

ولأَجل تفَادي هذا المَصير السّيء لسُلطة القَضَاء، وضَع عليه السلام نـظَاماً يَـجب أَنْ يُتّبع في تَأليف هذه الفِئة، يَضمن أَنْ تكـون عَـلىٰ مُسـتوىٰ عـالٍ مـن الكـفَاءة للمُهمات المُناطة بها.

* * *

تُؤتىٰ السُّلطة القَضَائيَّة من نَاحِيَتين.

الأُولىٰ: نَاحيَة القَاضي نَفسه فَإِذا كَان غَير كُفء لمَنصبه أَسفَّ بهَذا المَنصب، ولَم يُؤد حقّه المَفروض.

الثَّانية: نَاحية المَنصب نَفسه، فمَا لم يكُن القَاضي مُستقلاً في حُكمه لاَ يَخضع لتَأثير هذَا وإِرادة ذَلكَ، لم تكُن هُناك سُلطة قضَائية بالمَعنىٰ الصّحيح، وإِنَّما تكُون

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٧) «ضَالٌّ مُضلٌّ».

السُّلطة القَضَائيَّة حينئذٍ أدَاة لاَ لبَاس رَأي فُلان ثَوب الحقّ وإسباغ مُسحة البَاطل عَلىٰ دعوىٰ فُلان. ولاَ تؤتىٰ السّلطة القَضَائيَّة من غير هَاتين النّاحيتَين.

وقَد رسم الإمَام في عَهده إلىٰ الأشْتَر ثلاَثة أُمُور يَنبغي أَنْ تُتّبع في ٱنتقَاء أفرَاد هَذه الطّبقة ومُعاملتهم، وٱتّباع هذه الأُمُور يَكفل لهُم أَنْ يُمارسوا مُهمتهم بحريّة، وأَنْ يُؤدوا هذه المُهمة بإِخلاص.

هَل يَكفي في صلاَحية الرّحل للقَضاء أَنْ يكُون عَلىٰ مَعرفة بمَواد القَانون الَّذي يَقضي به دون ٱعتبار لتَوفر مِيزات أُخرىٰ فيهِ ؟.

إنّ الجوَاب السّديد عَلىٰ هذا السّؤال هو النّفي، فلاَ يكفي في القَاضي أنْ يكُون عَلىٰ عِلم بموَاد القَانون فحَسب، لأنّه إذَا لم تَتوفر فيه غَير هذه الصّفة يكُون عَالماً بالقَانون، ولاَ يَصلح أَنْ يكون قَاضياً، لأَنَّ مَنصب القَضاء يَتطلب من شَاغله إلىٰ جَانب عِلمه بالشَّريعة، صفَات أُخرىٰ فَصّلها الإمَام في عَـهده، وأنَـاط ٱخـتيار طَبقة القُضَاة بتَوفرها، وهذَا يَعني أنّ فَاقدها لَيس جَديراً بهذا المَنصب الخَطِير.

يَجب أَنْ يكون القَاضي واسع الصّدر كَريم الخُلق، وذَلكَ لأَنَّ مَنصبه يَقتضيه أَنْ يُخالط صنُوفاً من النّاس، وألوَاناً من الخَلق، ولاَ يَستقيم لهُ أَنْ يُؤدي مـهمّته عَلىٰ وجهها إلا إذَا كان عَلىٰ مُستوىٰ أخلاقي عَال يُمسكه عن التّـورط فـيما لاَ تُحمد عُقباه.

ويَجب أَنْ يكون من الوَرع، وثبَات الدِّين، وتَأصل العَقِيدة، والوعي لخطُورة مُهمّته وقِيمة كَلمته، بحَيث يَرجع عن البَاطل إذَا تَبين له أنّه حَاد عن شَريعة العَدل في حُكمه، ولم يُصبها إجتهاده ولَم يُؤده إلَيها نَظره. فلاَ يَمضي حُكـماً تَـبين لهُ خَطأه خشيَة قَالة النّاس.

ويَجب أَنْ يكون من شَرف النّفس، ونقَاء الجَيب، وطُهر الضّمير، بحيث «لاَ تَشرف نَفسه عَلىٰ طَمع» في حَظوة أو كرَامة أو مَال وفضلاً عن أَنْ يَتأصل فيه الطّمع ويَدفعه إلىٰ تَحقِيق مَوضُوعه، وذَلكَ لأَنَّ القَاضي يَجب أَنْ يَجلس للحُكم ضَميراً نَقياً، ورُوحاً طَاهراً، وعَقلاً صَافياً، ونَفساً مُتعالية عن مسَاف الأغرَاض، وألاَّ يَشغل نَفسه بعَرض من أعرَاض الدُّنيا، لأَنَّ ذَلكَ ربّما ٱنحرف به من حَيث لاَ يَدري فأدَان من لهُ الحقّ، وبَرأ من عَليه الحقّ. لتأثره بهاجس نَفسه، وهَاتف قَلبه، ومَطمح هوَاه.

ويَجب أَنْ يكون من الوَعي لمُهمّته بحَيث لاَ يَعجل في الحُكم، ولاَ يُسرع في إبرامه، وإنَّما عَليه أَنْ يَمضي في درَاسة القَضية ويَقتلها بَحثاً ويَستَعرض وجُوهها المُختلفة، فإنّ ذَلكَ أحرىٰ أَنْ يَهديه إلىٰ وجهة الحقّ وسُنَّة الصّواب، فَإذا مَا ٱستُغلق الأَمر وٱشتَبه عَليه فلاَ يَجوز له أَنْ يَلفق للقَضية حُكماً من عِند نَفسه، وإنَّما عَليه أَنْ يقف حتَّىٰ يَنكشف لهُ مَا غَمض عنهُ، ويَنجلي لهُ ما ٱشتبه عَليه.

هَذه الصّفات يَجب أَنْ تَتوفر في القَاضي، ويَجب أَنْ يُناط ٱختيار الرّجل لمَنصب القَضَاء بمَا إذَا تَوفرت فيه، وبذَلك يَضمن الحَاكم ألاَّ يَشغل مَنصب القضَاء إلاَّ الأَكفاء في عَملهم، ودِينهم، وبَصرهم بالأُمُور.

قَالَ عليه‌السلام :

«ثُمَّ ٱخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَلاَ تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلاَ يَتَمادَىٰ فِي الزَّلَّةِ، وَلاَ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَىٰ الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَىٰ

طَمَعٍ، وَلاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَىٰ فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

وهُنا، كمَا في كلّ مَوطن، يَضع الإِمَام بَين عَينيه التّأمين الإقتصادي ليَضمن الإِستقامة والعَدل وحُسن السّيرة.

فالقَاضي مَهما كان من سمُو الخُلق، وعُلو النّفس، وطهَارة الضّمير، إنسَان من النّاس يجوز عَليه أَنْ يَطمع في المَزِيد من المَال، والمَزِيد من الرّفاهية، وإِذَا جَاز عَليه هذا جَاز عَليه أَنْ يَنحرف في سَاعة من سَاعات الضّعف الإِنسَانيّ، فتَدفعه الحَاجة إلىٰ قبُول الرّشوة، ويَدفعه العَدم إلىٰ الضّعف أمَام الإغراء، وإِذَا جَاز عَليه ذَلكَ أصبَحت حقُوق النّاس في خَطر، فلاَ سَبيل للمَظلوم إلىٰ الإنتصاف من الظّالم وتَغدو الحكُومة حكُومة الأَقوياء والأَغنيَاء.

هَذه أُمور قَدّرها الإِمَام حقّ قَدرها، وأدرَك مدىٰ خَطرها، فوضَع الضّمانات لتلاَفيها.

وذَلكَ يكون:

أَوّلاً: بأنْ يتعَاهد الحَاكم قضَاء قَاضيه، ويَنظر فيمَا أصدَره من الأَحكَام، فَانّ

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «القُضَاة».

ذَلكَ كَفيل بأنْ يَمسك القَاضي عن الإنحرَاف، ويَستقِيم به عَلىٰ السُّنن الوَاضحَة لأنَّه حِينئذٍ يَعلم أنَّ المُراقبة ستَكشف أمرِ الحُكم الجَائر، ووراء ذَلكَ ما وراءه من عَار الدُّنيا وعذَاب الآخرَة.

وَثَانياً: بأنْ يُعطي المَزيد من المَال لينقطع دَاعي الطّمع من نَفسه، فيَجلس للقَضاء ولَيس في ذِهنه شيء من أحلاَم الثّروة والمَال.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَىٰ النَّاسِ. وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَىٰ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا»[١].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

والقَاضي، بَعد، إنسَان يَخاف: يَخاف عَلىٰ مَاله أنْ يُنهب، ويَخاف عَلىٰ مكَانَته أنْ تَذهب، ويَخاف عَلىٰ كرَامته أنْ تنَال، ويَخاف عَلىٰ حيَاته أنْ يَعتدي عَليها بَعضُ مَن حَكم عَليهم من الأقوياء، فَإذا لم تكُن لَديه ضمَانات تُؤمّنه من كلّ ذَلكَ آضطره الخَوف إلىٰ أنْ يُصانع القوي لقوّته، والشّرير لشرّه، وحِينئذٍ يُطبق القَانون

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣). «القُضَاة».

من جهة وَاحدة. يُطبق عَلىٰ الفُقرَاء والضّعفاء الّذِين يُؤمن جَانبهم.

هَذا الخَوف يَنشأ من عَدم تَأمين مَركز القَضاء وصيَانته ضدّ الشّفاعات، ويَنشأ من زجّه في المُساومَات السّياسيَّة وغَيرها، وحِينئذٍ تَكفي كَلمَة من قوي أو غَني ليَسلب القَاضي مَركزه ومكَانته.

هَذه النّاحية وعَاها الإمَامعليه السلام وأعدّ لها علاَجها، فيَجب أَنْ يكُون القَاضي، لكي يَأمن ذَلكَ كلّه، من الحَاكم بمكَانة لاَ يَطمع فيها أحد غَيره، ولاَ تُتاح لأَحد سوَاه، وبذَلك يأمن دسّ الرّجال لهُ عند الحَاكم، ويَثق بمَركزه وبنَفسه، وتَكسبه مَنزلته هَذه رهبَة في قلُوب الأَشرار يقوىٰ بها عَلىٰ حَملهم عَلىٰ الحقّ، وردهم إلَيه حِين يَنحرفون عنه ويَتمردون عَليه.

قالَعليه السلام:

«وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاٰ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ، فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَىٰ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

هَذه هي الضّمانات الثّلاَث الّتي وضَعها الإمَامعليه السلام، مُبيناً فيها النّهج الّذي يُحسن أَنْ يُتّبع في انتخاب أفراد هذه الطّبقة، وشَارحاً كَيفية مُعاملتهم ليُؤدّوا مهمّتهم عَلىٰ نحو نمُوذجي.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «القُضَاة».

وَقد سجّل الإِمَام بمَا شرّعه هُنا سَبقاً عَظيماً عَلىٰ إنسَان اليَوم، وذَلكَ لأَنَّ ٱستقلال مَركز القَضاء وعَدم تَأثره بأي سُلطة أُخرىٰ، وتَأمين النّاحية الإِقتصَاديَّة للقَاضي، ونظَام التَّفتيش القَضائي، جهات تُنبّه لها الإمَام وجَعلها وَاقعاً يخلف في حيَاة المُجتَمع آثَاره الخَيرة، في عَصر كانَت سُلطة القَضاء أدَاة يُديرها الحَاكمون والمُتسلطُون كمَا يُحبّون.

* * *

ولاَ شيء أدعىٰ إلىٰ ثقَة النّاس بالقَضاء من نفُوذ حُكم القَاضي عَلىٰ جَميع النّاس، حتَّىٰ عَلىٰ مَن تَربطهم بالحَاكم الأَعلىٰ قرَابة قَريبة أو صدَاقة حَميمة، فَإنّ ذَلكَ خَليق بأنْ يَطمئن الرّجل العَادي، ويَدخل في رَوعه أَنَّه حِينما يَدخل مَجلس القَضَاء لاَ يُواجه بنَظرة ٱحتقَار. وإنّ الحَاكم الأَعلىٰ لأَحرىٰ النّاس بالمُحافظة عَلىٰ ذَلكَ والحِرص عَليه، فَإذا ما ٱعتدىٰ بَعض خَاصته عَلىٰ بعض النّاس وَجب عَليه أَنْ يَرده إلىٰ الحقّ حِين يروغ عنه، ويَرده إلىٰ الجَادة حِين يُؤثر العصيَان.

قَالَ عليه السلام:

«وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَٱبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ»[1].

* * *

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «بِطَانَة الْوَالِي وَحَوَاشِيه».

رَاجع عَهْد الأَشْتَر: ورَاجع كلاَماً لهُ عليه السلام في صفَة مَن يَتصدىٰ للحُكم بَين الأُمَّة وليس لذَلك بأهل[١]. وبَعض خُطبة لهُ في صفَات الفسّاق[٢].

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطبَة (١٦). «هَلَكَ مَنِ ٱدَّعَىٰ، وَخَابَ مَنِ ٱفْتَرىٰ. مَنْ أَبْدَىٰ صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ. وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لاَ يَهْلِكُ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ سِنْخُ أَصْلٍ، وَلاَ يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلاَ يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَلُمْ لاَئِمٌ إِلاَّ نَفْسَهُ».

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطبَة (٨٧).

«وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّىٰ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ آرَائِهِ، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَىٰ أَهْوَائِهِ. يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ، وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ، فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ، لاَ يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَىٰ فَيَتَّبِعَهُ، وَلاَ بَابَ الْعَمَىٰ فَيَصُدَّ عَنْهُ. وَذلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ! ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟ التَّكوير: ٢٦. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الأنعام: ٩٥. وَالأَعْلاَمُ قَائِمَةٌ، وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ؟ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ! وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْلاَمُ الدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ، فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ».

الوُلاَة

إِنَّهُم رجَال الإِدَارة، وأَيدي الحَاكم الَّتي تَمتد في أَطراف بلاَده، والأَدَاة الَّـتي يَستعِين بها عَلىٰ تَنفيذ أمره، وإِمضَاء مَا يُريد إِمضَاءه من الشّؤون.

وهُم المِرآة الَّتي يَنظر بها الرّعية إِلَيه، وأعمَالهُم تُنسب إِلَـيه وتَـحمل عَـليه، ويَناله خَيرها وشرّها.

والوجدَان الطّبقي لهَذه الطّبقة يَنزع بها نحو التّسلط النّـاشيء مـن تَـصورات القوّة والهَيبة والنّفوذ، ويَصبح هذا الوجدَان خَطراً وَبيلاً إِذَا عبَّر عن نَفسه في غَير مَوضعه، وجَرىٰ في غَير أقنِيته.

لهَذا وذَاك: لمكَان الخَطر فيهم، ومَـبلغ الفَـائدة مـنهُم، ٱحـتاط لهُـم الإِمَـام وٱحتاط منهُم، فوضَع الشّروط الَّتي يُـنتخبُون عَـلىٰ أسَـاسها، والطّـريقة الَّـتي يُعاملون بها، و«الكَوابح»الَّتي تَزعهم عن أَنْ يَسيئوا سُلطانهم وأَنْ يَخرجوا بـه عمّا أُنشىء لأَجله من مَنفعة الرّعية إِلىٰ ٱستغلاله في سَـبيل المـنَافع الخـاصّة، والمصَالح الشّخصيَّة.

* * *

لاَ يَدخل في هذه الطّبقة كلّ مَن شَاء لهُ الحَاكم أَنْ يَدخل، وإِنَّما يَدخل فيها من

خَبر المُجْتَمع عن كَثب، فعَرف حَاجاته، وتَبين نقَائصه، فإنسَان كهَذا إِذَا وليَ عملاً مَضىٰ فيه عَلىٰ بَصيرة، فلاَ يَرتجل الخُطط إرتجالاً دون أَنْ يَعي حاجَات المُجْتَمع، ويُلبي في خُططه ومنَاهجه هذه الحَاجَات.

وإلىٰ جَانب التّجربة والخُبرة العَملية يَجب أَنْ يَتوفر لهُ مُستوىٰ عَال من الأَخلاق، فهو كمَا قُلنا، المِرآة الَّتي يُنظر بها الشّعب إِلىٰ الحَاكم، ولذَلك فَينبغي أَنْ يكُون عَلىٰ خُلق رَفيع يُمسكه عن الشّطط ومُجانبة العَدل، ويَستقيم به عَلىٰ الجَادة، ويَؤم به قَصد السّبيل. فالحيَاء خُلق يَجب أنْ يَتوفر فيه، والحَياء هُنا لَيس عَلىٰ مَعناه المُبتذل، وإِنَّما هو الحَياء من النّفس.. من تَلويثها بالظُّلم والعُدوان والتّهاون في القيَام بالوَاجب، وهذا الخُلق يَدفع بصَاحبه دَائماً إِلىٰ التّعالي والتّسامي.

ويَجب أَنْ تَتوفر فيه صفَة القنَاعة، بأَنْ لاَ يُلوث نَفسه برَذيلة الطّمع الَّتي تُوشك أَنْ تَنقلب إِلىٰ حَقيقة خَارجية حِين تَجد لها محلاً في نَفس الإِنسَان، وصدىٰ في تَصورَاته.

وإِلىٰ جَانب هذه المِيزات يَجب أَنْ يَجمع بُعدَ النّظر، وأَصَالة الفِكر، وجَودة الفَهم، فهَذه الصّفات ضَرورية لمَن أُنيط به أمر جمَاعة من النّاس وٱعتَبر مَسؤولاً عن أَمنهم ونشَاطهم الإِجتماعي.

ولَم يكُن في زمن الإِمَامعليه السلام مَدارس تعدّ المَوظفِين الإِداريِّين، وتُلقنهم الثّقافة الإِدارية، لذَلك أرشَد الإِمَام الحَاكم إِلىٰ ٱختيار هَؤلاء من بَين أبنَاء الأُسر المُحافظة عَلىٰ التّقاليد، الآخذة أبنَائها بطِراز عالٍ من التّربية، العَاملة عَلىٰ تَنشئتهم تَنشئة نمُوذجية.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ ٱنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَٱسْتَعْمِلْهُمُ ٱخْتِبَاراً، وَلاٰ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلاٰمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاٰقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً. ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذٰلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَىٰ ٱسْتِصْلاٰحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

وَيَخضع هَؤلاء الوُلاَة في ولاَيتهم للإختبار، فحِين يَنتَقيهم الحَاكم ممّن تَوفرت فيهم الشّروط السّابقة يَجب عَليه أَنْ يُوليهم ٱختبَاراً، فيرىٰ، وقَد عرف نَظرياً مَدىٰ كفَاءاتهم، إلىٰ كفَاءاتهم في المَجال العِملي، فَإذا أثبتُوا أنّهم أكفَاء حقّاً، وأنّهم يَعون مَسؤوليات عَملهم وآلياته ثَبتوا وإلاَّ عُزلوا، وٱستُبدل بهم غَيرهم.

لِهَذا المَبدأ، مَبدأ الإختبار، يَجب أَنْ يَخضع ٱختيَار الوُلاَة، أمّا أَنْ يُوليهم الأَعمال تَحبباً إلَيهم، ودُون أَنْ يَستشِير في أمرهم، ودون أَنْ يَعرف مدىٰ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «العُمّال».

كفَاءاتهم، فذلك جَور عن الحقّ، وٱنحراف عن الجَادة، وخيَانة للأُمّة في مصَالحها، فَإنّ مصَالح الأُمَّة أمَانة في يَد الحَاكم يَجب أَنْ يُسلمها إلىٰ أكفَأ وُلاَته.

ومن هُنا نَعلم أَنَّ القوَانين الحَديثة الَّتي تنصّ عَلىٰ وجُوب خضُوع الموظف الإداري الحَديث العَهد بالوَظيفة لفَترة ٱختبار تطُول وتَقصر، لم تَأت بجَديد، فَقد أدرَك الإمَام قَبلها بقُرون وقُرون هَذه الحَقيقة وسجّلها في قَانونه العَظِيم.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ ٱنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَٱسْتَعْمِلْهُمُ ٱخْتِبَاراً، وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ»[١].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

ولَيس يَكفي في حُسن الظّن بهم والرّكون إلَيهم مُراعاة الدّقة في ٱنتخابهم، فَإنّ الوجدَان الطّبقي لهَؤلاء يَنزع بهم نحو التَّسلط وإظهار القوّة، وحِين يَجري هذا الوجدَان في غَير أقنِيته يَصير خَطراً عَلىٰ الرّعية، لأنّه يَدفع صَاحبه حِينئذٍ إلىٰ الإنحراف والزّيغ.

لأَجل هذَا يُقرّر الإمَام أنّ عَلىٰ الحَاكم ألاَّ يَغفل عن تَعقب هَذه الطّبقة ومُراقبتها، فيُلزمه بإنتخاب رُقباء من أهل الدّين والمَعرفة والأَمانة يَبثهم في أطرَاف البلاَد، ويَجعلهم عيُوناً لهُ عَلىٰ عمّاله، يُراقبونهم في أعمَالهم، ويَرصدون مَبلغ ما يَتمتع به هؤلاء الوُلاَة من خُبرة في الإدارة، وقُدرة عَلىٰ التّنظيم، ومَعرفة

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «العُمّال».

بوجُوه الإصلاح، ثُمّ يَرفعون ذَلكَ كلّه إلىٰ الحَاكم فيُنكل بالمُنحرف الَّذي خَان أمَانته، ويَستأديه مَا حَاز لنَفسه من أموَال المُسلِمين، ويَجعله عِبرة لغَيره. ويُشجع الصّالح في نَفسه، الصّالح في عَمله. ويُرشد المُخطيء إلىٰ وجه الصّواب.

إنّ هذا التّدبير يُمسك الوَالي عن الإسراف، ويَحمله عَلىٰ العَدل في الرّعية، لأنّه حِين يَعلم أنَّ ثمّة عَيناً تَرقب أفعَاله يَحذر من الخُروج عن الجَادة، ويَحرص عَلىٰ اتّباع ما يَصلح بلاده. وهذا التّدبير الَّذي نَهجه الإمَام هو نظَام التّفتيش المَعمول به الآنْ في الدُّول المُعَاصرة.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَٱبْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ. فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَىٰ ٱسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ؛ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَىٰ خِيَانَةٍ ٱجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، ٱكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

وَلَقد كَان الإمَام عليه السلام يَحرص أشدّ الحرص عَلىٰ اتّباع هذا الأُسلُوب مع وُلاَته،

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «العُمّال».

فَفي نَهج البَلاَغة طَائفَة كَبيرَة من كُتبه إِلىٰ عُمّاله تَدور كلّها حَول هذا المَعنىٰ، فِيها تَنديد بخيَانة، وعَزل عن ولاَية، وزَجر عن ظُلم الرّعية، وفِيها تَـوجيه وإِرشـاد ونَصِيحة.

قَالَ عليه السلام:

«وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ فِي عُـنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِـمَنْ فَـوْقَكَ. لَـيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلاَ تُخَاطِرَ اِلاّ بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَـتَّىٰ تُسَـلِّمَهُ إِلَـيَّ، وَلَـعَلِّي أَلاّ أَكُـونَ شَـرَّ وُلاَتِكَ لَكَ، وَالسَّلاَمُ»[1].

وقَالَ عليه السلام:

«فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْـلِ بَـلَدِكَ شَكَـوْا مِـنْكَ غِـلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْـلاً لأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلاَ أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِـنَ اللِّـينِ تَشُـوبُهُ بِـطَرَفٍ مِـنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥) «الوَظِيفَة أَمَانَة لاَ طُعْمَة».

من كتَابٍ لهُ إِلىٰ الأَشعَث بن قَيس عَامله عَلىٰ آذربيجان، رَقم النّص: (٥): «وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلاَ تُخَاطِرَ اِلاّ بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلاّ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ، وَالسَّلاَمُ».

بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالإِدْنَاءِ، وَالإِبْعَادِ وَالإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللهُ»[١].

وقالَ عليه السلام:

«فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ»[٢].

وقالَ عليه السلام:

«بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَ خُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ[٣]، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ

(١) أنظر، نهج البلاغة: الرِّسالة (١٩) «المُعَاهدُون».
(٢) أنظر، نهج البلاغة: الرِّسالة (٤٠) «إلى بَعض عُمَّالِهِ».
(٣) بَرَأَ: خلق. والنَّسَمَةَ: الرّوح.

مِنَ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً.

أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ»[١].

وقد كانت شرور هذه الطبقة هي الّتي سبّبت الثورة على عثمان، فقد ولّى على البلاد الأحداث من ذوي قرابته، ممّن لا خبرة لهم في الحكم، ولا عاصم لهم من دين، ولا ورع لهم عن المحارم، فظلموا الرّعية، وامتصوا دمائها، وكانت عاقبة ذلك وبالاً[٢].

---

(١) أنظر، نهج البلاغة: الرّسالة (٤٣) «إلىٰ مصقلة بن هُبَيْرة».

(٢) «وكان أهم ما نقم النّاس علىٰ عثمان»:

١ ـ طلب منهُ عبدالله بن خالد بن أسيد الأموي صلة، فأعطاه أربعمئة ألف درهم.

٢ ـ أعاد الحكم بن العاص بعد أنْ نفاه رسول الله، وأعطاه مئة ألف درهم.

٣ ـ تصدق رسول الله بموضع سوق المدينة علىٰ المسلمين، فأعطاه عثمان للحارث الأموي.

٤ ـ أعطىٰ مروان فدكاً، وقد كانت فاطمة طلبتها بعد أبيها، فدفعت عنها.

٥ ـ حمىٰ المراعي حول المدينة كُلها مِنْ مواشي المسلمين كُلهم إلاّ عَنْ بني أُميّة.

٦ ـ أعطىٰ عبدالله بن أبي السّرح جميع ما أفاء الله مِنْ فتح إفريقيا بالمغرب، مِن غير أنْ يشرك فيه أحداً من المسلمين.

٧ ـ أعطىٰ أبا سفيان مئتي ألف، ومروان مئة ألف من بيت المسلمين في يوم واحد.

٨ ـ أتاه أبو موسىٰ الأشعري بأموال كثيرة من العراق، فقسمها كُلها في بني أُميّة.

٩ ـ تزوّج الحارث بن الحكم، فأعطاه مئة ألف مِن بيت المال.

١٠ ـ نفىٰ أبا ذرّ رحمه الله إلىٰ الرّبذة، لمناهضته معاوية في كنز الذّهب والفضّة.

١١ ـ ضرب عبدالله بن مسعود، حتّىٰ كسر أضلاعه.

١٢ ـ عطّل الحدود، ولم يرد المظالم، ولم يكف الأيدي العادية.

↔

وعَلىٰ النّقيض من هَذا كَانت سيَاسة الإمَام مع وُلاَته، فهو يَنتخبهم إنتخَاباً، ثُمّ يُوليهم آختبَاراً، ثُمّ يُراقبهم ويَحملهم عَلىٰ الإصلاح مَا وجد إلىٰ ذَلكَ سَبيلاً.

* * *

والعَامل الإقتصادي أدَاة يَستخدمها الإمَام هُنا ـ كمَا في كلّ مَوطن ـ لأَجل ضَمان آستقامة الوُلاَة عَلىٰ مَا سنّه لهُم من شرَائع العَدل. ولذَلك لم يَغفل الإمَام عليه السلام ما للعَامل الإقتصادي من عَظيم الأثر في إصلاح هَذه الطّبقة وإفسادها، فقد تَدفع

↔ ١٣ ـ كتَب إلىٰ عَامله في مَصر يأمره بقَتل قَادة الثّورَة».

أنظر، يَوم الإسلاَم: ٥٨ طَبعَة ١٩٥٨م، المَصَابيح، لأحمَد بن إبرَاهيم: ٢٨٨، العَقد الفَريد: ٣/٧٧، الإمَامَة والسّيَاسَة: ١/٤٩١، وَتَأريخ الطَّبري: ٣/٤٧٧، المَصَابيح، لأحمَد بن إبرَاهيم: ٢٨٨، «الزّيدِيّة بَين الإمَامِيّة وَأهل السُّنّة دِرَاسَة تَأريخِيَة تَحلِيلية في نَشأتها وَظُهورهَا وَعَقائِدهَا وَفِرقهَا»: ٧٢، للأستَاذ سَامي الغريري.

وقَالَ أحمَد أمِين المَصري: «وكَان من أكبر الشّخصيَات البَارزَة في مُحَاربته، وَتأليب النّاس عَلَيه عَائشَة بنت أبي بَكر».

أنظر، يَوم الإسلاَم: ٥٧ طَبعَة ١٩٥٨م، النّهاية لابن الأثير: ٥/٨٠، تَأرِيخ الفُتوح: ١٥٥، شَرح النّهج: ٤/٧٧، تَأرِيخ اليَعقُوبي: ٢/١٥٢ طَبعَة الغَري، الإستِيعاب بهَامش الإصَابة: ٢/١٩٢، تذكَرة الخوَاص: ٦١ و ٤٣، تَأرِيخ الطَّبري: ٤/٤٠٧ و ٤٥٩ و ٤٦٥، الكَامِل لابن الأثير: ٣/٢٠٦، العِقد الفَريد: ٤/٢٩٥، الطَّبقَات الكُبرىٰ: ٥/٢٥ و ٣٦ طَبعَة لندَن، أنسَاب الأشرَاف: ٥/٧٠ و ٧٥ و ٩١، تَأريخ أبي الفِدَاء: ١/١٧٢، الإمَامه وَالسّيَاسة: ١/٤٣.

وقَالَ: «إنّ قَتل عُمَر وعَليّ كَان حَادثَة فَردِيَة، وَمُؤامرَة جُزئيَة. أمّا مَقتل عُثمَان فقَد كَان ثورَة شَعبيَة للأقطَار الإسلاَميّة». أي أنّ عَليّاً وعُمَر لَم يَقتلهُما المُسلمُون، أمّا عُثمَان فقَد قَتلهُ المُسلمُون أنفسهم.

أنظر، يَوم الإسلاَم: ٦١ طَبعَة ١٩٥٨م.

وقَالَ: «كَرِهَ كَثير مِنَ الصّحَابَة أنْ يَجمع بَينَ النّبوّة والخِلاَفَة، وَلعِلمهم بِشدّة عَليّ في الحَق وَعَدم تَسَاهله».

أنظر، يَوم الإسلاَم: ٥٣ طَبعَة ١٩٥٨م.

الحاجة أحدهم إلىٰ الخيانة والظلم، وهم ـ كما عبّر عنهم الإمام في بعض كتبه: «خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ»(١). فلو ضيّق عليهم الحاكم في الرّزق، ولم يُرفه عليهم في النّعمة، كان حرمانهم مدعاة إلىٰ أنْ تطمح أعينهم إلىٰ ما أئتمنوا عليه من مال، وذلك داعية إلىٰ الرّغبة في الخيانة، وٱختلاس شيء من أموال الأُمّة.

لهذا أشار الإمام علىٰ حاكم مصر بأنْ يُوسّع علىٰ الوُلاة في الرّزق، لئلاّ يتّخذوا الحاجة مُبرراً للخيانة.

قال عليه السلام:

«ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَىٰ ٱسْتِصْلاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ»(٢).

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

رَاجع في بَاب الكُتب عَهْد الأَشْتَر: وكتاباً منهُ إلىٰ الأَشعث بن قَيس(٣) عَامل

(١) أنظر، نَهج البلاَغة ـ من كتَاب له إلىٰ عمّاله علىٰ الخرَاج، رَقم النّص: (٥١).

(٢) أُنظر، نَهج البلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «العُمَّال».

(٣) أُنظر، تَرجَمته فِي المعَارف لابْن قُتيبَة: ١٦٨، أُسد الغَابَة: ١ / ٩٨، الأَخبَار الطّوال: ١٥٦، الفُتوح لابْن أَعثَم: ٢ / ٣٦٧، العقد الفرِيد: ٤ / ٣٣٠، الشّافي: ٤ / ١٢٩ ـ ١٣٥ المَطبُوع و: ١٩٣ رَقم ١٢٨٢ المَخطُوط فِي مكتبة السَّيِّد المَرعشي النّجفي، وتَلخيص الشّافي للشّيخ الطّوسي: ٣ / ١٦٢ ـ ١٦٧،

آذربايجان(١). وكتَاباً منهُ إلىٰ عَبد الله بن عبَّاس عَامل البَصْرَة(٢). وكتَاباً منهُ إلىٰ

↔ شَرح النَّهج لابن أبي الحَدِيد: ٢ / ٣٠ ـ ٣٣ طَبعَة القدِيم، المُسترشد فِي الإمَامَة للطَّبري: ٣٥٣ تَحقيق الشّيخ المحمُودي.

وعَن ابن سِيرِين أنّ الأشعَث بن قَيس صَحب رَجُلاً فرأىٰ امرَآته فأعجَبته، قَالَ فتوفّىٰ في الطَّرِيق فخَطبها الأشعَث بن قَيس، فأبت أنْ تَتزوجه إلاّ عَلىٰ حُكمها فتزوجها علىٰ حُكمها، ثُمّ طَلّقها قَبل أنْ تحكم، فقَال: أحكمي! فقَالت: أحكم فُلاناً وفُلاناً رَقِيقَين، كَانوا لأبِيه مِن بلاده فقَال: احكمي غير هَؤُلاَء؟ فأتىٰ عُمَرَ، فقَال يَا أمير المُؤمِنِين عَجزت ثَلاث مَرّات، فقَال مَا هنّ؟ قَالَ: عَشقت امرَأة... أنظر، في كتَاب الأم للإمَام الشّافعي: ٥ / ٧٧.

وقد نَزَل فِيهِ قَولَه تَعَالىٰ: ﴿إنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰئِكَ لاَخَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلاَيُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلاَيَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلاَيُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آلِ عِمْرَانَ: ٧٧، لأنّه خَاصم رَجُلاً فِي بئرٍ.

أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٣ / ١٥٩ و: ٥ / ١٦٧، صَحِيح مُسلِم: ١ / ٨٦، سُنن ابن مَاجه: ٢ / ٧٧٨، سُنن التّرمذي: ٢ / ٣٧٠ و: ٤ / ٢٩٢، المَجموع: ١٤ / ٤٣، المُغني لابن قُدَامَة: ١٢ / ١١٤ و ١٢١، بَدايَة المُجتهد: ٢ / ٣٨٣، نَيل الأوطار: ٩ / ٢١٦، دَعائِم الإسْلاَم: ١ / ٣٦٩.

(١) تَقدَّم ذَلكَ.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (١٨). «لابن عَبّاس».

«وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ. وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلاَّ طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَىٰ صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ عَلَىٰ قَطِيعَتِهَا. فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللهُ، فِيمَا جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلاَ يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلاَمُ».

وَأنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٧٦). «لابن عَبّاس».

«سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ، وَمَجْلِسِكَ، وَحُكْمِكَ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ».

كَانَ عَبدالله بن عَبّاس قَد اشتد عَلىٰ بَني تَمِيم لأنّهم كَانوا مَع طَلحَةَ وَالزُّبَيرِ يَوم الجَمَل. فأقصىٰ ↔

بعض عمّاله(١). وكتابين منهُ إلىٰ زيَاد بن أبيه(٢). وكتابين منهُ إلىٰ بعض عمّاله(٣)،

الكثير منهم، حتّىٰ كان يُسميهم بشيعَة الجَمَل، وأنصار عَسكر، وحزب الشّيطان، فعَظُم ذلِكَ علىٰ بَعضهم من شيعة الإمَام، ومِنهُم حَارثة -جَارِية- بن قُدَامَة، فكَتَب حَارثة إلىٰ الإمَام عَليّ بن أبي طَالب عليه السلام، يَشكو إليهِ عَبدالله بن عبّاس.

ولبَني عَمرُو بن تمِيم خصَال تَعرفها لَهُم العَرَب ولا يُنَازعهم فيها أحد، فمِنهَا أكرم النّاس عمّاً وعمّة، وجدّاً وجدّة، وهو هند بن أبي هَالة، واسم أبي هَالة -نبّاش بن زُرارة- أحد بني عَمرُو بن تميم، وكَانَت خَدِيجَة بنت خُوَيلد عليها السلام، تحت أبي هَالة فوَلدت لهُ هنداً، ثُمّ تزوّجها رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وهِند بن أبي هالة غُلام صَغير فتبناه النّبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ ولدَت لهُ خَدِيجَة عليها السلام، القَاسم والطّاهر وزينب، وفَاطمَة عليها السلام، فكَان هند بن أبي هَالة أخَاهم لأُمّهم، ثمّ أولد هند بن أبي هَالة هِند بن هند، فهَذا الثّاني أكرم النّاس جَدّاً وجَدّة -يَعني رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وخَدِيجَة عليها السلام، وأكرم النّاس عمّاً وعمّة -يَعني بني النّبيّ صلى الله عليه وآله وبَنَاته.

أنظر، شَرح نَهج البَلاغة لابن مِيثَم البحراني: ٤/ ٣٩٥، شَرح نَهج البَلاغة لمُحمَّد عَبدُه: ٣/ ١٨، شَرح نَهج البَلاغة لابن أبي الحَدِيد: ١٥/ ١٢٥ و ١٣٢.

(١) أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسَالَة (١٩). «الخِطَاب مِن الإمَام لِبَعض عُمّالِهِ».

«أمّا بَعْدُ، فَإنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلاَ أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالإِدْنَاءِ، وَالإِبْعَادِ وَالإِقْصَاءِ، إِنْ شَاءَ اللهُ».

(٢) أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسَالَة (٢٠). «تَهْدِيد زِيَاد ابن أبِيه».

«وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ الأَمْرِ، وَالسَّلاَمُ».

أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسَالَة (٢١). «مَوْعِظَة زِيَاد ابن أبِيه».

«فَدَعِ الإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ. أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ -وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالأَرْمَلَةَ- أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ، وَقَادِمٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَالسَّلاَمُ».

(٣) أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسَالَة (٤٠). «إلىٰ بَعْضِ عُمّالِهِ».

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ

وكتَاباً منهُ إلىٰ مَصقلة بن هُبيرة الشّيباني عَامل أردَشير خرّة[١]. وكـتَاباً مـنهُ إلىٰ

↔ أمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحتَ قَدَمَيكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَـحتَ يَـدَيْكَ، فَأرْفَـعْ إلَـيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلاَمُ».

أنظر، نهج البلاغة: الرّسالة (٤١). «قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ».

«أمَّا بَعْدُ، فَإنِّي كُنتُ أشْرَكْتُكَ فِي أمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أهْلِي أوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي وَأَدَاءِ الأمَانَةِ إلَيَّ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَىٰ ابْنِ عَمِّكَ قَـدْ كَـلِبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهَذِهِ الأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَـمِّكَ ظَـهْرَ الْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلاَ ابْنَ عَمِّكَ آسَـيْتَ، وَلاَ الأمَانَةَ أدَّيْتَ. وَكَأنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأنَّكَ إنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الأُمَّةِ أسْـرَعْتَ الْكَرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأرَامِلِهِمْ وَأيْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الأزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَىٰ الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إلَىٰ الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أخْذِهِ، كَأنَّكَ ـ لاَ أبَا ـ لِغَيْرِكَ حَدَرْتَ إلَىٰ أهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أبِيكَ وَأُمِّكَ. فَسُبْحَانَ اللهِ! أمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أوَمَـا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ».

(١) أنظر، نهج البلاغة: الرّسالة (٤٣). «إلىٰ مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة».

«بَلَغَنِي عَنْكَ أمْرٌ إنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أسْخَطْتَ إلَهَكَ، وَ عَصَيْتَ إمَامَكَ: أنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْـمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً. فَلاَ تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلاَ تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الأخْسَرِينَ أعْمَالاً. ألاَ وَإنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ».

أنّ مَصقَلَة بن هُبَيرَة هَرَب إلىٰ مُعَاوِيَة لأنّ الإمَام طَالبه بحقّ المُسلِمين، وكَان عَامِلاً لهُ عَلىٰ بَلدة مِن بِلاد العَجم تُسمّىٰ أردشِير خُرّة ـ أنظر، مُعجَم البلدان: ١/ ١٤٦، فتوح البُلدان: ٢/ ٤٧٦. وهِـي بَلدة مِن بِلاد العَجم، بل هِي أكبَر كُور فَارس، ومن مُدنها شِيراز. وتُكتب أردشِير خُرّة، بِضَم الخَـاء وتَشدِيد الرّاء المُهملة، والهَاء المُهملة، وتَارَة بِفتح الخَاء، والرّاء والهَاء مُهمَلة. وكَان قَد بَلغ الإمَام أنّ مَصقَلَة ـ قَبلَ هرُوبه إلىٰ مُعَاوِيَة ـ كَان يَحرِم المُسلِمين من أموَالِهم، ويُؤثر بها أرحَامه، وأبنَاء قَبيلته، فكَتَب إليه بذَلِك.

عُثمَان بن حُنيف الأَنصَاري[١] عَامل البَصْرَة[٢]. وكتَاباً مِنهُ إِلىٰ عُمّاله عَلىٰ

(١) هو عُثمانَ بن حُنَيف بن وَاهب بن الحَكِيم الأَنصَاري الأُوسِي أَبو عَمْرُو، وأَبو عَبدالله. شَهد أُحُداً ومَا بَعدها، اَستعمَله عُمر بن الخطَّاب عَلىٰ مسَاحة العِرَاق، وأَستعمله عليّ علىٰ البَصرَة.

أُنظر، التَّارِيخ الكَبِير: ١/ ٢٠٩، الجَرح والتَعديل: ٦/ ١٤٦، الإِستِيعَاب: ٣/ ٨٩، الإِصَابَة: ٢/ ٤٥٩، تَهذيب التَهذيب: ٧/ ١٠٣، أُسد الغَابَة: ٣/ ٣٧١، وتَارِيخ الطَّبَري: ٣/ ٤٦٥.

وَكَانَت فِتنَة الجَمَل الأَصغَر فِي البَصرَةِ لخَمس بَقِين من رَبيع الثَّاني سَنَة (٣٦ هـ) قَبل وصُول الإِمَام عَليّ عليه السلام إِليهَا، وكَان عَاملها عُثمان بن حُنَيف الأَنصَاري الَّذي أَسَرَه جيش أُمّ المُؤمِنِين، وطَلحَة، والزُّبير، والَّذي قُتل مَن في المَسجد (٤٠) رَجُلاً من شيعَة الإِمَام عَليّ عليه السلام، وقُتل أيضاً (٧٠) آخرين في مكَانٍ آخر. وكَان عُثمان من الصَّحَابَة الأَجلاَء. وأَرَادوا قَتله لَكِنّهُم خَافوا من أَنْ يَثأر لهُ أَخُوه سَهل، والأَنصَار جَمِيعاً فَعمَدُوا عَلىٰ نَتف لحيَته، وشَاربيه، وحَاجبيه، وشَعر رَأسه، وضَربُوه ضَرباً مُبرحاً، وطَرَدُوه مِن البَصرَة. وقَابلهُم بَعد ذَلِكَ حَكيم بن جبلة مَع جَمَاعَة من بَني عَبدالقَيس، ومن ربيعة فَاقتَتلوا مَعهُم حَتّىٰ اَستُشهد منهم جَماعة، ومنهُم الأَشرَف بن حَكيم، وأَخُوه الرَّعل، وفُتحت البَصرَة كمَا ذَكر صَاحب أُسد الغَابَة: ٢/ ٣٨، وشَرح نَهج البَلاَغَة: لاِبن أَبي الحَدِيد: ٢/ ٤٨١ طَبعَة بيروت أُفست، وأَنسَاب الأَشرَاف للبَلاذُري: ٢/ ٢٢٨، ومرُوج الذَّهب للمَسعُودي: ٢/ ٣٥٨تَارِيخ الطَّبريّ: ٥/ ١٧٨.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرِّسَالَة (٤٥). «إِلىٰ عُثمَانَ بن حُنَيف الأَنصَاري».

«أَمَّا بَعْدُ، يَا ٱبْنَ حُنَيفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَىٰ مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ ٱلْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ ٱلْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَىٰ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَٱنْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا ٱلْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَٱلْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ ٱكْتَفَىٰ مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَٱجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ. فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ٱدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَىٰ وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ. بَلَىٰ! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ ٱلسَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ ٱلْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ، وَٱلنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا

↔

الخَرَاج[1] وكتَاباً منهُ إلىٰ الأَسود بن قَحطبة[2] صَاحب جُند حَلوان[3]. وكتَاباً منهُ

⇐ الحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَىٰ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَىٰ جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَىٰ مُصَفَّىٰ هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَىٰ تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِدِّ

يُنسَب هَذَا البَيت لحَاتم بن عَبدالله الطَّائي كمَا جَاء في شَرح نَهج البَلاَغَة لابن أَبي الحَدِيد: ١٦/٢٨٨، ودِيوَان الحمَاسَة بِشَرح الزَّرقَاني: ٤/١٦٦٨.

(١) تقدَّم ذلكَ.

(٢) قَالَ ابن أَبِي الحَدِيد في شَرح النَّهج: ١٧/١٤٥، لم أَقف عَلىٰ نَسَب الأَسوَد بن قُحطبَة، وقَرَأتُ فِي كَثِير مِن النُّسخ أَنّه حَارثي من بَني الحَارِث بن كَعب، ولَم أَتحقق ذَلِكَ، والَّذي يَغلب عَلىٰ ظَنّي أَنّه الأَسوَد بن زَيد بن قُحطبَة بن غَنم الأَنصَاري مِن بَني عُبيد بن عَدي. ذكره أَبو عَمر بن عَبدالبَرّ فِي كتَابه الاستِيعَاب، وقَالَ: إنَّ مُوسىٰ بن عَقبَه عَده فيمن شَهد بَدراً.

(٣) أَنظر، نَهج البَلاَغة: الرِّسَالَة (٥٩). «إلىٰ الأَسود بن قُطْبَة».

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ. فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ. فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوَابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً؛ وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَالاحْتِسَابُ عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ، وَالسَّلَامُ».

«حُلْوَان إِيَالَة مِن إِيَالاَت فَارس». أَنظر، شَرح النَّهج: ٣/١١٥.

والإِيَالَة قِطعَة مِن البِلاد يَحكمُها وَالٍ. وَقَالَ الشَّيخ الطُّرِيحي في مَجمَع البَحرِين: «حُلوَان بَلَد مَشهُور، وهُو آخر مُدن العِرَاق مِن طَرَف المَشرق والقَادِسيَة».

أَنظر، مَجمَع البَحرِين: ١/٥٦٧. وَتَبعُد عَن بَغدَاد خَمس مرَاحل، وهي من طَرف العرَاق من المَشرق، والقَادسية من طَرفه المَغرب، وقِيل سُمِّيت بأسم بَانيها وهو حُلوَان بن عِمرَان بن الحَاف بن قُضَاع. وهي مَشهُورة بالرُّمان والتِّين فَتحها المُسلمُون سَنَة (١٩ هـ).

أَنظر، مُعجم البُلدان: ٢/٢٩١، مَرَاصد الإِطِّلاَع: ١/٤١٨، لِسَان العَرب: ١٤/١٩٤.

إلىٰ كُميل ٱبن زياد(١).

(١) هُو كُميل بن زيَاد بن سُهيل بن هيثم بن سَعد بن مَالك بن الحَارث بن صَهبَان بن سَعد بن مَالك ٱبـن النَّخع بن عَمرو بن وَعلَة بن خَالد بن مَالك بن أدد، كَان من أصحَاب الإمَام عَليّ عليه السلام وشيعتَه خَاصَّة، شَهد صِفِّين مَع الإمَام عَليّ عليه السلام، وكَان شَريفاً، ثِقةً، عَابداً، مُطاعاً، وُلدَ سَنَة (١٢ هـ)، وهُو المَنسُوب إليه الدُّعَاء المشهُور لَيلَة الجُمُعَة، والمَشروح بعدَة شرُوح، قَتله الحَجَّاج عَلىٰ المَذهَب فيمن قَتل من الشِّيعَة سَنَة (٨٢ أو ٨٣ هـ)، وإنَّما نَقم منهُ الحَجَّاج لأنَّه طَلب القصَاص من عُثمان بن عَفَّان من لَطمَة لَطمهَا أيَّاه، فلمَّا أمكنَه عُثمان من نَفسَه عفَا عَنه، فَقَال لهُ الحَجَّاج: أومثلُك يَسأله من أمير المُؤمِنين القِصَاص؟.

أنظر، البدَاية والنّهاية: ٩ / ٤٩، الفصُول الفَخرِية فِي أُصول البَرية لجَمَال الدِّين أحمَد بن عنبة: ٥٦، الإِشتقَاق لاِبن دُريد: ٤٠٤، جَامع الرّوَاة: ٢ / ٣١، رجَال ٱبن دَاود: ٢٨١، رجَال الشَّيخ: ٥٦ و ٦٩، خُلاَصة الرِّجَال: ٩٤، الإِرشَاد للشَّيخ المُفيد: ١٥٤، تَهذيب التَّهذِيب: ٨ / ٤٤٧، تَأرِيخ دمشق: ٤٦ / ١٥٨٨.

وجَه إليه مُعَاوِيَة سُفيَان بن عَوف في ستة آلاَف وأمرَه أنْ يَقطع هِيت، ويَأتي الأنبَار والمَدائـن فَيوقع بأهلها. فَأتىٰ سُفيَان هِيت فَلم يَجد بِها أحداً، ثُمَّ أتىٰ الأنبَار، وفيها مَسلَحة لعَليّ تَكُون خَمسمِئة رَجُل، وقَد تَفرقُوا، ولَم يَبق مِنهُم إلاَّ مِئتَان لأنَّه كَان عَليهم كُميل، فَبلغه أنَّ قَوماً بِقرْقيسِيَا يُـريدُون الغَارة عَلىٰ هِيت فَسار إليهِم بغَير أمر عَليّ عليه السلام فَأتىٰ أصحَاب سُفيَان، وكُمَيل غَائب عَنهَا، وخَـليفَته أشرس بن حَسَّان البَكري، فَطَمع سُفيَان في أصحَاب عَليّ لقلتهُم، فقَاتَلهُم فَصَبرُوا لهُ، وقتل صَاحبهُم أشرَس وثَلاثُون رَجُلاً، وأحتَملوا مَا في الأنبَار مِن أموَال أهلَها ورَجعُوا إلىٰ مُعَاوِيَة، وبَلغ الخَبَر عَليّاً، فَغَضب عَلىٰ كُمَيل، وكَتَب إليه يُنكر عَلَيه فِعله.

أنظر، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٣ / ١٨٩.

وقَبر كُمَيل عَلىٰ يَمين الطَّرِيق من الكُوفَة إلىٰ النَّجف الأشرَف، وكَان كُمَيل بن زِيَاد عَامِل الإِمَام عَليّ عَلىٰ هِيت، وكَان ضَعِيفاً يَمرّ عِليه سَرَايا مُعَاوِيَة تَنهب أطرَاف العرَاق ولاَ يَردهَا. ويُحَاول أنْ يَجبر مَا عِنده مِن الضَّعف بِأنْ يُغير عَلىٰ أطرَاف أعمَال مُعَاوِيَة مِثل قِرْقِيسِيَا ومَا يَجري مَجرَاها من القُرىٰ عَلىٰ الفُرَات، فَأنكَر عليه السلام ذَلِكَ من فِعله، ولذَا قَالَ لهُ إنَّ مِن: «العَجزُ حَاضِرٌ، وَرَأيٌ مُتبّرٌ...».

أنظر، شَرح النَّهج لاِبن أبِي الحَدِيد: ١٧ / ١٤٩.

الكُتّاب

الكُتّاب وأعوَانهم هُم الهَـيئة الوزَاريـة، ووكـلاَؤها، ومُـديروها. وإلىٰ هـذه الطّائفة يَرجع أمر الدَّولة كلّه: سِلمها، وحَربها، وإقتصادها، وكلّ ما يلّم بها مـن خَيرٍ أو شرٍّ. فهي الجِهاز الأَعلىٰ الَّذي يُنظم نشَاط الدَّولة، ويُشرف عَلىٰ تَوجيهه. وعَلىٰ قَدر ما تكون عَليه هذه الطّائفة من الصّلاح والإِسـتقامة، تَـصلح الدَّولة، وتَستقيم ويَعظم شَأنها.

وقَد نصّ الإِمَامﷺ في عَهده عَلىٰ مَن يَصلح أَنْ يَلحق بهذه الطّائفة ومَـن لاَ يَصلح لذَلك، وأفَاض في ذكر الصّفات الَّتي يَجب أَنْ تتوفر في الوَزيـر، وبَـين الأُسلُوب الَّذي يُحسن بالحَاكم أنْ يَتّبعه في الأَخذ منهُ والسّماع عنهُ.

* * *

مِن جُملة ما قَدّمناه بَين يَدي هذا البَحث مُلاحظة ذكرنَا فيها أَنَّ الإِمَام كَـتَب هذا العَهْد وهو يَطمح إِلىٰ إنشـاء جـهَاز جَـديد للـحُكم فـي مَـصر، جـهَاز وَاع لمَسؤولياته، تَقدُّمي في برَامجه ومَشروعاته، ليَستجيب للحَاجات الَّـتي يَـفتقر إِلَيها المُجْتَمع. وقَد رأيناه في البحُوث المُتقدّمة مُحافظاً عَلىٰ هـذه السّـمة فـي عَهده، فهو دَائماً يؤكّد أنّ جهاز الحُكم يَجب أَنْ يكون سَليماً، وَاعـياً، تَـقدُّميّاً،

عَاملاً لمَصلحة المُجْتَمع.

وهَا هو، بالنّسبة إِلىٰ طَائفَة الوزرَاء ومَن يَتعلق بهم، ينصّ عَلىٰ هذا المَعنىٰ ويُؤكّده تَأكيداً وَافياً.

فلاَ يجوز أَنْ يَدخل في هذه الطّبقة رجَال كانوا وزرَاء للظَلمة وَالأَشرار.

وذَلكَ لأَنَّ تَأليف هذه الطّبقة من هَؤلاء يَستتبع عوَاقب وخِيمة تَعود بالضَّرر عَلىٰ الدَّولة.

فهُم، وقد اَستمرءوا فِعل الظّلم وتَعودوا عَلىٰ مُقارفته لاَ يعفُّون عن العَودة إِلَيه والإِرتكاس فيه. وإِذَا كانوا ذوي أنفس شرّيرة مسّت أعمَالهم المُجْتمع كلّه نظراً إِلىٰ سعَة سُلطانهم، وعَظيم قُدرتهم، لأَنَّ مَلاك القوىٰ كلّها مُجتمع عِندَهم.

وضَرر آخر يَنجم عن دخُولهم في هذه الطّبقة، فالشّعب الّذي عَرفهم بالجَور، وذَاق منهم مرّ الظّلم تَذهب ثقته بالحُكم المُهيمن عليه حِين يَراهم قد عادوا إِلىٰ مرَاكزهم، ويَعتبره حُكماً أُقيم لمَصلحة طَبقة خاصّة، ومَتىٰ ذهب إِيمان الشّعب بحَاكمية أهمل من حقُوق الحَاكمين عليه ما يَجب أنْ يُؤديه، لإِعتقاده أنّه حين يُلبيهم فيما يَطلبون لاَ يقوم بعَمل يعود بالنّفع عليه.

وقَد أَصبح من المُعطيات البَديهية في عِلم الإِجتماع أنَّ ما يُثير الشّعوب لَيس الظّلم نَفسه وإِنَّما الشّعور بالظُّلم، وسَيطرة أشخاص مِثل هَؤلاء عَلىٰ دفّة الحُكم يوقظ في الشّعب تَصورات الظّلم الّذي ذَاقه عَلىٰ أيدِيهم في عهُودهم السّابقة، وهَذا كَاف لأَنَّ يُولّد في نَفسه الشّعور بالظُّلم وإِنْ لم يكُونوا ظَالمين. وهَكذا تَحدث بين الحَاكم والمَحكوم هوّة تُبعد أحدهُما عن الآخر، وتَسلب ثقة كلّ منهُما بالآخر، وفي بعض ذَلكَ ما يَجر الدَّولة إِلىٰ مَصير وبِيل.

قالَ عليه السلام:

«إنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلاٰ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَىٰ ظُلْمِهِ، وَلاٰ آثِماً عَلَىٰ إِثْمِهِ: أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَىٰ عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ؛ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَىٰ أَلاَّ يُطْرُوكَ وَلاٰ يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ. وَلاٰ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَىٰ الْإِسَاءَةِ! وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ

عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ»(١).

عَهْدُ الأَشْتَر

ولاَ يَجوز أَنْ يُناط ٱختيار أفراد هَذه الطّبقة بالفرَاسة وحُسن الظّن، فَإِنّ الرّجال يَتصنعون الصّلاح، وَيتظاهرون بالمَقدرة والأَمانة، ليَظفروا بمِثل هذا المَنصب، فَيخدعون الفرَاسة، ويَنتزعون حُسن الظّن بتَصنعهم، دون أَنْ يكونوا عَلىٰ شيء من الصّلاح والكفَاءة.

إنّ ٱختيار أفراد هَذه الطّبقة يجب أنْ تُلاحظ فيه ٱعتبارات مُتعددة.

يَجب أَنْ يكُونوا عَلىٰ مَعرفة تامّة بمُحيطهم وبحَاجاته، ليَصدروا في إدارته عَن وعي.

ويَجب أَنْ يكونوا إلىٰ جَانب المَعرفة أكفَاء، ذوي مَقدرة عَلىٰ تَصريف ما أُنيط بهم من أُمور.

ويَجب أَنْ يكونوا ـ إلىٰ جَانب هذَا وذَاك ـ ممّن يَعرفهم الشّعب بالحبّ له، والحَدب عَليه، ورعَاية مصَالحه وتَيسير حَاجاته، والسّهر عَلىٰ رفَاهيته وسَعَادته، فَإنّ هَذه الطّبقة حِين تتألف من مِثل هَؤلاء يَطمئن الشّعب إلىٰ الحُكم،

(١) أنظر، نَهج البلاَغة: الرّسالة (٥٣) «كُن مَعَ ٱلصَّادِقِينَ».

ويَستريح إلىٰ أعمَال الحَاكم.

ويُعرف ذَلكَ كلّه بالنّظر إلىٰ سَابق ما ولّوه من أعمَال الصّالحين من الحُكّـام، هل أحسنوا إدارته؟ وهل بَرهنوا فيه عَلىٰ درَاية بأَساليب الإصلاح؟ وهل كَانت للشّعب فيهم ثقَة؟ فَإذا اجتمعت فيهم هذه الصّفات: من قُـدرتهم وكـفَائتهم إلىٰ مَعرفتهم بمُحيطهم، إلىٰ حبّ الشّعب لهُم، وإيمانه بهم، حقّ لهُم أنْ يَدخلوا فـي هذه الطّائفة، وحقّ عَلىٰ الحَاكم أنْ يُؤلفها منهُم.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ لاٰ يَكُنِ ٱخْـتِيَارُكَ إِيَّـاهُمْ عَـلَىٰ فِـرَاسَـتِكَ وَٱسْـتِنَامَتِكَ وَحُسْـنِ الظَّـنِّ مِـنْكَ، فَـإِنَّ الرِّجَـالَ يَـتَعَرَّضُونَ لِـفِرَاسَـاتِ الْـوُلاٰةِ بِـتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْـنِ خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَـانَةِ شَيْءٌ. وَلَكِنِ ٱخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِـلصَّالِحِينَ قَـبْلَكَ، فَٱعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِـي الْـعَامَّةِ أَثَـراً، وَأَعْـرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِـيلٌ عَـلَىٰ نَـصِيحَتِكَ للهِ وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

لَقد نَظر الإمَام فرأىٰ أَنّ طَائفَة الوزرَاء هي أعظَم أَجـهزة الدَّولة أهـمية، لأَنَّ جَميع الشّؤون تُناط بها، وتَرجع إليها، وتَصدر عنها، في السّياسة والإدَارة والحَرب.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «الكُتّاب».

ولاَ يَصح أنْ تُناط هذه المهَام بشخصٍ واحد أو بمَجمُوعة من الأَشخاص، فَإِنّ الإِحاطة بدقَائق كلّ هذه المهَام ومَعرفة أسرارها لاَ تُتاح في العَادة للشخص الواحد، ولو أُتيحت لواحد فأُنيط به أمرها لما أحسَن التّصرف، ولوقع في الخَطأ وسُوء التّدبير، لأَنَّ اضطلاعه بها يُرهقه ويُبهظه، فإمّا أَنْ يَصرفها كلّها فَيقع في الخَطأ، وينأىٰ عنه بَعد النّظر، وأصَالة الرّأي، وسلاَمة التّدبير. وإمّا أَنْ يُهمل بَعضها ويَصرف بَعضها الآخر فَيقع الإِضطراب في أعمَال الدَّولة بسَبب إِهماله.

وإِنْ أُنيطت المهام بجمَاعة من النّاس دون تَحديد المُهمة المُلقاة عَلىٰ عَاتق كلّ منهم وقَعت البَلبلة وشاع الإِهمال، فيَنقض أحدهُم ما أَبرَمه الآخر، ويَصرف أحدهُم ما أمسَكه صَاحبه، ويَمضي اثنان أمرين مُتضادّين، ويَهمل كلّ واحد منهُم بعض المُهمات اتّكالاً عَلىٰ رفَاقه.

فأحسن الوسَائل لضَمان سَير أعمال الدَّولة عَلىٰ مُستوىٰ عَال من حُسن التّدبير، وإِصابة الهَدف هو ما قرّره الإِمَام عليه السلام، وهو أَنْ يُناط بكلّ واحد من هَؤلاء الوزرَاء بعض مُهمات الدَّولة، ويُراعىٰ في إِلحاق من اُختِير للوزَارة لعَمل من الأَعمال أنْ يكون ذا اختصاص بذَلك العَمل وذَا خُبرة بدقَائقه وأسراره ليُؤدي ما استعصىٰ منه عَلىٰ خَير وَجه.

وبهَذا يكون الإِمَام قَد قرّر مَبدأ الإِختصاص وتَوزيع الأَعمال في الإِدارَة الحكُومية: ويكُون بذَلك قد تجَاوز مفَاهيم عَصره الّذي لم يكُن يَعرف هذا المَبدأ العَظيم الأَهمية في مُهمة الحُكم والإِدارة.

قَالَ عليه السلام:

«وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ،

لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلاَ يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ»(١).

عَهْدُ الأَشْتَر

وَفي هَذه الفقرة الأَخيرة «وَمَهْمَا كَانَ» قرّر الإِمَام أنّ الحَاكم مَسؤول عمّا يكُون في وزرَائه من العيُوب، وذَلكَ لأنّه ـ وقد آختار ـ يَجب أنْ يَتحمل مَسؤولية آختيَاره.

* * *

وعَلىٰ رَأس هؤلاء جَميعاً رَئيسهم، وهو مَن يُقال له (كَاتب الكُتَّاب).

ومُهمة هذا الوزير هي الإِشراف عَلىٰ من دُونه من الوزرَاء، ومُراقبة أعَمالهم.

ومُهمته أيضاً هي تَولي السّياسة العُليا للدّولة مع الحَاكم، فهو عَضد الحَاكم في رَسم الخُطط السِّياسيَّة، وإعلان الحَرب، وعَقد مُعاهدات الصّلح، والتَّعرف عَلىٰ نيّات مَن يَخاف منهُم عَلىٰ أمن الدَّولة وكيَانها، فهو مع الحَاكم الأَعلىٰ، العَقلاَن اللَّذان يُديران عَميلة الحُكم كلّها.

هَذا الوَزير يُشترط فيه الإِمَام شُروطاً لاَ يَصلح بدُونها:

فيَجب أَنْ يَمتاز عن بقيّة الوزراء بأنْ يكون خَيرهم، وذَلكَ بأنْ يكون أكثر منهُم إلماماً بشؤون الدَّولة وإمكاناتها، ليَتسنىٰ لهُ أنْ يُوجه كلاً منهُم إذَا آنحرف، ويَفهم عنهُ إذَا قَالَ.

ويَجب أنْ يكون عَارفاً بمَركزه وأنّه لاَ يَخرج عن كَونه وزيراً يَستَمد الصّلاحية

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «الكُتّاب».

ممّن آستوزره، فلاَ تُبطره الكَرامة الَّتي حَصل عليها، فتَدفعه إِلىٰ إِشَاعة خلاَفه مع الحَاكم بَين النّاس، لأَنَّ ذَلكَ يشعر النّاس بأَنّ في جهَاز الحُكم خَللاً، وربّما سَبب شيُوع ذَلكَ تَحفز المشَاغب إِلىٰ إِظهار شَغبه آغتناما لفُرصة الإِنشقاق.

إِنّ الإمام عليه السلام: لاَ يَطلب من الوَزير أَنْ يُسلّم بوجهة نَظر الحَاكم في كلّ ما يَقول، لأَنّه حِينئذٍ يكُون بَبغاء لاَ وزيراً، إِنّ عَليه أَنْ يُجاهر برَأيه حِين يَرىٰ الحقّ في جَانبه، ولَكن ذَلكَ يَجب أَنْ يَبقىٰ سرّاً بَينه وبَين الحَاكم، ولاَ يَجوز أَنْ يُذاع في النّاس.

ويَجب أَنْ يكُون عَلىٰ وعي بحَقيقة السّياسة الَّتي تَسير عَليها الدَّولة فيتّبع في أوَامره الَّتي يَصدرها إِلىٰ الوُلاَة وفي مُباحثَاته السِّياسيَّة هُدىٰ سيَاسة الدَّولة، ولاَ يَغفل عنها فيَلزم نَفسه بما يَتنافى وسيَاسة دَولته الَّتي يُمثلها.

ويَجب أَنْ يكون عَارفاً بأَحَابيل السّياسة وألاَعيبها، فيُحافظ عَلىٰ التزَامات الدَّولة السِّياسيَّة الَّتي تَعود عَليها بالنّفع والقوّة، ويَعرف وجه الحِيلة في إِخراج الدَّولة من المآزق السِّياسيَّة الَّتي يَكيدها بها أَعدَاؤها.

ويَجب أَنْ يكون، إِلىٰ جَانب هذه جَميعاً، أَجمع وزرَائه لوجُوه صَالح الأَخلاق، لأَنَّ المهَام الَّتي تُناط به تَتطلب قوّة في الدِّين تُمسكه عَلىٰ الجَادة، وشعُوراً بالمَسؤولية يَحمله عَلىٰ الإِخلاص والإِتقان، وعفّة تَعصمه من الإِغراء.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ أنْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَىٰ أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَآخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ

مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلاَفٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلإٍ، وَلاَ تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَىٰ الصَّوَابِ عَنْكَ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلاَ يُضْعِفُ عَقْداً ٱعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلاَ يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

وفي هَذه الفقرة الأخيرة: «وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ» يَشترط الإمَام في الوَزير أنْ يكُون وَاقعيّاً، يَنظر إلىٰ الأمور نَظرة جدّية، ويَعرف وَاقعة تمَام المَعرفة، فَإذا كَان مَركزه ضَعيفاً ٱحتاط لنَفسه بمَا يَحتاط به الضّعيف، ولاَ يَهمل الإحتياط غُروراً منهُ وٱستعلاءً، وإذَا كَان قوي المَركز وجَب عَليه أنْ يُمثّل دَور القوي ولاَ يَهن أمَام خصُومه فيُعطيهم من نَفسه مَا لو شَاء لمَنعه، ثُمّ لاَ يَلحقه من ورَاء ذَلكَ شيء.

* * *

قُلنا أَنَّ الوزير الَّذي يصوّب كلّ ما يقُوله الحَاكم حتَّىٰ إذَا كَان مُخطئاً فيه لَيس وزيراً وإنَّما هو ببغَاء تَقمصت أهاب وزير. وظِيفة الوزير هي أنْ يَتعاون مع

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسالة (٥٣) «الكُتّاب».

الحَاكم الأَعلىٰ عَلىٰ إدارة جهَاز الحُكم إدارة صَحيحة، وعَليه إِذَا أخطَأ الحَاكم في الرّأي أنْ يَردّه إِلىٰ الصّواب.

وعَليها أَنْ يَتعاونا عَلىٰ مَعرفة أصلَح الوجُوه فيما يَأخذان ويَدعان من الأُمور لذَلك يَجب أَنْ يُعطي الوزير حرّية الرّأي بحَيث لاَ يُقيده في هذا المجَال شيء، لأنّه بقَدر ما يكُون مُتمتعاً بالحريّة يكُون عَظيم الفَائدة.

ويَجب أنْ يَنال الوَزير من الحَضوة بمقدار مَا يكُون صَريحاً في رَأيه، مُعالنَاً الحَاكم بالحقّ رَادّاً لهُ إِلىٰ الصّواب، فكلّما اَزدَاد قولاً بالحقّ وإِيثَاراً للصّدق اَزداد كرَامة ورفعَة. وأمّا حِين يَتبين الوَزير في الحَاكم أنّه لاَ يَطلب النُّصح وإِنّما يَطلب المُوافقة عَلىٰ رَأيه فَقط فإنّه يَنقلب إِلىٰ ببغَاء، وحِينئذٍ يَسير الحَاكم بالدّولة معصُوب العَينين لأَنّ أحداً لاَ يَجروْ أَنْ يقُول في وَجهه كَلمَة الحقّ.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْـحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِـيمَا يَكُـونُ مِـنْكَ مِـمَّا كَـرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ؛ ثُمَّ رُضْهُمْ[١] عَلَىٰ أَلاَّ يُطْرُوكَ وَلاَ يَبْجَحُوكَ[٢] بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْـرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ[٣]، وَتُدْنِي[٤] مِنَ الْعِزَّةِ»[٥].

(١) رُضهُم: عَودهُم عَلىٰ ألاّ يَمدحُوك.

(٢) بَجَحَ: فَرِح. عَودهُم عَلىٰ ألاّ يَتقربُوا إِلَيك بِنسبَة أعمَال إِليك، ولَم تَكن قَد فَعلتها. وَيَبْجَحُوكَ: يَفرحُوك.

(٣) الزَّهوَ: الإعْجَاب بالنَّفس.

(٤) تُدنِي: تُقرّب.

الزُّرَّاع

هَذه الطّبقة من أعظَم الطّبقات الإجتمَاعيَّة، وأبلَغها أثرَاً في حيَاة المُجْتَمع ففي زمَان الإمَامعليه السلام كانت هَذه الطّبقة أضخَم الطّبقات الإجتمَاعيَّة، وكَانت مَركز الكثَافة في المُجْتَمع، كمَا أَنَّ مَركز الكثَافة فيه هي طَبقة العُمّال في العَصر الحَدِيث.

وكانت المُجتمعَات القَديمة مُجتمعات زرَاعية في الدّرجة الأُولىٰ، فكَان كيان الأُمَّة الإقتصاديّ يقوم عَلىٰ الأَرض ومُنتجاتها، لأَنَّ الصّناعة لم تكُن إذ ذَاك عَلىٰ حال تَسمح بأنْ يقوم عَليها الصّرح الإقتصاديّ للأُمّة، لضَعفها وضِيق نطَاقها.

ولَم تكُن التّجارة وحدهَا كذلكَ لتَسمح بإقَامة هذا الصّرح في كَثير من البُلدان، لعَدم أنتظام التّجارة العَالمية إِذْ ذَاك، ولضَعف المواصلات، ولعَدم وجُود طُرق تجَارية كَافية ومَأمونة في جَميع الأَوقات.

وإذن فَقد كان الكَيان الإقتصادي يقُوم في الدّرجة الأُولىٰ عَلىٰ الأَرض ومُنتجاتها، والرّفاهية الإقتصَاديَّة مَنُوطة بأنْ تُتاح للأَرض أفضل الفُرص الَّتي تُمكنها من أَنْ تُعطي عَطاءً كَثيراً، ومنُوطة بأنْ تُتاح للزّارع أفضل الوسَائل الَّتي تعينه عَلىٰ صيَانة أرضه، وخِدمتها، والحصُول منها عَلىٰ نتَاج وفِير.

(٥) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «كُن مَعَ الصَّادِقِينَ».

وقَد بَرهن الإمَامعليه السلام في عَهْده إلىٰ الأَشْتَر أنّه عَلىٰ وعي تَام لمَدىٰ أهمية هذه الطّبقة في الكيان الإجتماعيّ، ثُمّ للعَمليات الّتي يُعتبر نشَاط هذه الطّبقة ضَرورياً لإستمرارها.

يُقرّر الإمَامعليه السلام أنّ النّشاط الإقتصاديّ كلّه يتوقف عَلىٰ ما يَدفعه أهل الخَرَاج من الأَموال.

فسكّان المُدن عَلىٰ أقسَام: الجُنُود المُقاتلة، وأصحَاب الحِرف والصُّنَّاع، وأصحَاب التّجارات، والَّذِين لاَ يَستطيعُون عَملاً يَرتزقون منهُ، أو لَديهم أعمَال لاَ يَكفيهم رَيعها.

ويُوزع قِسم كَبير من أموَال الخَرَاج عَلىٰ الجُنُود، وعَلىٰ الفُقرَاء، وعلىٰ من لاَ يَكفيه عَمله من ذوي الأَعمال.

وبهَذه القوّة الشّرائية الّتي يحدثها هذا المَال تَستمر الحَركَة الإقتصَاديَّة، فتَنشط حَركة التّجارة والصّناعة، لأَنَّ في أهل المُدن حَاجة إلىٰ الطّعام، والكسَاء، والآنيَة والوقُود وغَيرها، يَحصلون عَليها من التُّجَّار والصُّنَّاع والعُمّال، وبهَؤلاء حاجَة إلىٰ الزّراع فيَشترون منهُم الموَاد الحيوَانية والنّباتية وغَيرها، لأَجل أنْ يُلبوا حَاجات المُدن المُتجددة، وبالزّراع حَاجة إلىٰ الكسَاء والآنية والسّلاح وما إلَيها: فيَحصلون بهذا المَال الَّذي يَصير إلَيهم عَلىٰ ما يريدون.

هكَذا يتوقف أزدهار النّشاط الإقتصاديّ عَلىٰ طَبقة الزّراع، وإذن فأضطراب أُمور هذه الطّبقة لَن يعُود بالضّرر عَليها وحدهَا وإنّما يَمتد بآثاره الضّارة إلىٰ المُجتَمع كلّه، فيَشل نشَاطه، ويؤدي به إلىٰ أزمَات إقتصاديَّة حَادّة يَنجم منها التَّفسخ الإجتماعيّ.

قَالَ عليه السلام:

«وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاٰحِهِ وَصَلاٰحِهِمْ صَلاٰحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلاٰ صَلاٰحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إلاّٰ بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَىٰ الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ»[1].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

وتَعتَمد هَذه الطّبقة اعتمَاداً مُطلقاً عَلىٰ الأَرض، وعَلىٰ العنَاصر الطّبيعية، وعَلىٰ سوَاعدها.

فيَجب أنْ تُصان الأَرض لتَبقىٰ في حَالة جَيدة، ولتَستفيد من العنَاصر الطّبيعية إلىٰ أقصىٰ مُقدار مُمكن، فَيجب أَنْ تُشق التُرع، وتُبنىٰ القنَاطر والسّدود، وتُحفر الآبَار، لتَتوفر للأَرض حَاجاتها من الميَاه ويَنتظم الرّي، ويَجب شقّ الطُّرق الزّراعية الَّتي تُمكن هَذه الطّبقة من الإتّصال بِبَعضها، وتُسهل قضَاء المهَام الزّراعية والإستعانة بالعُمّال الزّراعيّين.

وصيَانة الأَرض لَيست أمراً يَعود بالنّفع عَلىٰ هذه الطّبقة وحدَها، وإنّما يَعود بالنّفع عَلىٰ الدَّولة كلّها، فَقد رَأينا ما لنشَاط طَبقة الفَلّاحِين من تَغلغل حيوي في العَمليات الإجتمَاعيَّة، فصيَانة الأَرض والحَال هَذه من المصَالح العَامّة، فَيجب الإنفاق عَليها من الأَموال العَامة.

فأمّا حِين تَهتم الحكُومة بالجبَاية فقط وتُهمل أمر الإصلاح والعمَارة، حين

---

(١) أنظر، نَهج البَلاغة: الرّسَالَة (٥٣) «الخَرَاج».

تتّجه هذا المتّجه يَصير بها الأمر إلىٰ أنَّ تَخرب البلاَد وتَهلك العبَاد، ثُمّ لاَ تَجد مَورداً تُجبىٰ منهُ المَال، لعَدم وجُود إنتاج وَفير لأنَّ الخرَاج كَثرة وقلّة مُتّصل بحَالة الأرض، فعلىٰ مقدَار ما تَأخذ الأرض تُعطي، وعَلىٰ مُقدار ما تُعطي تكُون قُدرة أهلها عَلىٰ إجابة الحَاكم إلىٰ أدَاء ما يَفرضه عَليهم من خرَاج.

قَالَ عليه السلام:

«وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاَحِهِ وَ صَلاَحِهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلاَ صَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ اِلاَّ بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَىٰ الْخرَاجِ وَأَهْلِهِ. وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلاَبِ الْخرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لاَ يُدْرَكُ اِلاَّ بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ اِلاَّ قَلِيلًا»(١).

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

وطَبقة الفَلّاحِين أكثَر الطّبقات كَدحاً، وأشقّها عَملاً. فعندَ من عدَاهم من الطّبقات والطّوائف وقت مُخصص من اليَوم للعَمل، وأوقَات أُخرىٰ للرّاحة والتّسلية، بخلاَف الفَلّاحِين فَإنّ عَملهم يَمتد طُول اليَوم، وعَلىٰ مدَار العَام. وهَذا العَمل إمّا في مَركز الإنتاج وهو الحَقل، وإمّا في بيُوتهم بإعداد البذَار والآلات ومَا إليها. وحتّىٰ في الأوقات الّتي يَنقطعُون فيها عن العَمل هُنا وهُناك لاَ يَنقطعُون عنهُ

(١) أُنظر، نَهج البلاَغة الرّسالة: (٥٣) «الخرَاج».

في أحادِيثهم وتَصوراتهم.

وطَبيعة عَملهم تَفرض عَليهم هذا اللَّون من الحيَاة، وهذا المُقدار من الجُـهد فغَيرهم من النّاس يَستطيع أَنْ يَتحكم بعَمله فيختَار الوقت المُلائم لأَدائه ثُمّ يَنقطع عنهُ، أمّا الفَلاَّح فَعَمله يَنحصر في مُساعدة العـنَاصر الطّـبيعية عـلىٰ أَنْ تُـؤدي وظِيفتها عَلىٰ الوجه الأَكمل، فهو أسِير لهَذه العنَاصر، وعَليه أَنْ يكون يَقظاً دَائماً ليَعمل ما يَجب عَمله، ولمّا كان عَمله مُتّصلاً بهَذه العنَاصر فَإِنّ أي تَقصير منهُ يعُود عَليه بضَرر كَبير، لأنّه لاَ يَستطيع أَنْ يَتحكم في الظّـواهـر الطّـبيعية ويُسـخرها حَسب هوَاه.

هَذا العَمل المُرهق يَجب أَنْ يُقابله مُستوىٰ من المَعيشة، ومُقدار من الدّخـل يُشعِر أنّ هَذه الطّبقة بأَنّها حِين تَعمل لاَ تُستَغل لصَالح الآخرين وإِنَّما تَعمل لنَفسها في الدّرجة الأُولىٰ.

ويَجب أَنْ يَشعر الفَلاَّح بأَنّه سيِّد أرضَه وأَنْ لاَ أحد يُمكن أَنْ يُنازعه في هَذه السّيادة.

وحَيث كان من اللّازم مُراعاة حَال الفَلاَّح وتَمكينه من أَنْ يَحيا عَلىٰ مُستوىٰ لاَ يَشعر معهُ بالإِضطهاد والإِستغلال.

وحَيث كان من اللاَّزم إِشعاره بأَنّه سيِّد أرضَه.

لهَذا، وذَاك يَجب أَنْ يكون مَسموع الكَلمة فيما يتّصل بأَرضَه وبقُدرتها عَلىٰ الإِنتاج، فَإِذا اشتكىٰ ثِقل الخَرَاج لعَدم تنَاسبه مع إِنتاج الأَرض، أو شَكىٰ آفَـة أَلمّت بالأَرض فأثّرت عَلىٰ إِنتاجها، أو ذَهبت به فلذَلك لاَ يَستطيع دَفع ما فُرض عَليه من المَال، إِذَا شَكىٰ شَيئاً من هَذا كَان من اللاَّزم أَنْ يَسمع كلاَمه فيُوضع عنهُ

من المَال مُقدار مَا يُصلحه.

وقَد يَذهب الظّن بالبَعض إِلىٰ أَنَّ هذه المُعاملة تُؤثّر عَلىٰ مَالية الدَّولة وتَضعفها ولَكن هذا الظّن بَعيد عن الصّواب، لأَنَّ هَذه الوَضيعة الَّتي يَحصل عَليها الفـلَّاح تَعود عَلىٰ الدَّولة نَفسها بفوَائد عَظيمة تُزيد في ٱزدهارها ورفَاهيتها. وذَلكَ لأَنَّ هذَا المَال يُصرف في إِصلاح الأَرض وعمَارتها، ويُصرف في سدّ حَاجات الفلَّاح نَفسه من مَسكنه ومَلبسه ومرَافق حيَاته الأُخرىٰ، فيكُون في ذَلكَ تَزيين للبلاَد بمَا أَتَاح لها هذا المَال من العُمران ويكُون في ذَلكَ شعُور هذه الطّبقة بـالطُّمأنية والرّضىٰ ممّا يَدفعها وهي أكثر طَبقات المُـجْتَمع عَـدداً وأعـظمهَا إِنـتاجاً، إِلىٰ المُحافظة عَلىٰ الحُكم القَائم، والدّفاع عنهُ لأَنَّه يَحفظ لها مصَالحها.

ولَدينا شَاهد من التَّارِيخ عَلىٰ هذَا، فَقدكان نَابليون الثّالث (إِمبراطور فَرنسا) ممّن حَدبوا عَلىٰ هذه الطّبقة ورَعـوا مـصَالحها، وحـموها مـن عُـتاة الظّـلمة، وأشعروا الفلَّاح الفَرنسي أَنَّه سيِّد أرضَه وأنّ أمرها مَنوط به وحـدَه، وقـدكَـان مَوقفه هذا ممّا دَفع بالفَلَّاحِين إِلىٰ أَنْ يَخصّوه بتَأْييدهم دَائـماً لمَـا لمسُـوه مـن رعَايته لمصَالحهم وفَهمه لمَوقفهم.

وهَذه النّتيجة «عَطفهم عَلىٰ الحُكم القَائم» مَع عُمران أرضهم تَـجعلهم عَـلىٰ ٱستعداد للمَعونة حين تُطلب منهم، لحُسن ظَنّهم بالحُكم القَـائم ورغـبَتهم فـي ٱستمراره من جِهة، ولأَنَّ حَالهم المَالية تَسمح لهم بالمُساعدة لوفرة الإِنتاج.

فهَذا المَال الَّذي وضع زَاد في عُمران البلاَد، ومن ثمَّ زَاد في إِيرادها، ومَن ثَمَّ جَعلها تَحتمل من الضّرائب فَوق ماكَانت تَحتمل وهـي أقـل عُـمرانـاً، وحَـمل الفَلَّاحِين عَلىٰ حُبّ الحُكم القَائم وبَذل المَعونة لهُ حِين يَشكو العَجز وتَأْييده حِين

يَشكو الخُذلان.

قَالَ عليه السلام:

«فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً[١]، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ[٢]، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ[٣]، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ».

وَلاَ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ[٤] عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلاَدِكَ، وَتَزْيِينِ وِلاَيَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ[٥] بِاسْتِفَاضَةِ[٦] الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ

---

(١) ثِقلاً ـ شَكواً من ثِقل الضَريبَة عَليهم (عِلّة) شَكو من مَرض زرَاعي أتلَف محَاصيلهم.

(٢) الشِّرب بكَسر الشِّين: مَاء الرّي في المنَاطق الزّراعية الّتي تَعتمد عَلىٰ الأنهار ومَا إِليهم (بَالّة) بتَشدِيد اللاّم وفَتحها: مَاء المَطر في المنَاطق الّتي تَعتمد في الرّي عَلىٰ الأَمطار.

(٣) إحَالَة أرض ـ فسَاد البذُور فِيها، (أغتَمرهَا غرَق) غمرها المَاء وطَاف عَليها فغَرقت بِهِ (وأجحَف بها عَطَش) لَم تَأخذ مَا يَلزمها من المَاء للرّي ـ يَعني أنَّ الزّراع إِذَا شَكوا من فسَاد مُوسمهم الزّراعي بسَبب طُوفان المَاء عَلىٰ الأَرض المَزروعة أو بَسبب قلّة المَاء وعَطش الأَرض، فَينبغي أنْ تَأخذ شكوَاهـم بنَظر الإِعتبَار.

(٤) المَؤُونَة: النَّفقَة.

(٥) تَبَجُّحك: سُرُورك بمُعَاملتك العَادلَة لهُم.

(٦) الاستِفَاضَة: الإِنتشَار والشّيوع.

إِجْمَامِكَ[١] لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ ٱحْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ»[٢].

عَهْدُ الأَشْتَرِ

* * *

ولهَذه الفقرات وجوه أُخرىٰ من الدّلالة، عَظيمة القِيمة، بَالغة الأَهميَّة.

فمِن الشّروط الأَساسية لنجَاح العَمل وٱزدهاره أَنْ يَقبل العَامل عَليه بهمّة ونشَاط، وأَنْ يَشعر نَحوه بالحُبّ والرّغبة. وأَنْ يحسّ حِين يُزاوله أنّه يُنمي بهِ شَخصيته الإِنسانيّة، ويُؤكد قُدرتها عَلىٰ الإِبداع ـ إِذَا كَان هذا هو مَوقف العَامل النّفسي من عَمله ٱزدهر العَمل وتَقدّم، ولاَ يُمكن أَنْ يَقف العَامل من عَمله هذا المَوقف إِلاّ إِذَا شَعر بأَنّ عَمله لهُ، وبأنّه يَعود عَليه بالنّفع والفَائدة.

ومن هُنا ٱعتبرت المِلكية الخاصّة من أَعظم الأَسباب الدّافعة إِلىٰ ٱزدهار العَمل، لأَنَّ هَذا اللّون من المِلكية يَدفع العَامل إِلىٰ بذل طَاقته كلّها مع شعُوره بالسُّرور لأَنّه يَعمل لنَفسه.

ويَتغير هذا المَوقف حِين يكُون العَمل للغَير ولاَ يَرجع إِلىٰ العَامل من ثَمراته شيء يُذكر، فإِنّه حِين ذَاك يَشعر بالكَرَاهية نحو عَمله، ويتهَاون فيه ولاَ يَتحرىٰ كمَاله وإِتقانه ويَتحرىٰ الفُرص للتّهرب منهُ، وهذا يُضعف سَير العَمل، ويَهبط به،

(١) إِجْمَامِكَ: التّرفيه والإِرَاحة.

(٢) أُنظر، نَهج البلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «الخرَاج».

ويَسري هذا المَوقف النّفسي إلىٰ صَاحب العَمل نَفسه فيُتمني العَامل هـلاَكـه، ليَتخلص منهُ.

هَذه المُلاَحظات تُفيدنا هُنا.

فحِينما تُوضع عَلىٰ الفَلَّاحِين الضّرائب الفَادحة الَّتي لاَ تتنَاسب مع دَخـلهم، مع إهمال عمَارة الأَرض وصـيَانتها يَشـعر هَـؤلاء الفـلَّاحون أنّـهم لاَ يَـعملون لأَنفسهم، ولاَ يَجنون من ورَاء كَدحهم المُـرهق شـيئاً ذَا قِـيمة، وإنَّـما يَـعملون لغَيرهم، ويُستغَلون لهَذا الغَير آستغلالاً بَشعاً وذَلكَ يَخلق في نـفُوسهم كـرَاهـية عَملهم والتَّذمر منهُ.

إنّ هَذه المُعاملة الَّتي تَحدث هذا الشّعور وتَدفع إلىٰ هذا المَوقف تُخلف فـي المُجْتَمع آثَاراً ضَارة قد تُقوض المُجْتمع من أسَاسه.

هَذه المُعاملة تَدفع بأضخم طَبقة في الأُمَّة إلىٰ إنحلال أخلاقي فَـظيع، فـهَذا الفَلّاح الَّذي يَستغل الحَاكم جُهده دون أَنْ يُعوضه عَليه شَيئاً يُريد أَنْ يَعيش، وهو يَتوصل إلىٰ غَايته هَذه بالكَذب والغُش والتّهريب والسّرقة فبدلاً من أَنْ يَعيش من أرضَه بجُهده يَضطر إلىٰ العَيش من جيُوب الآخرين بسـلاَحه، ويَـنقلب قَـاطع طَريق، مُجرماً، عدوّاً للمُجتمع، بعد أَنْ كَان المَفروض فيه أَنْ يكُون لَـبنة تَـزيد صَرح المُجْتَمع قوّة ومنَاعة.

ومن جُملة آثارها أَنْ تَنتقل الأَيدي الفَتية الشّابة إلىٰ بلاَد أُخـرىٰ هَـرباً مـن الظّلم، وطَلباً للقُمة العَيش. فمَن لاَ يَصبر عَلىٰ الظّلم إمّـا أَنْ يَـتحول إلىٰ قَـاطع طَريق وإمّا أَنْ يُهاجر، وهذَا يَسلب من البلاَد زهرة شبَابها، فإنّ الَّذِين يُهاجرون هم الأَقوياء المُغامرون، ذوي المُستوىٰ الأَخلاَقي العَالي الَّذي يَمنعهم من الإجرَام.

وإلامَ يُؤدي هَذا؟ إنَّه يُؤدي إلىٰ هبُوط الإنتاج، فهَذه الأَيدي الفَتية هي الَّتي تُدير عَمليته، وحِين تَنقطع عن العَمل فَلاَبُدّ أَنْ يُصاب الإنتاج بالشَّلل.

ومن جُملة آثارها أَنْ تَنتقل رؤوس الأَموال الكَبيرة إلىٰ خَارج البلاَد، فَإِنّ أصحَاب الثّروات يَستغلّون أموَالهم عن طَريق الزّراعة في المُجتمعات الزّراعية، فيُعمرون الأَرض، ويُحيون موَاتها، ويُصلحون نظَام الرّي، ويُوجدون عَملاً للكَثيرين ولَكن غَايَة هؤلاء هي الرّبح، فَإِذا مَا رأوا أنّ الضّرائب والمظَالم تَذهب بثَرواتهم فظلاً عن أربَاحهم آثروا تَجميد أموَالهم أو نَقلها إلىٰ بَلد آخر يَأمنون فيه العُدوان ويَنجم عن هذا تَعطيل شُبّان كَثيرين يتّجهون إلىٰ الهِجرة أو إلىٰ الإِجرام، وتزيد البلاَد خرَاباً، ويزيد الكيَان الإِقتصاديّ ضَعفاً.

ومن جُملة آثارها أَنْ تَتحد الأُمّة عَلىٰ بُغض الحُكم القَائم، ثُمّ لاَ تَلبث أَنْ تَثور عَليه وتَجعله أثرَاً بَعد عَين.

هَذه الكوَارث الإِجتمَاعيَّة تَنشأ من عَدم التَّبصر في إمكانات الإِنتاج وحَالة المُنتجين. وقَد وضع الإمَامعليه‌السلام من المُبادىء ما يَعصم أتباعه من التّردي، فبَيَّن أنّ عَلىٰ الحَاكم قَبل أنْ يُفكر في وضع الضّريبة أنْ يُلاحظ حَالة الأَرض فيُعمرها ويُصلحها، وأَنْ يُراعي حَالة العَامل النّفسيَّة والمَعيشية فيَضمن لهُ العَيش في مُستوىٰ لاَئق لئلّا يَشعر بالإِضطهاد، وعندَما يَفرغ من ذَلكَ كلّه يحقّ له أَنْ يَضع الضّريبة الَّتي تَتناسب مع مُستوىٰ الإِنتاج ومَقدرة المُنتجين.

قَالَعليه‌السلام:

«وَإِنَّمَا يُؤْتَىٰ خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ[1] أَهْلِهَا،

---

(١) الإِعوَاز: الحَاجَة.

وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ[١] أَنْفُسِ الْوُلاَةِ عَلَىٰ الْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ»[٢].

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

ولاَ يَكفي هذا وحدَه في ٱزدهار هَذه الطّبقة وتَقدّمها، فَقد يكُون الحَاكم مُحسناً إِلَيها رؤوفاً بهَا، ومع ذَلكَ ينَالها الظّلم، ويَلحق بها الحَيف.

إنّ هَذه الطّبقة بحَاجة إِلىٰ الحمَاية من طَبقة الخاصّة والنّبلاء.

فهَؤلاء يَظلمون، ولاَ يتنَاهون عن مُنكر فَعلوه، ولاَ يَفيئون إِلىٰ حقّ، ٱعتزازاً بقوّتهم وغنَاهم وصِلتهم بالحَاكمين، ولذَلك فَيجب أنْ تُحمىٰ هذه الطّبقة منهُم بقَطعهم عنهَا، ويكُون ذَلكَ بألاّ يَجعل الحَاكم لهُم سَبيلاً عَليها ولاَ صلَة بها فلاَ يَقطعهم الحَاكم أرضَاً تتّصل بأرَض مَن هُم دونهُم قوّة وقَدراً لأنّهم يَستغلوا المرَافق العَامة في سَبيل منَافعهم الخاصّة، ويَعتدون علىٰ أرض غَيرهم فيَلحقونها بأرضِهم، ويَعفيهم الجُبَاة من الضّرائب مُراعاة لمَنزلتهم، ويَضعون ما رفعُوه عنهُم عَلىٰ أعنَاق غَيرهم ممّن لَيس لهُ مِثل مَنزلتهم، وذَلكَ أفدَح الظّلم وأقبَحه.

فَإِذا مَا حَدَث شيء من ذَلكَ وتَعدىٰ أحد هَؤلاء عَلىٰ بعض النّاس فظُلمه بأنْ

(١) إِشرَافِ أنفس الوُلاَة: الإِشرَاف: التّطلع، أي أنّ الوُلاَة يَتطلعون إِلىٰ جمع المَال لأنفسهم، لعَدم ثِقتهم بالإِستمرار في الحُكم.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «الخَرَاج».

وُضع عليه خرَاجه، أو سَلبه أرضه، أو حُرمه الإنتفاع بالمرَافـق العـامّة، وجَب علىٰ الحَاكم أنْ يُوَد به ويَرده إلىٰ العَدل كَائناً مَن كَان.

قَالَ عليه السلام:

« ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً(١)، فِيهِمُ ٱسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَٱحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ. وَلاَ تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ(٢) قَطِيعَةً، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي ٱعْتِقَادِ عُقْدَةٍ(٣)، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا(٤) مِنَ النَّاسِ، فِي شِرْبٍ(٥) أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَئُونَتَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ(٦) ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ

(١) الخَاصّة وَالبِطَانَة: رجَال الحَاشية المُقربون من الحَاكم. (البِطَانَة) من بطَانة الثوب لأنّها أقرَب إلىٰ جِلد الإنسَان، فأستُعيرت الكَلمة للتعبير عن النّاس المُقربين إلىٰ الحَاكم.

(٢) الحَامّة ـ المُقربُون جداً من الحَاكم وأقَاربه.

(٣) قَطِيعة ـ عُقْدَة: الضَيعَة، المَزرعة، الأرض الزّراعيَة، (إعتقَاد عُقْدَة) أقتناء مَزرعَة.

(٤) يَلي: يُقرّب، أي لاَ تَجعل أحداً من حَاشيتك يَقتني مَزرعة إذَا كَان يُخشىٰ منهُ أنْ يَظلم جِيرانه من المُزارعين ويَضرّهم بأخذ أكثَر من حِصّته المُقروة لهُ من المَاء، أو بتَكليفهم بأعمَال زرَاعية مُشتركة بَينه وبَينهُم دون أنْ يَتحمل ما يَترتب عَليه من النّفقات.

(٥) الشِّرْب ـ بكَسر الشّين ـ مَاء الرّي.

(٦) المَهْنأُ ـ المَنفعَة الهَنيئَة.

فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذَلِكَ مِـنْ قَـرَابَـتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَٱبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ[1] ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ»[2].

عَهْدُ الأَشْتَر

راجع: عَهْدُ الأَشْتَر وراجع كتَاباً منهُ إِلىٰ عُمّاله عَلىٰ الخَرَاج رَقم النّص[3].

(١) المَغَبَّة: العَاقبَة.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «بِطَانَة الوَالِي وَحَوَاشِيه».

(٣) تَقَدَّم ذَلكَ.

التُّجَّار والصُّنَّاع

إِذَا كَانت الزّراعَة هي يَنبوع النّشاط الإقتصاديّ في العصُور القَديمة، فَإِنّ التّجارة هي المَظهر الأَكمل لهَذا النّشاط في جَميع العصُور.

وإذن فَطبقَة التُّجَّار تُشكل وحدَة إجتمَاعيَّة عَظيمة القِيمة، بعَيدة الأَثر في الكيَان الإجتماعي.

ولَو أَنَّ اضطراباً أَلمَّ بنشَاط هذه الطّبقة لإضطرب المُجْتَمع كلّه، فتَحدث المجَاعات في بَعض الأَطراف بَينما تَتكدس الموَاد الغذَائية في أطرَاف أُخرىٰ، وبَينما تُوجد في بَعض المنَاطق سِلع كَثيرة للإستهلاك، تُوجد منَاطق أُخرىٰ نَقصاً في سِلع الإستهلاك.

وهَؤلاء التُّجَّار ـ في كلاَم الإمَام عليه السلام عَلىٰ قِسمَين: منهُم المُقيم المُستقر بمَاله وتجَارته. ومنهُم المُتجول المُضطرب بمَاله بَين البُلدان يَرصد حَاجة كلّ بَلد فيَتّجر فيه بالسّلعة الّتي يَفتَقر إلَيها.

وأمّا الصُّنَّاع فَيجب أنْ نَدخلهُم في طَبقة التُّجَّار ونُفهمهم عَلىٰ أنّهم منهَا هُنا، وذَلكَ لأَمرَين.

الأَوّل: أَنَّ لكلّ من هَؤلاء الصُّنَّاع عَملاً خَاصّاً مُستقلاً يتّجر به وحدَه أو يُشاركه فيه غَيره فهو يَتمتع بنَتيجة عَمله ولَيس مُستخدماً عند غَيره كما هو حَال

العَامل الآنْ.

الثّاني: إنّ الوجدَان الطّبقي عند التُّجّار والصُّنّاع واحد كمَا سنرىٰ. والمِيزان في عدّ طَائفتين من النّاس طَبقة واحدة هو وحدة الوجدَان الطّبقي فيهما.

* * *

هُناك تلازم وثِيق بين الإزدهار الإقتصاديّ وبين التجارة، فكلّما نَشطت حَركة التّجارة ارتفعت نِسبة الإنتاج، وكلّما ضَعف أمر التّجارة هَبطت هذه النّسبة، وتَبعتها في الهبُوط المكَانة الإقتصَاديَّة للأُمّة.

نَضرب لهذا مثلاً بحَالة المُقاطعات الفَرنسية في عصر الإقطاع، ثُمّ بحَالة هذه المُقاطعات بَعد ضَعف أمر الإقطاع ونشُوء البُرجوازية.

فَفي عَهد الإقطاع الَّذي سَاد أُوربا منذُ إنهيار إمبراطورية (شرلمان) إلىٰ مَا بَعد الحَركَة الأُولىٰ للحُروب الصّليبية ضَعفت الحَركَة التّجارية في أُوربا ضَعفاً عَظيماً فتَبعها الإنتاج في الهبُوط، واكتفىٰ سكّان كلّ إقطاعية بإنتاج ما يُلزمهم ويَكفيهم من الموَاد الغذَائية واقتصروا مِنها عَلىٰ أنواع خاصّة تسدّ حَاجتهم. ولاَ تَستدعيهم بَذل جُهد كَبير فلَم يكُن شيء سوىٰ سدّ الحَاجة مَطلباً لهُم. نَعم كَانت ثمّة استثناءات خاصّة في السّلاح والثّياب والأَثاث للزّعيم، وكَانت هذه تُنقل من أَقاليم بعِيدة نِسبياً. وهَكذا كانت المُقاطعات الفَرنسية كلّها، تَجنح في الإقتصاد نحو سيَاسة الإكتفاء الذّاتي، وعَدم إنتاج مَا يَزيد عَلىٰ الحَاجة.

ولَكن ما أنْ التهبت شرَارة الحُروب الصّليبيَّة الَّتي ذَهبت بكَثير من النّبلاء والإقطاعيِّين، وما أنْ حَدثت تَطورات إجتمَاعيَّة أُخرىٰ كالنّزوح من الرّيف إلىٰ

المَدينَة، وتَأييد المَلك، وٱختراع المَدفع الَّذي ذَهب بـقِيمه الحـصُون... مـا أنْ حَـدث هَـذا حـتَّىٰ عَـادت التّـجارة فـنَشطت نشَـاطاً عَـظيماً، ونَشأت طَـبقة البُرجوازيِّين التّجارية الَّتي يَتنقل أفرادها بـين البُـلدان، وٱسـتتبع ذَلكَ ٱرتـفاع مُستوىٰ الإنتاج، فزَرع الزّراع أنوَاعاً جَديدة لم يكُن ليَزرعها لولاَ طَلب التُّـجَّار لها، وٱشترىٰ أشيَاء جَديدة «ملاَبس وأسلحَة، وآنيَة، وأدوَات زِيـنة» لم يكُـن ليَقدر عَلىٰ شرَائها لولاَ نشَاطه الجَدِيد، وتَفنُن الصّانع في صنعه، فلَم يَعد يَصنع ما يسدّ الحَاجة فقط، وإنّما أخذ يَصنع ما يُرضي حـاسّة الجَـمال أيـضاً. وقَـامت المشَاريع الصّناعية الكُبرىٰ فنَشأت البُرجوازية المَالية والبُرجوازية الصّـناعية. وهَكذا ٱرتفع مُستوىٰ الإنتاج بسَبب نشَاط الحَركَة التّجارية.

وعندمَا نَبحث عن أسبَاب التّدهور الَّذي حلّ بفَرنسا وغَيرها من دول أُوربا في عَصر الإقطاع نَجد أسبَاباً مُختلفة.

مِنْهَا: عدم وجود الطّرق التّجارية الصّالحة في جَميع الأَوقات بين مُـختلف أنحَاء البلاَد.

وَمِنْهَا: قطّاع الطّرق، وعصَابات اللّصوص والقَتلة الَّتي تَترصد القوَافل التّجاريَّة.

مِنْهَا: عَدم وجُود سُلطة مَركزية تَبث الأَمن، وتَضرب عَلىٰ أيدي المُفسدين في الأَرض، لأَنَّ السّلطة المَركزية في عَصر الإقطاع كَانت وَاهنة وكَان السّلطان الفِعلي بأيدي الإقطاعيِّين وكَان هَؤلاء في حَالة حَرب دَائمة فيما بَينهُم في شُغل عن تَأمين السّبل والضّرب عَلىٰ أيدي المُفسدِين.

مِنْهَا: الرّسوم الجُمركية الفَاحشة، والضّـرائب البَـاهظة الَّـتي تُـفرض عَـلىٰ البضَاعة عند حُدود كلّ مُقاطعة، وعندَ كلّ جِسرٍ ومَعبر ممّا يَرتفع بثَمن السّـلعة

إلىٰ مَبلغ كَبير لاَ يقوىٰ عَليه الفَرد المَحدود الدّخل.

هَذه الأُمور أضعَفت الحَركَة التّجارية وحصرَتها في نطَاق شَديد الضّيق.

ولَكن الوضع تَغير عندمَا حَدثت التّطورات الإجتمَاعيَّة الَّتي أشرنَا إلَيها. فَلَقد آستتبع ضَعف شأنْ الإقطاعيِّين تَحول الشّعب إلىٰ تَأيِّيد المَلك فآشتد سَاعد السّلطة المَركزية، وعند ذَلكَ ضَربت هذه السّلطة عَلىٰ أيدي اللّصوص وقطّاع الطّرق ومَهدت السُّبل التّجارية وأمّنتها، ووحدَت الضّرائب فآتّسع مجَال التّجارة، ونَجم عنها الإزدهار الإقتصادي الَّذي أشرنَا إلَيه.

ومَا نَشك في أنَّ الإمَام كان عَلىٰ وعي لهذا كلّه يَوم كَتب للأَشتَر عَهْده الَّذي عَهدَ إلَيه.

فَقد آستوصاه بالتُّجَّار خَيراً، وأمرهُ بأنْ يُوصي بذَلك وُلاته وعُمّاله.

ومَا هذا الخَير الَّذي أرَاده لهُم إلاَّ تَسهيل مُهمتهم، ليُؤدوا خدمَاتهم للمُجتمع عَلىٰ الوجه الأكمل، فلاَ يجُوز أَنْ تكُون المكوس والضّرائب باهظة تَستصفي الرّبح كلّه، أو تُبقي منهُ شيئاً لاَ يسدّ الحَاجة، ولاَ يَحمل صَاحبه عَلىٰ المُخاطرة، لأَنَّ ذَلكَ يُلجئه إلىٰ أَنْ يُجمّد مَاله فلاَ يُنميه بالتّجَارة، ويُلحق بالمُجتمع من ذَلكَ ضَرر كَبير يَنشأ من تَوقف حَركَة العَرض والطّلب الَّتي يَنجم عنها هبُوط المُستوىٰ الإقتصاديّ.

ويَجب أَنْ تكُون الطّرق التّجارية صَالحة في جَميع الأَمكنة ليَتيَسر للتُّجار التّنقل بين أطرَاف البلاَد، وليَتمكنوا من تَلبية الرّغبات في جَميع الأَنحاء، وليَستطيعوا نَقل فَائض الإنتاج من مَنطقه فيَسدّوا به حَاجة مَنطقة أُخرىٰ تُعاني نَقصاً فيه.

ويَجب أنْ يَستتب الأَمن، لئلاَّ يمسك الخَوف التَّاجر عن التَّنقل، ويقعد به الفَرق من أنْ يَذهب ضحيَة العُدوان.

قَالَ عليه السلام:

« ثُمَّ ٱسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِـهِمْ خَـيْراً: الْـمُقِيمِ مِـنْهُمْ وَالْـمُضْطَرِبِ بِـمَالِهِ(١)، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ(٢)، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْـمَنَافِعِ، وَأَسْـبَابُ الْمَرَافِقِ(٣)، وَجُلاَّبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ(٤)، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَـيْثُ لاَ يَـلْتَئِمُ(٥) النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلاَ يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاَ تُخَافُ بَائِقَتُهُ(٦)، وَصُلْحٌ لاَ تُخْشَىٰ غَائِلَتُهُ. وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلاَدِكَ»(٧).

عَهْدُ الأَشْتَر

* * *

ذَهب «سان سيمون» إلىٰ أنَّ الوجدَان الطّبقي الَّذي يُميز طَبقة الصُّنّاع والتُّجّار

(١) الْمُضطَرِبِ بِمَالِه: التَّاجر المُتنقل بَين البلاَد.
(٢) المُتَرَفِّق بِبَدَنِه: العَامل اليَدوي.
(٣) الْمَرَافِق: الأَدوَات والآلاَت، ومَا إلَيها.
(٤) الْمطَارِح: الأَمَاكن البَعيدَة.
(٥) يَلْتَئِمُ: يَجتَمع النَّاس.
(٦) البَائِقَتُهُ: الدَّاهيَة، والخَطر، أي أنَّ التُّجّار والصُّنّاع مُسالمُون.
(٧) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرِّسَالَة (٥٣) «التُّجَّار وَأَرْبَاب الصِّنَاعَة».

هو الإِنتاج، وإِنَّماء بالثّروة الفَردية عن طَريق تَشكيل المَادة عَلىٰ نحو يُنتفع بـه الإِنسَان، أو عن طَريق الإِتّجار بهَذه المَادة.

وهُم، بهذا، يُخالفون طَبقة الحَاكمين لأَنَّ هَؤلاء يَجعلون مَظهر سُلطانهم عَلىٰ الإِنسَان[١] أمّا التُّجّار والصُّنّاع فَقد جَعلوا سُلطانهم عَلىٰ المَادة، ولذَلك فهُم طَبقة مُسالمة لاَ يخشىٰ منها شرّ، بخلاَف مَن كَـان سُـلطانهم عَـلىٰ الإِنسَـان، فـإِنّهم يُنزعُون إِلىٰ الشّر والتّسلط.

وهو يَرىٰ أَنَّ البُرجوازية الصّناعية والتّجارية قد حَققتا إِنقلاباً هَائلاً في نَظرة الإِنسَان إِلىٰ وسِيلة جَمع المَال، وبدَلتا المَفَاهيم الإِقتصَاديَّة الَّتي سَيطرت عَـلىٰ العَقل الإِنسَانيّ آلاَف السّنين.

فبَينما كانت هَذه المفَاهيم تَقتضي بأنّ أحسـن الوسَـائل لجَـمع المَـال هـي السّيطرة عَلىٰ طَائفَة من النّاس وآستخدامها، نرىٰ هذه الطّبقة النّـاشئة تـؤكّد أَنَّ السّبيل الأَفضل لذَلك هو السّيطرة عَلىٰ المَادة وتَسـخيرها لحَـاجات الإِنسَـان بوَاسطة قوىٰ العِلم.

ويَرىٰ (سيمون) أَنَّ من الضّروري للتّقدم الإِنسَانيّ أَنْ تُتاح لهذه الطّبقة جَميع فُرص النّمو، لتَعم ثَروتها المُباركة عَلىٰ النَّظرَة التّقليديَة لوسَائل جَـمع المَـال[٢] وهَذه الفِكرة بَديهيَّة. وقَد أَكّدت جَميع التّجارب صحتها.

ولاَ يَصعب عَلينا أَنْ نَتبين روح هذه الفِكرة في عَهد الإِمَام، فَقد رأيت أَنّه قد أوصىٰ الحَاكم بالتُّجّار والصُّنّاع، وأمرهُ أَنْ يرعىٰ شـؤونهم ويَـتفقد أحـوَالهـم،

(١) كَان سيمُون يَكتُب هذا في سنَة (١٨١٨م).

(٢) دُكتور مُحمَّد ثَابت الفَندي: الطَّبقات الإِجتمَاعيَّة: ٤٧ـ ٥١.

ويَفسح لهُم في المجالات ليَتسنىٰ لهم أَنْ يُساهموا مُساهمة خِصبة في رفع مُستوىٰ الإِنتاج وإِنّماء الحيَاة الإِقتصَاديَّة.

وتَأمل في قَوله ﷺ: «فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاٰ تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لاٰ تُخْشَىٰ غَائِلَتُهُ»(١). فإِنّه يؤكّد فيهِ وجُوب العنَاية بهم والرّعاية لهُم، لأَنّهم لاَ يَخشىٰ منهُم شرّ، فطَبيعة عَملهُم، والوجدَان الَّذي يَدفعهم إِلىٰ هذا العَمل فيهما خَير المُجْتَمع ورفَاهه.

وأمّا قَولَه ﷺ: «وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلاٰدِكَ»(٢). بَعد أَنْ أمرهُ وأمرَ عُمّاله برعَايتهم، فإِنّه يَشبه أَنْ يكون أمراً بإِنشاء دَائرة خاصّة تُعنىٰ بشؤون التُّجَّار.

* * *

قُلتُ: أنّنا لاَ يَصعب عَلينا أَنْ نَتبين روح هَذه النّظرية في عَهد الإِمَام ولَكن في هذَا العَهد مُلاحظة عَميقة وَاعية غَفل عنها «سان سيمون»، وأَولتها الأَبحَاث الإِجتمَاعيَّة الحَديثة عنَاية كَبيرَة.

وذَلكَ أنّه إِذَا كَان من الحقّ أَنْ نَعترف بأَنّ طَبقة التُّجَّار والصُّنَّاع طَبقة مَحبّة للسّلم، طَبقة يعُود نشَاطها عَلىٰ المُجْتَمع بالخَير، فَإِنّ من الحقّ أَنْ نَعترف أيضاً أنّها تَصير في بَعض الأَحيَان ذات نشَاط عُدواني مُضر بالمجتمع فعندمَا تَستَحكم «العَقلية التّجارية» في التّاجر والصّانع إِلىٰ حدٍ أنّها تَدفع بهما إِلىٰ التماس الثّروة

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «التُّجّار وَأَرْبَاب الصّنَاعَة».

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «التُّجّار وَأَرْبَاب الصّنَاعَة».

من أقرب الطّرق ـ عندمَا يَحدث هذا تَجنح هذه الطّبقة إلىٰ التّسلط والسّيطرة» عَلىٰ الإنسَان بصُورة غَير مُباشرة، ولكنّها بَالغة الضّرر، وذَلكَ بالإحتكار والتّوسل بهِ إلىٰ السّيطرة عَلىٰ الأسواق والتّحكم بالأسعار، وبالتّطفيف في الموَازين، وبالغُش وبَيع الأصناف الرّديئة، وبكلّ طَريق يَضمن ربحَاً وفيراً في مُقابل رَأسمال قَليل.

عندمَا يَحدث هَذا الإنحرَاف في عَمل هَذه الطّبقَة تَصير خَطراً.

وإذن فكمَا تَجب معُونتها، تَجب مرَاقبتها أيضاً لئلاً تَنحرف إنحرافاً يَضر بالشّعب، ويُحرم الفَقير من بُلغة عَيشه، فحِينما تَرتفع الأسعار وتَبقىٰ الأُجور كمَا هي تَحدث أزمة عندَ من لاَ تفي أُجورهم بالأسعار الجَدِيدة.

هَذه الظّاهرة، ظَاهرة إنقلاب هذه الطّبقة إلىٰ خَطر، لاَحَظها الإمَام، وتَقدَّم إلىٰ عَامله بأنْ يُلاَحظها، وبَيّن لهُ العلاَج.

فعندمَا يَحدث الإنحرَاف يَتعيَّن عَلىٰ الحَاكم بأنْ يقُوم بتَدبير زَجري يُرجع الأُمور إلىٰ نصَابها، وذَلكَ إمّا بمَنع المُحتكر من الإحتكار، وإجباره عَلىٰ البَيع بالسّعر المَعقُول، وإمّا بتَعميم المَادة المُحتكرة عَلىٰ تجّار عَديدين يَبيعونها بالسّعر العَادل بالنّسبة إلىٰ الفَريقين: البَائع والمُستهلك، فإذا ما أحتكر تَاجر بَعد النّهي عُوقب ليَرتدع.

وأمر عَامله أنْ يَجعل الأسعار عَلىٰ مُستوىٰ لاَ يَعجز عنهُ أوسَاط النّاس، ولاَ يَخسر به التّاجر.

وأمرهُ أنْ يَضبط المكَاييل والموَازين لئلاً يَبخس البَائع المُبتاع.

قَالَ عليه السلام:

«وَٱعْلَمْ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً[١] فَاحِشاً، وَشُحّاً[٢] قَبِيحاً، وَٱحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَىٰ الْوُلاةِ. فَٱمْنَعْ مِنَ الإِحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَنَعَ مِنْهُ. وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لاٰ تُجْحِفُ[٣] بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ. فَمَنْ قَارَفَ[٤] حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ[٥] بِهِ، وَعَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ»[٦].

عَهْدُ الأَشْتَر

(١) ضِيقاً: سُوء الخُلق في المُعَامَلة.

(٢) الشُّح: البُخل.

(٣) الإِجحَاف: الظُّلم، يَعني أنْ تكُون الأسعَار عَادلة بالنّسبة إلىٰ: التّاجر والمُستهلك.

(٤) قَارَف: أرتَكَب وفَعَل.

(٥) النكُل، النّكَال: العِقَاب أي عَاقب التّاجر إذا أحتَكر بَعد نَهيك لهُ.

(٦) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «التُّجّار وأرْبَاب الصِّنَاعَة».

العُمَّالُ وَمَنْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ عَمَلاً

هَذه الطّبقة، طَبقة الفُقرَاء تَتألف ممّن لاَ يَستطيعُون عَملاً، لعَاهة فِيهم لاَ يَقدرون مَعها عَلىٰ العَمل، أو لاَ يَستطيعُونه لكِبر السّن وضَعف البُنية، أو لاَ يَستطيعُونه لصِغَر السّن كالأَيتَام الَّذِين لاَكَافل لهُم، أو يَستطيعُون ويَعملُون، ولَكن عَملهم لاَ يَمدهم بالكفَاية، ولاَ يُيَّسر لهُم مُستوىٰ لاَئقاً من العَيش.

هَذه الطّبقة تَتألف من هَذه الطّوائف، وإِذَا لم تُلاق عنَاية من المُجْتَمع يَنحرف قَوّيها إِلىٰ طَريق الجَريمة، ويمُوت ضَعيفها جُوعاً، وهي في الحَالَين سُبّة وخَطر عَلىٰ المُجْتَمع. وإِذن فلاَ بُدّ من تَدبير يَدفع البُؤس عن أفرَادها، ويُحوّل قَوّيهم إِلىٰ خَليّة إِنسَانية عَاملة ويَنهض بهم إِلىٰ مُستوىٰ الحيَاة الحرّة الكَريمة.

وقَد سنّ الإِمَام عليه السلام قَانُوناً تُعَامل به هَذه الطّبقة إِستجاب فيه إِلىٰ أحكَام الإِسلاَم.

وفي كلاَم الإِمَام عن هَذه الطّبقة نَرىٰ تَشريعاً عُمّالياً نَاضجاً إِلىٰ أبعَد الحدُود، ومُستوعباً تمَام الإِستيعاب، وهو عَلىٰ نُضجه الكَامل وإِستيعابه التّام، سَابق للتّشريعات العُمّالية الحَديثة بأكثر من ألَف ومِئتي عَام.

* * *

فَفي النّصف الثّاني من القَرن الثّامن عَشر ظَهرت طلاَئع الثّورة الصّناعية في

إنجلترا، وهي أوّل بَلد أُوربي شَهد الإنقلاب الصّناعي الحَدِيث.

وقَد تمّت للثّورة الصّناعية عنَاصرها المُكـونة حـين أُخـترع البُـخار كـقوّة مُحركة، وعُمم في صنَاعة المُحركات. وآسـتتبع ذَلكَ آتّسـاع نـطَاق الصّـناعة وتَركزها في المُدن، وحِينئذٍ حَدثت الهِجرة من الرّيـف إلىٰ المَـدينَة، فَـقد بَـاع الفلاَحون أرضهُم من كبّار الملاك، وآنتقلوا إلىٰ المَصانع الجَدِيدة كعُمّال، وعند ذَلكَ ظَهرت طَبقة العُمّال إلىٰ الوجُود عَلىٰ نحو فعّال، وآنتَقلت مرَاكز الكثَافة في المُجْتَمع من الفَلّاحِين إلَيها.

ومِن هذا الحِين بَدأت هذه الطّبقة تَستَشعر الظّلم أفدَح وأقسىٰ ما يكُون، فَلم يكُن لمَطامع أصحَاب المصَانع حدّ ولاَ غَايَة، وكَان العَامل يَعمل أكثَر سَـاعَات نهَاره بأجر زَهيد، فَإذا ما آستغنىٰ عنهُ صَاحب العَمل، أو حلّت به آفَة، أو آعترَاه وهن، أو بَلغ سنّاً لاَ يقوىٰ فيها عَلىٰ العَمل، طُرد من عَمله.

وبَدا كَأنّ هذا الوَضع الشّائن سَيستمر إلىٰ الأَبد.

وبَدا كأنّ الكيان الإقتصاديّ القَائم عَلىٰ هذا الإستغلال سَيبقىٰ مَنيعاً.

وبَدا كأنّ واقع العُمّال التّعس أمر لاَ مَفر منهُ ولاَ معدىٰ عنهُ.

ولَكن شَيئاً من هذا لم يَستمر، فَقد نَبهت هذه المظَالم الوعي العُمّالي، ودَفعتهم إلىٰ تَحسين مُستواهم الإقتصاديّ عن طَريق الصّراع.

وقَد عَملوا كَثيراً، وقد أخفقوا كَثيراً، ولكنّهم وفقوا أخِيراً إلىٰ تَخفيض سَاعَات العَمل ورفَع الأُجور، والتّعويض عند الصّرف من العَمل، والضّمان الإجـتماعيّ بإعانة مَالية تَدفع للعَامل المُتعطل من صندُوق الدّولة.

ونُقدّم هُنا مُلاَحظَات:

الأُولىٰ: إنّ هذا لَم يَتم إلاّ بجهُود العُمّال أنفسهُم، فلاَ المجَالس التّشريعيَّة ولاَ أصحَاب العَمل انتبهوا إلىٰ حَالة العُمّال واهتموا بتَحسينها، ولَم يُستجب أصحَاب العَمل لمطَالب العُمّال، ولَم تُسن التّشريعَات المُلاَئمة إلاّ بعد صرَاع دَام عقُوداً من السّنين.

الثّانيَة: إنّ هذه الإعانة الّتي تُعطي للعَامل المُتعطل إنّما تُعطىٰ لهُ بشَكل إحسَان وصَدَقة، ولاَ بإعتبارهَا حقّاً لهُ.

الثّالِثَة: إنّ هذه التّشريعَات لاَ تَشمل بَعض الحَالات، فمَن يَعمل ولاَ يَكفيه عَمله لا يَدخل فيها، ومَن يَعمل ويَحصل عَلىٰ أجر مُناسب ولَكن عَرض له مَا جَعله مُفتقراً إلىٰ المَزِيد من المَال لاَ يدخل فيها، وكذَلكَ لاَ يدخل فيها الأَيتَام، ومَن لاَكَافل لهُم ولاَ يَستطيعُون العَمل لصِغر السّن أي لاَ تَعتبر الدَّولة نَفسها مَسؤولة عنهُم.

وإذَا رَجعنا إلىٰ عَهْد الإمَام لنُقارن بَينه وبَين النّتائج الّتي خَرجنا بـها؟ فمَاذَا نَجد؟.

نُلاَحظ أوّلاً: أنّ التّشريعَات الكَافلة للطّبقة العَاملة ومُطلق مَن لاَ يَستطيع العَمل للمَرض أو لكِبر السّن أو لصِغره ـ هذه التّشريعَات صَدرت من فَوق، من طَبقة الحَاكمين، ومَغزىٰ أنْ تكون التّشريعات الحَامية لطَبقة العُمّال قد صَدرت من فَوق من دون أنْ يحدث من هذه الطّبقة تَحسس يلجيء إلىٰ هَذا، كَبير القِيمة، فهو يدل عَلىٰ أنّ الإمَام كَان يُفكّر في هذه الطّبقة ويَعمل لخَيرها.

وثَانياً: إنّ ما تَدفعه الدَّولة إلىٰ هؤلاء لَيس إحساناً مِنها إلَيهم، وإنّما هو حقّ لهُم عَليها، يَجب أنْ تُؤديه. وعَهْد الإمَام صَريح في هذا كمَا سَترىٰ.

ومَغزىٰ هذه المُلاَحظة عَظيم، فعندمَا يأخذ المُعوز مَا يَأخذه عَلىٰ أنّه «إحسَان» يَشعر بالدُّونية، أمّا حِين يَأخذه عَلىٰ أنه «حقّ» فإنّه يَشعر بشيء من هذَا.

وثَالثاً: إنّ التّشريع الّذي سنّه الإسلاَم وذَكره الإمَام يَشمل كلّ حَالة عَجز، فمَن لاَ يَستطيعُون عملاً لمَرضٍ أو هَرم أو صِغر سنّ، أو يَعملون وَلكن أجرهُم لاَ يَكفيهم ـ هَؤلاء جَميعاً تَكفلهم الدَّولة، وتَعتبر نَفسها مَسؤولة عنهُم.

وعَهْدُ الإمَام صَريح في أنَّ عَلىٰ الحَاكم أنْ يُنشيء لهَذه الطّبقة دَائرة خَاصّة تَرعىٰ شُؤونها، فهُو يقول:

«فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ»[1].

وقَد جَرىٰ عليه‌السلام عَلىٰ هذا فيمَا نَقل ابن أبي الحَدِيد إذ قَالَ:

«وكَان لأَمِير المُؤمِنِين عليّ عليه‌السلام بَيْت سمّاه بَيت القَصص يُلقي النّاس فيهِ رُقَاعهم»[2].

وإذن، فبالرغم مَن سَبق عَهْد الإمَام عَلىٰ التّشريعات العُمّالية الحَديثة بأكثَر من ألف ومِئتي عَام نُلاحظ أنّه أوعىٰ لحَاجات هذه الطّبقة وأرعىٰ لشُؤونها، وأشمَل لطوَائفها من هذه التّشريعَات.

نَعم تَمتاز هذه التّشريعات بأنّها أكثَر تَفصيلاً من عَهْد الإمَام، وبأنّها تَشتمل عَلىٰ مُلاَحظات لَم تَرد في هذا العَهد، ولَكن ذَلكَ لاَ يَكسبها مِيزة حَقِيقيّة، فَالعِبرة بِرُوح التّشريع وبشمُوله، ولاَ شك، بعدمَا عَرفت، في أَنَّ عَهْد الإمَام أشمَل.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «الطّبقَة السُّفلىٰ».

(٢) أُنظر، شرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ١٧ / ٧٨.

قَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفلىٰ مِنَ الَّذِينَ لاٰ حِيلَةَ لَهُمْ، مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَىٰ[(١)] وَالزَّمْنَىٰ[(٢)]، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً[(٣)].

وَٱحْفَظِ للهِ مَا ٱسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَٱجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكِ، وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ[(٤)] صَوَافِي[(٥)] الْإِسْلاٰمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلأَقْصَىٰ[(٦)] مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَىٰ، وَكُلٌّ قَدِ ٱسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ[(٧)].

وَلاٰ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ[(٨)]، فَإِنَّكَ لاٰ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ لإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ. فَلاٰ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ[(٩)]، وَلاٰ تُصَعِّرْ[(١٠)] خَدَّكَ لَهُمْ،

---

(١) البُؤس: جمع بَائِس، الَّذِين يُعانُون من الفَقر الشَّدِيد.

(٢) الزَّمْنىٰ: جمع زَمين ـ والزَّمانَة العَاهَة.

(٣) القَانِع: السَّائِل ـ المُعْتَرّ: المُتعرض لأخذ العَطَاء دون سُؤال وَطَلب.

(٤) الغلات: المحاصيل الزراعية.

(٥) الصَّوافي: الأَرْض المَفتُوحة عنوَة (بالقوّة)، فإنّها مُلك لجَمِيع المُسلمِين، ويعُود رَيعها إلىٰ بَيت مَال المُسلمِين.

(٦) الأَقْصَىٰ: الأَبْعَد في القَرَابة أو في المكَان. والأَدنىٰ: الأَقرَب، أي أنّه لاَ فَرق في لزُوم الرّعَاية لهؤلاَء بَين القَرِيب والبَعِيد.

(٧) وَجَبت عَلَيك رعَاية حقه.

(٨) البَطَر: الطُّغيان بالنّعمَة.

(٩) لاَ تُشخِص همّك: لاَ تَصرف عنَايتك واُهتمَامك عن هَؤلاء الفُقرَاء.

(١٠) لاَ تَتكبّر عَلَيهم.

وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاٰ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِـمَّنْ تَـقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ[١]، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ؛ ثُمَّ اَعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ[٢]، فَإِنَّ هَؤُلاٰءِ مِـنْ بَـيْنِ الرَّعِـيَّةِ أَحْوَجُ إِلَىٰ الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَىٰ اللهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ. وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ[٣] مِمَّنْ لاٰ حِيلَةَ لَهُ، وَلاٰ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ.

وَذٰلِكَ عَلَىٰ الْوُلاٰةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ؛ وَقَـدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَىٰ أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ»[٤].

عَهْدُ الأَشْتَر

ونَستَطِيع أَنْ نتصَور عَظِيم اَهتمَامه عليه السلام بهذه الطّبقَة حِين نتأمّل قَوله: «ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفلىٰ مِنَ الَّذِينَ لاٰ حِيلَةَ لَهُمْ»، وَقَوله: «فَلاٰ تُشْخِصْ هَـمَّكَ عَنْهُمْ، وَلاٰ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ». يَأمر وَاليه بأنْ يَتواضع لهُم لئلّا يَشعروا بالذّل من جهَة، وليَضرب لأَغنياء رَعيته مثلاً من نَفسه في مُعاملته لهَذه الطّـبقة. وقَـوله: «فَإِنَّ هَؤُلاٰءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَىٰ الْإِنْصَافِ مِنْ غَـيْرِهِمْ». وأمَّـا قَـوله: «فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً»، وقَوله: «وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاٰ يَصِلُ إِلَـيْكَ

---

(١) تَقْتَحِمُه العُيُون: تَحتَقره، فلاَ تَنظُر إِلَيه.
(٢) ليَكُن عَملك بالنّسبة إِلىٰ هَؤلاء الفُقرَاء عُذراً لكَ عندَ الله تَعَالىٰ.
(٣) ذَوي الرِّقَّة في السِّنّ: الَّذين بَلغُوا مَرحلَة الشّيخُوخة.
(٤) أُنظر، نَهج البلاَغة: الرِّسَالَة: (٥٣) «الطَّبَقَة السُّفْلَىٰ».

مِنْهُمْ»، وقَوله: «وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لاَ حِيلَةَ لَهُ، وَلاَ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ»؛ فإنّها تَنطوي عَلىٰ مَضمُون عَظِيم القِيمَة، فهَؤلاء الَّذِين يَمنعهُم الحَياء وشَرف النّفس من إظهار فَقرهم ومن نَصب أنفسهم للمَسألة يَموتون جُوعاً إذا لَم يَبحث عنهُم الحَاكم ويَرعىٰ أُمورهم، ولذَلك أمرَ الإمَام وَاليه بأنْ يَتفقَد هَؤلاء وأمثَالهم، ويُوكّل بهم من يَتفقَدهم.

ولاَ أظنّ أنَّ حكُومة من الحكُومات الحَدِيثة بَلغ فِيها التَّشريع العُمّالي، والتَّأمِين الإجتماعيّ من النّضوج والوَعي للمَسؤوليَة الإجتمَاعيَّة إلىٰ حدٍّ أَنْ تُؤلّف هَيئة تَبحث عن ذَوي الحَاجة والفَاقة فتَرفع حَاجتهم بأموَال الدَّولة، كمَا نَرىٰ ذَلكَ في عَهْد الإمَام.

ولاَ أظنّ أنَّ قلُوب المُشرعِين وعقُولهم إجتَمعت عَلىٰ أَنْ تَخرج للدُّنيَا تَشريعاً عُمّالياً فَأفلَحت في أَنْ تخرجه أنبَض من تَشريع الإمَام بالشّعور الإنسَانيّ العَمِيق.

رَاجع عَهْد الأَشْتَر

المُجتَمَعُ القَبَليّ

مَوْقِفُ الإِمَامِ عليه السلام مِنَ الرُّوحِ القَبَلِيَّة

كنّا فيمَا نَتحدث عن آراء الإِمَام في المُجْتَمع بإِعتبار تَركيبه الدَّاخلي، أعني الطّبقات الإِجتمَاعيَّة.

والآنْ نُريد أَنْ نَتحدث عن رَأي الإِمَام في المُجْتَمع كوحدَة عامّة، فلاَ نَنظر إِلَيه من دَاخل كمَا صَنعنا في بحث الطّبقات، وإِنَّما نَنظر إِلَيه من خَارج بإِعتباره وحدَة إِنسانيَّة عامّة لاَ نَلحظ فيها الفُروق.

وكنّا نَتحدث عن آرَاء الإِمَام في إِصلاح المُجْتَمع عَلىٰ هَدي الإِسلاَم عن طَريق التَّأمين الإِقتصاديّ وإِصلاح جهَاز الحُكم، ونَتحدث الآنْ عن آراءه في إِصلاَح المُجْتَمع عن طَريق العوَامل النّفسية ذَات الأَثر في الجَمَاعة الإِنسانيَّة.

للإِجتمَاع الإِنسَانيّ مَظهرَان: مَظهَر حقيقي، ومَظهَر مُزيف.

أمّا المَظهر الحقيقي للإِجتمَاع الإِنسَانيّ فهو ذَلكَ الَّذي يَبدو النّاس فيه وقَد شَاعت بَينهُم الأُلفة، وجَمعتهم المَحبّة، وقَاربت ما بَينهُم وحدَة الوسَائل والغَايَات.

وهو ذَلكَ الَّذي يَعي فيه الأَفراد المَسؤولية، ويَشعرون أنّ القَانون الَّذي يَجب أنْ يَسود هو قَانون. حقّي ووَاجبي.

وهو الّذي يَعي فيه الأفراد أنّ الغَاية من الإجتماع الإنسَانيّ هي التّعاون عَلىٰ إيجاد الفُرص المُناسبة الّتي تُمكن كلّ فرد من إظهار قُدرته، وتَحقِيق ذَاته عَلىٰ نحو فعّال مُجد، ولَيس عَملاً يُراد منهُ إيجاد الفُرص المُناسبة لطَائفة من النّاس عَلىٰ حسَاب آخرين.

وأمّا المَظهر المُزيف للإجتماع الإنسَانيّ فهو ذَلكَ الّذي يَبدو فيه الأفراد «مُجْتَمِعِين» فحَسب، فلاَ تُوجد بَينهُم أُلفة، ولاَ تَلم شتَاتهم محبّة، ولاَ يَلتقُون عَلىٰ هَدف صَحيح.

وهو ذَلكَ الّذي يَسعىٰ فيه كلّ فرد أو كلّ جمَاعة إلىٰ إمتلاك كلّ مَا يَستطيع دون وعي لحَاجات الآخرين ودون اهتمام لمصَائرهم.

وهو ذَلكَ الّذي يَسود فيه قَانون الكَلمة الوَاحدة، قَانون: حقّي، فَقط. إنّ هذا الطّراز من الإجتماع أحقّ بأنْ يُسمّىٰ «تَجمعاً» ذِئبيّاً من أنْ يَسمىٰ إجتماعاً: إنْسَانيّاً.

هذَان مَظهران للإجتماعي الإنسَانيّ ويُحسن بنا أنْ نَلتمس الأسباب الّتي تَسوق إلىٰ هذا وذَاك.

* * *

رُوح العُدوان غَريزة أصِيلة في نَفس الإنسَان.

وإنّما كَانت أصِيلة فيه لأنّها ضَرورية لحيَاته، فلَولاها لمَا كان في الإنسَان مَا يُحفزه إلىٰ حمَاية نَفسه من كوَاسر السّباع، وفوَاتك الهوَام، ولمَا كَانت لهُ القُدرة عَلىٰ الصّيد، ولاَ عَلىٰ أي عَمل يَتطلب صرَاعاً مع كَائن حي آخر في سَبيل حفظ الحيَاة.

وأوقَات الحَاجة إلىٰ هذه الغَريزة هي حِين تَتعرض الحيَاة الإنسانيّة لخَطر فَاتك سواء كان من الإنسَان أو الحَيوَان.

ولَيس في النّفس الإنسانيّة جهَاز يُولّد هذه الغَريزة في أوقَات الخَطر ويَعدمها في أوقَات الأَمان. ولذَا فَإنّ هذه الغَريزة مَوجُودة في جَميع الأَوقات.

وهي في أوقَات الخَطر تَعمل عَملها الّذي يَسّرت لهُ وأودَعت في الإنسَان لأَجله. وأمّا في أوقَات الأَمان فَإنّ وجُودها يُصبح مُشكلة خَطيرة قد تَمتد بآثَارها إلىٰ الآخرين من أفرَاد وجمَاعات.

ففي المُجتمعات الّتي تُدين بحضَارة لاَ تَجعل للإنسان هَدفاً سامياً في الحيَاة، ولاَ تعلمه إلاّ أَنْ يُبالغ في إرواء شهوَاته ونَزعاته، تُعبّر هذه الغَريزة عن نَفسها في عُدوان بعض الأَفراد عَلىٰ بعض أو عُدوان بعض الجَماعات عَلىٰ بَعض، لأَنّها ـ كغَريزة ـ لاَ بُدّ لها من التَّعبير عن نَفسها، وحَيث لاَ تُقدم لهَا الحضَارة موضُوعاً للتَّعبير يَصرفها ويُحولها عن الأَفراد، لاَ بُدّ أَنْ تُعبر عن نَفسها في هَؤلاء الأَفراد، وحِينئذٍ يَنقلب المُجتَمع الإنسَانيّ إلىٰ مُجتمع ذِئبي تنَاحري، ذي غرَائز عُدوانية ضَارية، تُعبّر عن نَفسها بإستمرَار.

هَذه هي الأَسباب الّتي تَذهب برُوح الإجتماع الإنسَانيّ وتَسبغ عليه مَظهراً إجتمَاعياً مُزيّفاً.

وجَاء الإسلاَم والمُجتَمع الإنسَانيّ كلّه في وَاقع تَعس نَشأ من أَنّ الحضَارات الّتي كان يُدين بها كَانت في الغَالب حضَارات لاَ تَتجاوز بالإنسان مَدىٰ الحسّ.

وكَان المُجْتمع العَربي يُعاني الأَزمة في أحد مظَاهرها، فقد كان يَقوم إلىٰ جَانب ما يُعانيه من جَدب روحي عَلىٰ أسَاس قَبلي. وكان هذَان العَاملاَن:

الجَذب الرّوحي والرّوح القَبلية يُثيران غَريزة العُدوان أعتىٰ وأضرىٰ ما تكُون.

وقَد عَالج الإسلاَم هذه المُشكلة.

أوّلاً، بأنْ حَارب عَناصر الفَساد والإنحلال في الإرث الثّقافي المُهلهل الّذي دَعت إلَيه تلك الحضَارات، وجَاء بثقَافة جَديدة حرّية بأنْ تُعيد تَكوين الإنسَان الرّوحي من جَديد، وجَعل للحيَاة الإنسانيَّة هَدفاً أعلىٰ من إرواء الحسّ باللّذة، جَعل لها الفَضيلة هدفاً، وأمر الإنسَان بالمَسير إلَيه.

وثَانياً، بأنْ وجّه غَريزة المُقاتلة إلىٰ مَوضُوعين؛ أحدهُما أعدَاء الإسلاَم الَّذِين يَكيدون له، ويَبغون عَليه، ويُريدون إطفاء نُور الله فيه. وَالثّاني هو الشّيطان، هَذا الكَائن الَّذي هو أعدىٰ أعدَاء الإنسَان: يُزين له الظّلال، ويُحبب إلَيه الإنحرَاف، ويَدفعه عن طَريق الإغواء والإغراء إلىٰ تَشويه شَخصية الإنسانيَّة وتَلويثها.

وقَد أكّد الإسلاَم عدَاوة الشّيطان للإنسان تأكيداً مُطلقاً، وأكّد وجُوب الإحتراز منه، والحَذر من مكَائده، والتّحصن من شبَاكه، تَأكيداً مُطلقاً وبذلك وجّه غَريزة القتَال والعُدوان إلىٰ مَوضُوع يَستفيد منهُ المُجْتَمع أعظَم الفَائدة. فالإنسان، مُنذ اليوم، يُكافح الشّيطان من أجل أنْ يَسمو... من أجل أنْ يُحقق الإنسَان.

وقَد أحرَز النّبيّ ﷺ نَصراً بَاهراً حِين ٱستطاع، عن طَريق الإسلاَم، أنْ يَجمع العَرب عَلىٰ عَقيدة تُوحد بَينهُم في الوسَائل والغَايات، وأنْ يكون من الشّراذم العَربية أُمّة عَربية. ولَكن الظّرف الزّماني لَم يُسعفه عَلىٰ إستئصال الرّوح القَبلية من نَفس العَربي، فمَا أنْ قَبضه الله إلَيه حتّىٰ حَدث ما بَعث هَذه الرّوح من جَديد... حتّىٰ وليَ الخلاَفة عُثمَان فعبّرت عن نَفسها بسَبب سيَاسات مُعينة تَعبيرات شَديدة، فلمّا وليَ الإمَام الحُكم جُوبه بهذا الوَاقع، وَاقع المُجْتَمع العَربي المُسلم

الّذي سَاقته الرّوح القَبلية إِلىٰ مَصير وَبيل. فنَصب نَفسه لمُحاربة هَذه الرّوح.

* * *

وقَد كانت طَريقته في العلاَج فذّة رَائعة، سَنقف في فصلٍ آتٍ عَلىٰ جَانب منها يَتناول التَّثقيف الفَردي، وتَعليم أصحَابه رُوح الإسلاَم أمّـا هُـنا فـنَتحدث عـن كفَاحه للرّوح القَبلية بِإعتبارها نَزعة هدّامة.

ولاَ بُدّ أنّهعليه السلام تكلَّم كَثيراً في هذا المَوضُوع، لأَنَّ وَاقعه كان يَدعوه إِلىٰ ذَلكَ، ولئَن لم يَصل إِلينا كلّ ما قَالَ أو أكثَره فَإِنّ مَا في نَهج البَلاَغة يُغني في مقَام التَّعرف عَلىٰ آرَاءه في هَذه المسألَة، وثمّة خُطبة من طوَال خُطبه خصّصها لمُحاربة هذه النّزعة في مُجتمعه، وقد ذَكر الشّريف مُختاراً مِنها، ونحنُ ذَاكـرون طَـرفاً مـمّا أختار نَستَشهد بِهِ عَلىٰ أَنَّ الإِمَام كَان يعي العَمليات الإِجتمَاعيَّة، وكَان يَعي مَـا ورَاء هذه العَمليات من دوَافع نَفسية تَحمل عَليها وتَدفع إِلَيها.

* * *

تَكرّر ذِكر الشّيطان في نَهج البَلاَغة كَثيراً:

١ ـ قصّة آدمعليه السلام وإِغراء الشّيطان لهُ.

٢ ـ الشّيطان أخطَر عدوّ للإِنسَان، يُزين لهُ المَعصية، ويَحمله عَلىٰ تَسـويف التّوبة، ويَدفعه إِلىٰ مُقارفة الإِثم، حتّىٰ إِذَا حقّ الحقّ تَبرأ منهُ وتَركه بَـين يـدي عذَاب غَليظ.

٣ ـ من جُملة مهَام الأَنبياء الكُبرىٰ أنْ يَحذروا النّاس من إِغواء الشّيطان.

وقد كَان الإِمَام يَهدف من كلّ ذَلكَ إِلىٰ تَأكيد عدَاوة الشّـيطان فـي النّـفوس

لتنصرف إلَيه غَريزة العُدوان.

وأعظَم خُطبة تَضمنت ذلكَ، وتَجلىٰ فيها غَرض الإمَام الإجتماعيّ هي خُطبته المُسمّاه «القَاصعَة»[١].

ففِيها: صرّح الإمَام بأنّ الإجتماع الإنساني الحـقّ لاَ يُـمكن أنْ يَـجتمع مـع النّزعة القَبلية.

وَففِيها: يُصرّح بأنّ النّزعة القَبلية إنْ هي إلاّ إرث شـيطَاني يُـزينه الشّـيطان لأَوليَائه.

وَففِيها: يُبين أنَّ الشّيطان أحقّ بالمُحاربة من هَؤلاء الضّعفاء الَّذِين يَقع عَليهم الظّلم ويُلحقهم الحَيف بسَبب النّزعة القَبلية.

وَففِيها: يَضرب الأَمثال الَّتي تَشهد لدعَاواه والَّتي تَدل عَلىٰ أنَّ النّزعة القَبلية، بمَا لهَا من آثار سَيئة، هي الَّتي مَحقت المُجتمعات القَديمة.

قَالَ عليه السلام:

«الْـحَمْدُ للهِ الَّـذِي لَـبِسَ الْـعِزَّ وَالْكِـبْرِيَاءَ، وَاْخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَاْصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَىٰ مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ.

ثُـمَّ اْخْـتَبَرَ بِـذَلِكَ مَـلَائِكَتَهُ الْـمُقَرَّبِينَ، لِـيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُـوَ الْـعَالِمُ بِـمُضْمَرَاتِ الْـقُلُوبِ، وَمَـحْجُوبَاتِ

---

(١) تقدّم ذلك.

الْغُيُوبِ: ﴿إِنِّى خَـٰلِقُم بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[1]. اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَىٰ آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ»[2].

وبعد أنْ بيّن أنَّ الله ابتلىٰ خلقه بهذا لينفي عنهم التّكبُّر والخُيلاء، وبعد أنْ أمرهُم أنْ يعتبروا بما صار إليه إبليس حِين تكبّر، قالَ عليه السلام:

«فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ[3]. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ[4]، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ[5]، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[6]، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ،

(١) سُورَة ص: ٧١ ـ ٧٤.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٩٢) «مَا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِن خَلْقِهِ هَوَادَةٌ وصَدَاقَة».

(٣) أجْلَب بخَيْله، يَعني استعَان بفُرسَانه. وأجْلَب برَجِله، يَعني استعَان بمُشاته.

(٤) فَوق السّهم: أعدّه للرّمي.

(٥) أغرَق بالنّزع: شدّ وتَر قَوسه إلىٰ أقصَاه ليُصيب الهَدف إصَابة مُهلكة.

(٦) الحِجْر: ٣٩.

وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّىٰ إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ[١]، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَىٰ الْأَمْرِ الْجَلِيِّ[٢]، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ[٣] بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ[٤]، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَئُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ[٥]، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَىٰ النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ. فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَأَوْرَىٰ[٦] فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَاجْعَلُوا

(١) الجَامحَة: من جَمح الفَرس، إذَا فرّ وشَرد، يُريد الإمَام بذَلك من عصَاه من أصحَابه الَّذين تَأثروا بالرُّوح القَبليَة.

(٢) نَجم: ظَهَر، يُريد أنَّ العَصبية القَبلية كَانت في أوّل الأمر مُجرد فِكرة، ولكنّها بعد أنْ أثر الشيطان أثره، تَحولت العَصبية من مُجرد فِكرة خَفية إلىٰ حَقيقية خَارجية ظَاهرة جَلية.

(٣) دَلَف: تَقدَّم.

(٤) ولَجَات: مُفرَده: وَلجَة، المَأوىٰ في الطَّريق، يَلجأ إلَيه النَّاس.

(٥) أوطَأ: أركَب، (أثخَان الجِرَاحة) يُقال: أُثخن في العدوّ: أي أوقع فيهِ إصَابات شَديدَة، فيكُون مَعنىٰ قَوله عليه السلام: (أَوْطَئُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ) أنّهم أشعلُوا نَار الفِتنة بَينكُم، فَفَتك بَعضكُم بالبَعض الآخر فتكاً شَديدَاً.

(٦) أوْرَىٰ النَّار: جَعلهَا تَشتَعل بشدّة وقوّة.

عَلَيْهِ حدَّكُمْ، وَلَهُ جِدَّكُمْ[١]، فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ. لاَ تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلاَ تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلاَءٍ. فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ[٢] وَنَفَثَاتِهِ[٣]. وَٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَىٰ رُءُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَٱتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً[٤] بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَ أَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً، وَلاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَىٰ مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ

---

(١) الحَدّ: هُنا الغَضَب. وَالجِدُّ هُنا القَطع. يُريد: صُبُّوا عَليه غَضبكم، وأَقطعوا الصّلة بَينكم وَبَينه.

(٢) النّزغ: الإِفْساد.

(٣) النّفث: النّفخ. كَأنّ الشّيطان يَنفخ الشّر والفَساد في عقُول النّاس وقُلوبهم.

(٤) المَسْلَحة: مكَان تَجمع الجُنود المُسلِمين عَلىٰ الحدُود لدَفع العدوّ. يُريد: أجعلوا التّواضع سلاَحكم في حدّ إِبليس الّذي يَدعوكُم إِلىٰ التّكبّر.

الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[١].

ثُمّ يَضرب لهُم الشّواهد، ويُبصّرهم عِبَر التّأريخ.

فهَذا الوَاقع الإجتماعيّ المُزري جرَّ أُمماً قَبلهم إِلىٰ الإنهيار، وجَدير بهم أَنْ يَعتبروا بمن قَبلهم ممّن غَفلوا عن عدّوهم الكَامن في أعمَاقهم، وصَرفوا ـ بإغرَائه وإيحائه ـ عدوّانهم إلىٰ إخوانهم في الدّين والإنسانيّة:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَ صَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ[٢]، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ[٣]، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ[٤]، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ[٥]»[٦].

«احْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٩٢) «فِي كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودٌ لإبْلِيس».

(٢) المَثُلاَت: العُقوبَات الشّديدة.

(٣) المَثوىٰ: المَنزل ـ مثَاوي الخدُود: مَوضع الخَد عَلىٰ التُّراب بَعد المَوت. كنَاية عن أَنَّ المَصير الأخير هو المَوت، فلمَاذا الأحقَاد والصّراعَات. وهذا المَعنىٰ هو المُراد من الفقرة التّاليه (وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ).

(٤) لوَاقح: من اللّقاح، وَمَعناه مَعروف. أي أَنَّ الكِبْر يُلْقح النّفس بالشّرّ فاستَعيذوا بالله من ذَلكَ.

(٥) طَوَارِق الدّهر: مَصَائبه.

(٦) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة: (١٩٢) «لاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ».

وَالشَّرَّ أَحْوَالَهُمْ، وَٱحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ»[١].

«فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَٱلْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنُهُمْ، وَزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَٱنْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الاِجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا، وَٱجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ[٢]، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ[٣]، مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، ! وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الأَيْدِي»[٤].

ثُمّ يَضرب لهُم الأَمثَال بحَال بني إِسرَائيل كَيف جَمعتهُم الدّعوة الوَاحدة، ولمّ شَعثهم الهَوىٰ الجَميع، فعَظم أمرهُم، ثُمّ ٱختلفوا فَذهب رِيحهم ووهنوا وذُلّوا.

وضَرب لهُم الأمثَال بحَال العَرب قَبل الإِسلاَم كَيف كَانوا، ثُمّ كَيف ٱتّحدوا بالإِسلام فأصبحوا يُطاعون في بلاَد كانوا فِيها أَذلّة ضُعفاء.

ثُمّ ذَكر أَنَّ أعظَم ما ٱمتنّ الله به عَليهم هو أنّه جَمعهُم، وألّف بَين قلُوبهم، وجَعلهم إِخوَاناً، قَالَ عليه السلام:

«فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ ٱمْتَنَّ عَلَىٰ جَمَاعَةِ هَذِهِ

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٩٢) «الْعِبَادَةُ رِيَاضَةٌ نَفْسِيَّةٌ».

(٢) كَسَر فِقْرَتهُم: كَسَر ظهُورهم لأَنَّ الفقَار في ظَهر الإِنسَان يقُوم عليها كيَانه فَإِذا كَسرت عَجز عن الوقُوف والعَمل.

(٣) أَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ: أضعَف قوّتهم.

(٤) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٩٢) «الأَذَىٰ فِي سَبِيلِ ٱلحَقّ».

الأُمَّةِ فِيما عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَـذِهِ الأُلْـفَةِ الَّـتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَـىٰ كَـنَفِهَا، بِـنِعْمَةٍ لاٰ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ»[(١)].

* * *

ورُؤساء القَبَائل هُم أصحَاب المَصلحة في ٱستِشْراء العَصبية القَبلية والتّفكك الإِجتماعيّ، فلو وعىٰ النّاس الحيَاة الإِجتمَاعيَّة الصّـحيحة ورَاعـوا المَـصلحة العامّة وحدها، لمَا بَقيت لهؤلاء الرّؤساء قِيمة، لأَنَّ وجودهُم مَنوط بهذه العَصبية.

وقَد عَرَف الإِمَام عليه السلام ذَلكَ، فوجّه إلَيهم صَفعة مُدوية حِين صَرخ بالنّاس:

«أَلاٰ فَـالْحَذَرَ الْـحَذَرَ مِـنْ طَـاعَةِ سَـادَاتِكُـمْ وَكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَـنْ حَسَـبِهِمْ، وَتَـرَفَّعُوا فَـوْقَ نَسَـبِهِمْ، وَأَلْـقَوُا الْـهَجِينَةَ[(٢)] عَـلَىٰ رَبِّـهِمْ، وَجَاحَدُوا اللهَ عَلَىٰ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَـابَرَةً لِـقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِآلاٰئِهِ[(٣)]. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِـدُ أَسَـاسِ الْـعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ ٱعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ[(٤)]. فَٱتَّقُوا اللهَ وَلاٰ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَـلَيْكُمْ أَضْـدَاداً، وَلاٰ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٩٢) «النِّعمَة بِرَسُولِ الله».

(٢) الْهَجِينَة: الفِعْلة القَبيحَة.

(٣) آلآء الله: نِعَمه وإِحسَانه.

(٤) الإِعتزَاء: الإِنتسَاب، إِعتزَاء الجَاهليّة: العَادات الجَاهلية في المُفاخرة بالسُّلالة والنّسب.

لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً. وَلاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ(١) الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَحْلاَسُ الْعُقُوقِ(٢). اَتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ، اَسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ. فَجَعَلَكُمْ مَرْمَىٰ نَبْلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ»(٣).

وعَلىٰ هَذا النّسق العَالي من البَيان الشّامخ يَمضي الإمَام صلوات الله عَليه في بيَان أمراض المُجتَمع. ويَكشف عن أسبَابها النّفسية، ويُبرهن بذلك عَلىٰ وعي خَارق للعَمليات الإجتمَاعيَّة وأسبَاب إنحرافها، وطُرق إصلاحها.

ونَنصح بالرجُوع إلىٰ الخُطْبَة القَاصعَة وقرَاءتها بإمعان، فَقد لاَ يُعطي مَا قَدّمناه فِكرة تامّة عن جَميع الأَفكار الَّتي تَحتَويها.

---

(١) الدّعي هو الَّذي يَنْتسب إلىٰ غَير أصْله. يُريد هُنا أنّ رُؤساء القَبَائل أدعيَاء عَلىٰ أهل الخَير وأَهل الصّلاح، وهُم في الحَقِيقة أشرَار.

(٢) الحِلس كسَاء يَكون عَلىٰ ظَهر البَعير مُلازم لهُ. وأُستُعير للتّعبير عن كلّ ملاَزم لشيء. فيُقال حِلس بالمكَان: لَزمه: وحِلس بفُلان: لم يُفارقه. ويُريد الإمَام هُنا أنّ هَؤلاء الزّعماء مُلازمون للعقُوق، عُقوق الله وعقُوق إمَامهم.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (١٩٢) «لاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ».

الحَاكِم

صفَاته

حقُوقه

وَاجبَاته

طَبيعَة الحَاكِم

الحُكْمُ ضَرُورَة لِكلّ مُجتَمَع

هَل الإِمَامَة أمرٌ مُحتم، فلاَ يَجوز أَنْ يَمضي عَلىٰ المُسلِمين وقت دون إِمَام يَسير بهم عَلىٰ كتَاب الله وسُنَّة الرّسول؟ أَم أنَّها أمرٌ جَائز ولَيس فرضَاً، فَإِذا شَاء المُسلمُون أقاموا إِمَاماً، وإِذَا لم يُريدوا فلَيس في الشّريعَة ما يُلزمهم بذَلك، بل الأَمر في ذَلكَ منُوط بهم ومُوكل إِلَيهم؟.

اختلفت الفرق الإِسلاميَّة بَين هَذين المَبدأين، فذَهبت الكَثرَة العُظمىٰ من المُسلِمين إِلىٰ أَنَّ الإِمَامَة أمرٌ مُحتم، فهو مَذهب أهل السُّنَّة جَميعَاً، ومَذهب الشّيعَة جَميعاً، ومَذهب الكَثرة الغَالبة من المُعتزلة والكَثرة الغَالبة من الخوَارج. أمّا الجوَاز فَقد ذَهب إِلَيه (الهِشَاميَّة) من المُعتزلة أصحَاب هِشَام بن عمرو الفُوطي، فهم يقُولون: (يَجوز عَقدها في أيّام الإِتّفاق والسّلامة أمّا في أيّام الفِتنة فلاَ)[1] وهُو كذَلكَ مَذهب (المُحكّمة الأُولىٰ من الخوَارج) فإِنّهم أجَازوا ألاَّ يكُون في العَالم إِمَام أصلاً...

---

(١) شَرح تَجريد الإِعتقَاد للحليّ: ٣٠٣، شَرح الأُصُول الخَمسَة: ٥٢١، شَرح المَقَاصد: ٥/ ٢٤٠، المِلل والنّحل: ١/ ١٠٢ و ٥٣ و ٥٧، تَفسِير الرّازيّ: ١/ ١٤٤ هَذه المصادر ذُكرت علىٰ سَبيل المثَال لاَ الحَصر.

وكذلكَ (النّجدات)... و(العَجَاردة) من الخوَارج أيضاً[١].

وإذن فالمُسلمُون جَميعاً مُجمعون عَلىٰ وجُوب نَصب الحَاكم، ومن رَأيت خلاَفه فهو شَاذ لا يُعتنىٰ به، وتَشهد للوجُوب النّصوص الكَثيرة الصّريحة فيه.

وبَعد، فلو لَم تكن ثمّة نصُوص تَقضي بوجُوبه لكفىٰ العَقل في الإلزام به، فالحُكم من ضرورات الإجتماع، لأَنَّ النّشاط الإنسَانيّ ـ وقَد تشَابك بفِعل الحيَاة الإجتمَاعيَّة ـ لاَ بُدّ لهُ من هَيئة تَشرف عَليه وتُنظمه، وتَشق له القَنوات، وتُوجهه الوجهة الصّحيحة المُستقيمة، وبدُون هذه الهَيئة يَتسيب هذا النّشاط فيَطغىٰ لون منهُ عَلىٰ لَون، ويتّجه إتّجاهات غير مَحمُودة تَؤول به في النّهاية إلىٰ الضّمور، ومن ثمَّ تَنتهي بالمُجتمع إلىٰ الإنحلال.

والحكُومة في الأصل مُؤسسة إجتمَاعيَّة، لأَنَّ طَبيعة الإجتماع تَقتضيها كمَا رَأينا، ولكنّها في الإسلاَم، تتّخذ بالإضافة إلىٰ صِفتها الإجتمَاعيَّة، طَابعاً دِينياً أيضاً وذَلكَ لأَنَّ المُجْتَمع الإسلاميّ مُجتمع ديني في الدّرجة الأُولىٰ، أي أَنّ الّذي يُستَلهم في التّنظيم: الإقتصاديّ والسّياسيّ والعَسكريّ هو الدِّين وحدَه.

وهَا هو الإمَام عليه السلام يُقرّر هذه الحَقيقة، رَاداً عَلىٰ الخوَارج يوم نَادوا (لاَ حُكم إلاَّ لله)[٢] قَائلاً:

---

(١) رَاجع كتَابنا: نظَام الحُكم والإدارة في الإسلاَم: ٧٠ ـ ٧١.

(٢) الحَرُوريَّة: جَمَاعة من الخوَارج، والنّواصب، والنّسبة لبَلد قُرب الكُوفَة عَلىٰ ميلين منهَا تُسمّىٰ حَروراء، نزل بها هؤلاء بعد خروجهم عَلىٰ أمير المُؤمنِين عليه السلام حينما قَبل بالتّحكيم بَينه، وبَينَ مُعَاويَة، قيل لَهُم حينذاك: أنتم الحَرُوريَّة لإجتماعكم بحَروراء وَقَالَ: شَاعرهم:

إذَا الحَرُوريَّة الحرىٰ رَكبُوا ... لاَ يَستَطِيع لَهُم أمثَالك الطّلبا

«قَالَ عليه السلام: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ـ نَعَمْ إِنَّهُ لاٰ حُكْمَ إِلاّٰ للهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلاٰءِ يَقُولُونَ: لاٰ إِمْرَةَ إِلاّٰ للهِ، وَإِنَّهُ لاٰ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ، أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ»[1].

فقوله عليه السلام: (إِنَّهُ لاٰ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ، أَوْ فَاجِرٍ) تقرير لهذه الضّرورة، الّتي يَفرضها وَاقع الإجتماع الإِنسَانيّ، ولاَ معدىٰ عَنها بحَال من الأَحوال، ولئن كَانت إمرة الإِمَام الفَاجر ـ حين لاَ يُوجد العَادل ـ شرّاً ـ، فهي عَلىٰ ما فيها من شرّ خَير من الفُوضىٰ الّتي تُمزق أواصر الإِجتماع.

↔ وَسُموا أيضاً بالخَوَارج، والمحكّمة، وَالسّبب الّذي سُمّوا خوارج هُو خرُوجهم عَلَىٰ أَمِير المُؤمِنين عليه السلام، والسّبب الّذي سُمّوا محكّمة هُو إنكَارهم الحَكمين: وقَولهم لاَ حُكم إلّا لله... وأنظر أيضاً فِرق الشّيعَة للنّوبختي: ٦ دَار الأَضوَاء الطّبعة الثّانِية.

وَقِيل: هُم الغُلاة في إثبَات الوَعِيد، والخَوف عَلىٰ المُؤمِنين، والتّخليد في النّار مع وجود الإِيمَان، وَهُم قَوم مِن النّواصب الخَوَارج، ومن مفرداتهم أنَّ مَن أرتكب كَبِيرَة فَهُوَ مُشرك، ومَذهَب عامة الخَوَارج أنّه كافر، ولَيسَ بمشرك، فقَالَ بَعضهم: هُو مُنافق في الدّرك الأَسفل من النّار. وقيل لَهُم الحَرُوريّة لأنّهم خرَجُوا إلىٰ حَروراء لقتال عَليّ بن أبِي طَالِب عليه السلام وحَروراء: قريَة بظاهر الكُوفَة، نزل بها الخَوَارج الّذين خالفوا عَليّ بن أَبِي طَالِب عليه السلام وكَانَ بها أوّل تحكيمهم وإجتماعهم حِين خالفوا عَلَيه.... أُنظر، المعَارف لابن قُتيبَة: ٢٧٤، الخُطَط للمقريزي: ٢ / ٣٥٠، مُعجم الفِرق الإِسلاَميّة لشريف الأَمِين: ٩٤، مقالاَت الإِسلاَميِّين للأَشعَري: ١٢٧ ـ ١٢٨، مُعجم البُلدان: ٣ / ٢٥٦.

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٤٠) «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ».

وغَير خفي أنّ الإمَام لَم يَقصد فـي كَـلمته الآنـفة إلىٰ بَـيان طَـبيعة الحُكـم الإسلاميّ، وإنّما قَصد فيها إلىٰ بَيان ضَرورة الحُكم في قِـبال دعـوىٰ الخـوَارج الفُوضويِّين.

مِنْ شُرُوط الحَاكِم

وإِذَا كَانت الإِمَامَة أمراً لاَزماً فهل يَصح أَنْ يَتولاها كلّ مَن قَدر عَلىٰ بـلُوغها دون نَظر إِلىٰ صفَاته الشّخصية وكفَاءاته أم أَنَّ مَن يَصح لهُ أَنْ يَلي مَنصب الإِمَامَة يَجب أَنْ تتوفر فيهِ شُروط خاصّة يَمتاز بها عن غَيره من النّاس ؟.

المُسلمُون عَلىٰ آتّفاق فيما بَينهُم على أَنَّ مَنصب الإِمَامَة لاَ يَليه إِلاَّ مَن تَوفرت فيهِ شُروط مُميزة، وآختلفوا في أُمور أُخرىٰ فَذهب بعض إِلىٰ آشتراطها وذَهب آخرون إِلىٰ عَدمه.

وَلَسنا هُنا في مقَام آستعراض شُروط الإِمَام الحَـاكـم عـندَ مُـختلف الفـرق الإِسلاميَّة. وقد عَالجنا هذا المَوضوع علاَجاً وَافـياً فـي كـتَابنا (نـظَام الحُكـم والإِدارة في الإِسلاَم).

فَإِذا رَجعنا إِلىٰ نَهج البَلاَغة لَم نَجد فيه تَفصيلاً دَقيقاً لِهَذه الشّروط، فَلَيس فِيما بَين أَيدِينا من كلاَم أَمِير المُؤمِنِين عليه السلام قِسم مُستقل تَعرّض فيه لبَيَانها وإِنَّما ذَكـر مِنها، في عَرض كلاَمه، طَائفَة وأهمل طَائفَة.

فاشْتَرط في الإِمَام أَنْ يكُون كَريم النّفس لئلّا تَدفعه الطّماعيَّة وشدّة الحِرص إِلىٰ العُدوان عَلىٰ أموَال المُسلِمِين.

وَآشْتَرط فيه أَنْ يكُون عَالماً لأَنّه قَائد المُسلِمِين الأَعلىٰ فيَجب أَنْ يَهديهم ولَو

كَان جاهلاً لأَضلَّهم.

وَٱشْتَرط فيه أَنْ يكُون لَين العَريكة، رَحب الصّدر.

وَٱشْتَرط فيه أَنْ يكُون عَادلاً في إِعطاء الأَموال فيسوّي بين النّاس في العَطاء ولاَ يُفضل قَوماً عَلىٰ حسَاب آخرين إِستجابة لشَهوات نَفسه وميُول قَلبه.

وَٱشْتَرط فيه أَنْ يكُون نَزيهاً في القَضاء فلاَ يَرتشي لأَنَّ ذَلكَ مُـؤذن بـذهَاب العَدل في الأَحكَام.

وَٱشْتَرط فيه أَنْ يكُون عَاملاً بالسُّنَّة فيَجري الحدُود ولو عَلىٰ أَقرَب النّـاس إِلَيه، ويُعطي الحقّ من نَفسه كمَا يَطلبه من غَيره.

قَالَ عليه السلام:

«أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْـقُلُوبُ الْـمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُـمْ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُـفُورَ الْـمِعْزَىٰ مِـنْ وَعْوَعَةِ الأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ ٱعْوِجَاجَ الْحَقِّ. أَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلاَ ٱلْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِيـنِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلَاحَ فِي بِلاَدِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. أَللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْـبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللهِ عليه الصَّلاَةِ.

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَىٰ الْفُرُوجِ، وَالدِّمَاءِ، وَالْمَغَانِمِ، وَالأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ[١]، وَلاَ الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلاَ الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ[٢]، وَلاَ الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ[٣]، وَلاَ الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ»[٤].

وَقَالَ عليه السلام:

«لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ[٥]، وَلَا يُضَارِعُ[٦]، وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ»[٧].

وقَالَ مُتحدثاً عن الإِمَام عليه السلام:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ

---

(١) نَهمَتُه: الإِفرَاط في الشَّهوَة.

(٢) الحَائِف للدّول ـ الحَائف: الظَّالم، والحَيف: الظّلم، والدّول: المَال لأنّه يَتداول أي يَنتقل من يَد إِلىٰ يَد. مُرَاده: الإِنسَان الظَّالم في تَقسيم الأَموال فيُفضل قَوماً علىٰ قَوم بغَير مُوجب للتَفضيل.

(٣) المَقَاطِع: حُدُود الله.

(٤) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة: (١٣١) «مَتَىٰ يَأمَن المَظلُوم».

(٥) يُصَانع: يُدَاري، أي أَنَّ الَّذي يُقيم أمر الله هو الَّذي لاَ يُدَاري أحداً في إِحقاق الحقّ.

(٦) يُضَارع: المُضَارعَة المُشَابهَة، أي لاَ يَتَشبه في عَمَله بالمُبطلِين.

(٧) نَهج البَلاَغة، بَاب المُختَار من كلاَم أَمِير المُؤمِنين عليه السلام، رَقم النَص: ١٠٩.

بِلِسَانِهِ؛ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»[١].

وهَذه الكَلمات تقُوم عَلىٰ فَلسفة للحُكم عند الإمَام عليه السلام تَتلخص في أَنَّ الحُكم، وهو ضَرورة إجتمَاعيَّة، أُقيم لصَالح المُجْتَمع، ولاَ يُمكن أَنْ يَعمل الحُكم لصَالح المُجْتَمع إلاَّ إذَا كَان عَلىٰ رَأسه إنسَان كَامل الصِّفات، وَاع لمُهمّته، أمّا حِين يكُون الحَاكم إنسَاناً غَير وَاع للمَسؤولية وغَير عَامل عَلىٰ إصلاح المُجْتَمع ورَفع شَأنه، فإنّ الحُكم يَنقلب إلىٰ وسيلَة للظُّلم، وسَتتّضح لنَا الخطُوط الكُبرىٰ لهَذه الفَلسفَة فيمَا يَأتي.

(١) نَهج البَلاَغة، بَاب المُختار من كلاَم أَمِير المُؤمِنِين عليه السلام، رَقم النّص: ٧١.

طَبيْعَة الحُكْمِ عِنَد الإِمَام عليه السلام
وَعلاَقَةُ الحَاكِم بالشَّعْب

حقُوق الرّعيَة عَلىٰ الحَاكم تَستمد مَعناها من طَبيعة الحُكم الَّذي يُمارسه الحَاكم.

فهُناك حُكم يقوم لأَجل عَائلة من العَائلات الكَبيرَة وحِينئذٍ يَعمل الحَاكم لأَجل هذه العَائلة، ويُسخّر جَميع مرَافق الدَّولة لهَا ولمَن يَقوم عَليه سُلطانها.

وهُناك حُكم يقوم لصَالح طَبقة من الطّبقات وحِينئذٍ يَعمل الحَاكم لأَجل هَذه الطّبقَة، ولاَ ينيل الرّعية شَيئاً إلاّ إذَا كَان فيه ما يعُود بالخَير عَلىٰ هَاتيك الطّبقة الَّتي يقُوم من أجلهَا الحُكم.

ومرّة يقوم الحُكم من أجل الرّعية وحدَها، وحِينئذٍ يَعمل الحَاكم للرّعية وحدَها.

وفي هذا اللَّون من الحُكم تُوجد للرّعية عَلىٰ الحَاكم حقُوق يَصحّ أَنْ نَتحدث عَنها.

فأي لَون من ألوان الحُكم بشرّ به نَهج البَلاَغة، ووَضع قوَاعده الإِمَام؟.

إِذَا رَجعنا إلىٰ نَهج البَلاَغة وجَدنا أنّ الحُكم الَّذي كَان يُمارسه الإِمَام عليه السلام والَّذي كَان يَحمل عُمّاله عَلىٰ أَنْ يُمارسوه هو هذَا الحُكم الَّذي يقوم من أجل الرّعية وحدهَا.

وقَد تقدَّم منّا في حَديثنا عن المُجْتَمع والطّبقات الإِجتمَاعيَّة في نَهج البَلاَغة

أنْ عرضنَا إلىٰ طَرف من ذلك، فرَأينا كَيف أنَّ الإمَام في عَهده العَظيم إلىٰ مَالك الأشتَر قَد وضع الأُسس المَتينة لإنشَاء جهَاز حُكم يَعمل للشّعب وللشّعب فَقط، غَير مَلتٍ بالاً إلىٰ منَافع طَبقة خاصّة تَسعد عَلىٰ حسَاب الشّعب وتَنعم بجهُوده.

وسَنَعرض في حَديثنا هذَا طَرفاً من الشّواهد الّتي تَدل عَلىٰ أنَّ الحُكم الّذي مَارسه الإمَامعليه السلام ودعَا إلىٰ مُمارسته هو الحُكم من أجل الشّعب، ومَا تَقدّم في بَحث الطّبقات الإجتمَاعيَّة، ومَا سَيمر هُنا يُؤلّف هَيكلاً يكَاد أنْ يكُون كَاملا لفَلسفة الحُكم عندَ الإمَامعليه السلام.

* * *

من ضَرورات الحُكم الصّالح المُشاركة الوجدَانية بَين الرّاعي والرّعية، إذ بها يَستطيع الحَاكم أنْ يَتعرف عَلىٰ آمَال المَحكومِين وآلاَمهم ومَطامحهم، وأَنْ يَعي حَاجاتهم ومخَاوفهم، فيَعمل لخَيرهم ويَضع كلّ شيء ممّا يَصلحهم مَوضعه. ويُشعرهم ذَلكَ برعَايته لهُم، وحيَاطته لأُمورهم، وعَمله لصَالحهم، فيَدعمُون حُكمه بحبّهم وإيثارهم له، ويُؤازرونه في السّراء والضّراء عَلىٰ السّواء.

ولاَ يَحصل شيء من هذا إذَا ما أَغلق الحَاكم دونهم قَلبه وأغمَض عنهُم عَينه. إنّه حِينذاك لاَ يَعرف شيئاً من أُمورهم ليَعمل عَلىٰ الإصلاح، وتكُون عَاقبة ذَلكَ أَنْ يَفقد حبّه في قلُوبهم، ويَشعرون بأنّه شيء غَريب عنهُم مَفروض عَليهم، كالحَشرة الطُّفيليَّة الّتي تَعيش عَلىٰ دمَاء الحَيوان الّذي تَلتَصق به.

قَالَعليه السلام:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمحَبَّةَ لَهُمْ،

وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ[١]، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ! وَقَدِ ٱسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَٱبْتَلاَكَ بِهِمْ»[٢].

عَهْدُ الأَشْتَر

وَلكي تَحصل هَذه المُشاركة الوجدَانية وَلكي تُؤتي أُكلها يَجب علىٰ الوالي أَنْ يُخالط الرّعية، وأَنْ يُمكنهم من مُخالطته ومُطالعته بما يُريدون، لأَنَّ ٱحتجابه عنهُم سَبب لجَهله بأحوَالهم، وسَبب لإنصراف قلُوبهم عنهُ وتفَاقم مُوجدتهم عَليه.

قَالَ عليه السلام :

«وَأَمَّا بَعْدُ، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ ٱحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ ٱحْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ، وَالإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا ٱحْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ

(١) يَفرُطُ مِنهُمُ الزَّلَلُ: يَفرُط: يَسبق، الزَّلَل: الخَطأ.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرِّسَالَة (٥٣) «كُلّ النَّاس مِن تُرَاب».

الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ. وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاٰ يَعْرِفُ مَا تَوَارَىٰ عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَىٰ الْحَقِّ سِمَاتٌ[1] تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا آمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ آحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ! أَوْ مُبْتَلىً بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لاٰ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ»[2].

عَهْدُ الأَشْتَر

وَلكي يَبقىٰ ما بَين الوَالي ورَعيته من وشَائج الود، وَيَبقىٰ مَا للوَالي في قُلوب الرّعية من جَميل الأَثر وحُسن الظّن، يَجب عَليه أَنْ يُبدد من أذهَانهم كلّ مَا يَتوهمُون فيه الظّلم والحَيف، فَيُبينّ لهُم خُطته ويَشرح لهُم نَهجه ليُؤيدُوا سيَاسَته عن قنَاعة بهَا وإِيمان بصلاَحها وجَدوَاها.

وَيَجب عَليه ألاَّ يَمنّ عَلىٰ رَعيته بمَا يَفعل، فَإِنّ مَنصبه يَفرض عَليه أَنْ

---

(١) سِمَات: جَمع سمَة، وهي العَلاَمة، أي لَيس للحقّ علاَمَات ظَاهرة يَتميز بها الصّدق من الكَذب، وإنّما يُعرف ذَلكَ بالإِمتحان والتّجربة.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «حَاجَات النَّاس وَفرَائِض الله».

يَخدمهم، ولو منَّ عَليهم لذَهب جَميل أثرَه من قلُوبهم. وعَليه أَنْ يَتجنب الكَذب فيمَا يُعطي من عَهد، والتزيد فيمَا يَصف من عَمل، فإِنّ الكَذب دَاعـية المَـقت، والتزيد أخو الكَذب.

قَالَ عليه السلام:

«وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً(١) فَـأَصْحِرْ(٢) لَـهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاَعْدِلْ(٣) عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَـاضَةً(٤) مِـنْكَ لِـنَفْسِكَ، وَرِفْـقاً بِـرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً(٥) تَـبْلُغُ بِـهِ حَـاجَتَكَ مِـنْ تَـقْوِيمِهِمْ عَـلَىٰ الْحَقِّ»(٦).

عَهْدُ الأَشْتَر

وقَالَ عليه السلام:

«وَإِيَّـاكَ وَالْـمَنَّ عَـلَىٰ رَعِـيَّتِكَ بِـإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ(٧) فِيما كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَـعِدَهُمْ فَـتُتْبِعَ

---

(١) الحَيف: الظُّلم.

(٢) أصحَر: أظهَر، والإصحَار: الإظهَار. يَعني إذَا ظنّت الرّعية أنّك كُنتَ ظَالماً في تَصرف من التّصرفَات فاكشف عُذرك لهُم، وبيّن الأسباب المُوجبة الّتي دَعتك إلىٰ اتّخاذ ذَلكَ الإجرَاء.

(٣) أعْدل، هُنا، مَعنَاها: حَوّل. أي أنّ إعلانك لتفسِير مَوقفك يَجعلهم يُحولُون ظنُونهم واتّـهاماتهم لكَ بالظُّلم، عَنك.

(٤) رِيَاضَة: تَعويداً لنفسك علىٰ أنْ تكُون عَادلاً، وَصَريحاً.

(٥) الإعْذَار: هو إعلاَن العُذر والحُجّة.

(٦) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «بِطَانَة الْوَالِي وَحَوَاشِيه».

(٧) التّزيُّد ـ كالتّقيد إظهار الزّيَادة في الأعمَال، وإظهارها بأكبر من حَقيقتها في الوَاقع، فـيكُون مـن

مَوْعِدكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ[1] عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَاتَفْعَلُونَ﴾[2]»[3].

عَهْدُ الأَشْتَر

والسّبيل الأَقوم الَّذي يُؤدي إِلىٰ تَأكيد حُبّ الحُكم في نفُوس الرّعية ويَحملهَا علىٰ عَضدٍ والدّفاع عنهُ هو مَا أشَارعليه السلام بقَوله:

«وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ ٱلْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ[4]. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا[5]. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ

⇔ المُفاخرة بالبَاطل والكَذب.

(١) المَقت: البُغض.

(٢) الصَّفّ: ٣.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «مِن شُرُوط القِيَادَة».

(٤) قِبَلَهُم: عِندَهُم.

(٥) النَّصَب: التَّعَب.

سَاءَ بَلاؤُكَ[١] عِنْدَهُ»[٢].

عَهْدُ الأَشْتَر

وَلِمَ كلّ هَذا؟.

لأَنَّ الحُكم إِنّما أُقيم لصَالح الشّعب، ولذَلك فيَجب أَنْ يَرعىٰ مصالح الشّعب، وَيَجب أَنْ يَستلهم في أعمَاله حَاجات هذَا الشّعب.

أمّا هذه الطّبقة، طَبقة الخاصّة والنّبلاء، الَّتي تُحسب أَنَّ كلّ شيء مُسخر لهـا ومَا عَليها إلاَّ أَنْ تَدعو فتُجاب وتَأمر فتُطاع، هذَه الطّبقة لَيس لها فـي حكُـومة الإِمَام اَمتيَازات، فهي وسَائر النّاس سوَاء، وعَلىٰ الحَاكم، حِين تَتعدىٰ حدُودها وتَطلب مَا لَيس لهَا، أَنْ يَردها إِلىٰ قَصد السّبيل.

قَالَ عليه السلام:

«أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَـفْسِكَ، وَمِـنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِـنْ رَعِـيَّتِكَ[٣]، فَإِنَّكَ إلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَمَنْ ظَلَمَ عِـبَادَ اللهِ كَـانَ اللهُ خَـصْمَهُ دُونَ عِـبَادِهِ، وَمَـنْ خَـاصَمَهُ اللهُ أَدْحَـضَ حُجَّتَهُ[٤]، وَكَانَ للهِ حَرْباً حَـتَّىٰ يَـنْزِعَ[٥] أَوْ يَـتُوبَ.

---

(١) البَلاَء، هُنا، الصّنع مُطلقاً، حَسناً كَان أو سَيئاً. أي أنَّ مَن صَنعت معهُ صَنيعاً حَسـناً يكُـون مَـوضعاً لحُسن ظنّك به. ومن صَنعت معهُ صَنيعاً سَيئاً يكُون مَوضعاً لسُوء ظنّك بهِ.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «كُن مَعَ اَلصّادِقِينَ».

(٣) وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً: تَميل إِلَيه أكثر من غيره من النّاس.

(٤) أدحَضَ حُجَّتَهُ: أبطَل حُجّته.

(٥) يَنْزِع: يَكفّ عن ظُلمه.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ إِلَىٰ تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُلْمٍ[١]، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ»[٢].

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَىٰ الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ[٣] بِرِضَىٰ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَىٰ الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ[٤]، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ[٥] الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ؛ فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ[٦] لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ»[٧].

---

(١) الإِقَامَة عَلىٰ الظُّلم: الإصرار عَليه، وعَدَم الرّجوع عنهُ.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة الرّسَالَة (٥٣) «كُلّ النَّاس مِن تُرَاب».

(٣) يُجحِف: يُذهِب. أي أنَّ سَخط عامّة الشّعب لاَ يَنفع معهُ رضَا طَبقة المُترفين الإِريستوقراطيّة. أمّا إذَا رَضيت عَامّة الشّعب وسَخط المُترفون فلاَ يَضر سَخطهم مع رِضىٰ عامّة الشّعب.

(٤) الإِلْحَافِ: الإلحَاح والشّدّة في السّؤال.

(٥) أي جَمَاعة الإِسلاَم.

(٦) صِغْوُكَ: مِيْلُك. فليَكن مَيلُك إلىٰ عَامّة الشّعب لاَ إلىٰ الخاصّة المُترَفين.

(٧) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٥٣) «رِضَا الرَّعِيَّة».

وهَكذا حَكَم الإمَام عليه السلام بأنّ الحُكم إنَّما أُقيمَ من أجل الشّعب فَيَجب أنْ يَبقىٰ خَالصاً للشّعب وللشّعب وحدَه.

وإذَا كَان الحُكم قد أُقيم من أجل الشّعب، فهَذه الأَموال الَّتي تُجبىٰ منهُ لم تَجب لتُنفق عَلىٰ إرواء شهوَات طَائفَة من النّاس يَومها دَهرها، وبُغيتها لذّتها، وهي تَتمتع بحيَاة فَارغة لاَهِية، إنَّما جَبي هذا المَال من الشّعب ليُرد عَليه في صُورة خَدمات عامّة، ومُؤسّسات عامّة، هذا هو مَصرف أموَال الدَّولة.

وأَمير المُؤمِنين عليه السلام صَريح في هذا فَقد تَكرّر منهُ أمرَه إلىٰ عُمّاله بصيَانة مَال الأُمَّة، وصَرفه في موَارده وعَدم التّفريط بهِ.

قَالَ عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ، فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ، وَذَاكِرِ الْعَالِمَ. وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَىٰ النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ. وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَىٰ قَضَائِهَا.

وَانْظُرْ إِلَىٰ مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ فَاصْرِفْهُ إِلَىٰ مَنْ قِبَلَكَ(١) مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْفَاقَةِ(٢)

(١) قِبَلَك: عِندَك.

(٢) الْفَاقَة: الفقر.

وَالْخَلَّاتِ[١]، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فَحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا.

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]. فَالْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ. وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ، وَالسَّلَامُ»[٣].

* * *

رَاجع في بَاب الكُتب: «كتَابه إِلىٰ أشعَث بن قَيس عامل آذربيجان رَقم النَّص (٥)، وكتَابه إِلىٰ زيَاد بن أَبيه رَقم النّص (٢٠)»[٤]، ووصِّيته لمَن كَان يَستعمله عَلىٰ الصّدقات رَقم النَّص (٢٥)[٥] و«(٢٦ و ٤١)، وكتَابه إِلىٰ مَصقلة بن هُبيرة

(١) الخَلّات: الحَاجَات.

(٢) الحَجّ: ٢٥.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٦٧) «إِلىٰ قثم بن العبّاس».

(٤) تَقدّم ذلكَ.

(٥) «انْطَلِقْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لاٰ شَرِيكَ لَهُ، وَلاٰ تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَلاٰ تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلاٰ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَىٰ الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، حَتَّىٰ تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلاٰ تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لاٰ، فَلاٰ تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ، أَوْ تُوعِدَهُ، أَوْ

↔

رَقم النَّص (٤٣)، وكتابه إلىٰ عُثمان بن حُنيف عامله علىٰ البَصْرَة رَقم النّص (٤٥)، وكتابه إلىٰ عُمّاله علىٰ الخَرَاج رَقم النّص (٥١)، وكتابه إلىٰ قِثم بن العبّاس عامله علىٰ مكّة رَقم النّص (٦٧)»[١]، وعَهْد الأَشْتَر رَقم النّص (٥٣)[٢].

↔ تعسِفَهُ، أوْ تُرْهِقَهُ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلاَ تَدْخُلْهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلاَ تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ، وَلاَ عَنِيفٍ بِهِ. وَلاَ تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلاَ تُفْزِعَنْهَا، وَلاَ تَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَاصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ، فَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَبْقَىٰ مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ، فَاقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ. فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّىٰ تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ. وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلاَ هَرِمَةً وَلاَ مَكْسُورَةً وَلاَ مَهْلُوسَةً، وَلاَ ذَاتَ عَوَارٍ، وَلاَ تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلاَّ مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ يُوَصِّلَهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلاَ تُوَكِّلْ بِهَا إِلاَّ نَاصِحاً شَفِيقاً، وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلاَ مُجْحِفٍ، وَلاَ مُلْغِبٍ وَلاَ مُتْعِبٍ. ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلاَّ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلاَ يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ (فَيَضِرَّ) ذَلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلاَ يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَىٰ اللاَّغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ، وَلاَ يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الأَرْضِ إِلَىٰ جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالأَعْشَابِ، حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلاَ مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ».

(١) تقدّم ذلك.

(٢) «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَإِيْثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا، وَلاَ يَشْقَىٰ إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلاَّ مَا رَحِمَ اللهُ.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَىٰ بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ ↔

⇔ يَنظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَىٰ أَلْسُنِ عِبَادِهِ. فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاٰ يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ».

حُقُوقُ الرّعيَّةِ عَلىٰ الحَاكِم

وإذَا كَان الإمَام عليه السلام قد وضع أُسس هذا اللّون من الحُكم ومَارسه، ودعَـا إلىٰ مُمَارسته، فللحَديث عن حقُوق الرّعية مَحل في هذَا البَحث كمَا أسلَفنا. ولَـم يَغفل الإمَام الحَديث عن هَذه الحقُوق بل عَرض لها بالذِّكر في موَاطن كَثيرة فمَا هي حقُوق الرّعية عَلىٰ الوَالي ؟.

لقَد تَحدث مرّة عن هَذه الحقُوق فقَال عليه السلام :

« وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ[1]، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ »[2].

وقَالَ عليه السلام :

« وَٱيْمُ اللهِ إِنّي لأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَىٰ، وَٱسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِـي طَـالِبٍ ٱنْفِرَاجَ الرَّأْسِ. وَاللهِ إِنَّ ٱمْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ، لَـعَظِيمٌ

---

(١) الفَيء: الخَرَاج ومَا يَحويه بَيت المَال.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٤٠) «كَلِمَةُ حَقٍ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ».

عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ. فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ، وَالْأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ، وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ»[1].

وَقَالَ عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ عِبَادَ اللهِ، لاَ تَرْكَنُوا إِلَىٰ جَهَالَتِكُمْ، وَلاَ تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لاَ يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ! فَاللهَ اللهَ أَنْ تَشْكُوا

(١) أنظر، نهج البلاغة: الخُطْبة (٣٤) «فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ».

إِلَىٰ مَنْ لاَ يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ. إِنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الْإِبْلاَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ(١) عَلَىٰ أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي»(٢).

وَفي هَذه النّصوص أجمَلَ الإمَام حقُوق الرّعيَة عَلىٰ الرّاعي في تَوفير الأَمن في الدّاخل والخَارج، وتأمين الحيَاة الإقتصَاديّة، والتّعلِيم والتّوجيه الإجتماعيّ، وإقَامة العَدل.

ولاَ يَضرنا إجمال هَذه النّصوص بعد أَنْ عَرفنا أَنَّ أطوَل وثيقة كَتبهاعليه السلام وأجمعها لحقُوق الرّعية هي عَهْده إلىٰ الأَشتَر، ففي صَدر هذا العَهْد أجمَل هَذه الحقُوق إجمالاً ثُمّ فصّلها بَعد ذَلكَ تفصيلاً. أجمَلها فقَالعليه السلام:

«هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَ جِهَادَ عَدُوِّهَا، وَ اسْتِصْلاَحَ

---

(١) إِصْدَارُ السُّهْمَان: السُّهمَان ـ بالضّم ـ جمع سُهم، بمَعنىٰ الحظّ والنّصِيب، وإصدَار السُّهمَان: إعَادتها إلىٰ أهْلها المُتسَحقِين لهَا بدُون إنقَاص شيء مِنها.

(٢) أنظر، نَهج البَلاغَة: الخُطبَة (١٠٥) «وَظِيفَةُ الإِمَام».

أَهْلِهَا، وَ عِمَارَةَ بِلاَدِهَا»[١].

عَهْدُ الأَشْتَر

ثُمَّ فَصّلها بَعد ذَلكَ.

فَأَفَاض أَوَّلاً في بَيان وظِيفة العَسْكريِّين ووَاجباتهم والسّبيل الّـذي يُـحسن بالحَاكم أَنْ يتّبعه للإِستفَادة منهُم.

ثُمَّ فصّل الكَلام في جهَاز الحُكـم: الوُلاَة والوزرَاء والقُـضَاة، فـوضَع أُسس الحُكم العَادل التَّقدمي الوَاعي.

وتَكلّم بعد ذَلكَ عَلىٰ الزّراع والتُّجّار والصُّنَّاع وَالفُقرَاء، فبَيّن حـقُوقهم عَـلىٰ الحَاكم من تَوفير المجَالات لهُم، وإِعدَاد أحسَن الفُرص لنجَاحهم في أعمَالهم.

ثُمّ تَحدث عن حَالة البلاَد العُمرانية فأَفَاض في الحَدِيث وبّين خُطورة هـذه النّاحية في أمن الرّعية ورفَاهها وإِطّراد تَقدّمها.

في هَذا العَهد نَظر الإِمَامعليه‌السلام إِلىٰ المُجتَمع كلّه بمَا فيه من طوَائـف وطَـبقات، وبيَّن فيه حقُوق هذا المُجتَمع كلّها، ولاَ نرىٰ مَا يَدعُونا إِلىٰ تَفصيل الكَلاَم في ذَلكَ هُنا بعد أَنْ تَبين من خلاَل حَدِيثنا عن الطّبقات الإِجتمَاعيَّة، لأَنَّه حِينما تَحدث عن الطّبقات لَم يتنَاولها عَلىٰ نحو تَجريدي، وإِنَّما تنَاولها بالحَدِيث بإِعتبار مَا لهَا من حقُوق، وَقد قدّمنا مُلاَحظة بَين يَدي ذَلكَ الحَدِيث قُلنا فِيها:

(لم يُفرغ آراءه الإِجتمَاعيَّة كلّها في قَالب عِلمي مُجرد، وإِنَّـما قـدَّم بـعضها مُفرغاً في التّجربة العِملية، ولاَ يَسلبها قِيمتها كحَقيقة موضُوعية أنّها مفرغة فـي قَالب تَجريبي إِجتماعي يَسبغ عليها، بَدل جـمُود الحَـقيقة العِـلمية المُـجردة، حَيويةً وحَركيةً تَنشآن من حَيوية الجَمَاعات وحَركيتها).

---

(١) أُنظر، نَهج البلاَغة: الرِّسَالَة (٥٣) «عَهْدُ الأَشْتَر».

طَبيعَة الحَقّ، وَحُقُوقُ الحَاكِم عَلىٰ الرّعيَّة

تَحدث الإمَام عليه السلام عن طَبيعَة الحقّ فَلاحَظ أنّه لاَ يُمكن أَنْ يكُون لأَحد حـقّ عَلىٰ غَيره إلاّ ويكُون عَليه لغَيره وَاجب، وهُناك تقَابل دَائم بَين الحـقّ والوَاجب فحِيثما يكُون الحقّ يتّبعه الوَاجب.

وَلَكن النّاس ـ غَالباً ـ يُريدون إستِيفاء حقُوقهم دون أَنْ يُؤدّوا ما عَـليهم مـن وَاجبات غَير عَالمين أنّه حِينما يَتمرد الإِنسَان عَلىٰ وَاجبه فلاَ يَأتي به يُسقط حقّه الّذي يَدّعِيه.

قَالَ عليه السلام:

«فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَـقّاً بِـوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ[1]، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَىٰ لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَـهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَـانَ ذَلِكَ خَـالِصاً للهِ سُـبْحَانَهُ دُونَ

---

(١) يتّسع القَول في وَصف الحقّ، حتّىٰ إذَا حَان وَقت العَمل والتّنفيذ عَلىٰ الإِنسَان الّذي يَصف الحَقّ يَفر من أَدَاء الحقّ ولَم ينصف.

خلقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلًا مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ»[١].

وقَالَ عليه السلام:

«ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ[٢] فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ»[٣].

ونُنبّه هُنا إِلىٰ أَنَّ هَذه الحقُوق، حقُوق الإِمَام، لَيست ٱمتيَازات عَلىٰ سَائر النّاس يَحصل عَليها الإِمَام بسَبب الحُكم، وذَلكَ لأَنَّ الحُكم، عندَ الإِمَام، لاَ يُسبب للحَاكم أي ٱمتيَاز شَخصي أبداً.

وهَا هو يُخاطب الأَشتَر، عَامله عَلىٰ مَصر، بقَوله عليه السلام:

«وَإِيَّاكَ وَالإِسْتِئْثَارَ[٤] بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ[٥]، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَىٰ بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٢١٦) «الرَّاعي وَالرَّعيّة».

(٢) تَتكَافَأُ: تَتساوىٰ.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٢١٦) «الرَّاعي وَالرَّعيّة».

(٤) الإِسْتِئثَارُ: تَخصِيص النَّفس بزيَادة في الحصّة عن الآخرين.

(٥) أُسْوَةٌ: مُتسَاوون. وَالتَّغَابِيَ: التَّغافل.

مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ. وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنكَ لِلْمَظْلُومِ»[١].

عَهْدُ الأَشْتَر

وقَالَ عليه السلام مُخَاطباً أصْحَابه في صفِّين[٢]:

«وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ[٣] حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَىٰ الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَٱسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ ـ بِحَمْدِ اللهِ ـ كَذَلِكَ. وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَىٰ النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ[٤]، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ[٥] فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ

(١) أنظر، نَهج البَلَاغة: الرِّسَالَة (٥٣) «مِن شُرُوط القِيَادَة».

(٢) صِفِّين كَسِجِّين ـ مَوقع عدّه الجُغرافيّون من بلَاد الجَزِيرَة (مَا بين الفُرات ودجلَة) والمُؤرّخون العَرب عدّوه من أرض سُوريا. وهو اليَوم في مُحَافظة حَلب.

(٣) وَإِنَّ مِنْ أَسْخَف: أَصل السُّخف رقّة العَقل وغَيره، والمُراد: أنّ أدنىٰ حَالات الوُلَاة أنْ يظنّ بهم الصَالحُون أنّهم يُحبّون الفَخر، ويَبنُون أُمورهم علىٰ أسَاس الكِبر.

(٤) الْبَلَاءِ: إِجهَاد النّفس في إِتقَان العَمل وإِحسَانه.

(٥) التَّقِيَّة: الخَوف، والمُراد هُنا بها العِقَاب، ومَعنىٰ الجُملة: أي لاَ أَستحق الثّناء لأنّي قُمت بأدَاء حقُوق وَاجبة عليّ خَوفاً من عقَاب الله إذَا تَركت أدَاءها.

إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ(١)، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ(٢)»(٣).

عَهْدُ الأَشْتَر

وإذا لم تكن حقوق الحاكم من هذا الباب فما هي طبيعتها إذن؟.

حقوق الحاكم كما يجملها الإمام في نهج البلاغة هي أمور يعطاها لأنها ضرورية لإستمرار الحكم وصلاحه فهذه الحقوق هي:

«وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ، وَالْمَغِيبِ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ»(٤).

وهي:

«وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ؛ وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ(٥)، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ(٦) إِلَى الْحَقِّ»(٧).

---

(١) أَهْل البَادِرَة: سريعو الغضب. ينهاهم أنْ يكلّموه بألقاب العظمة الّتي اعتاد النّاس أنْ يخاطبوا بها الجّبارين، وينهاهم عن أنْ يقابلوه بالتحفظ والرّهبة خشية غضبه.

(٢) وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ: يعني لا تصانعوني فتتظاهرون بطاعتي دون أنْ تكونوا راغبين في ذلك.

(٣) أنظر، نهج البلاغة: الخُطبة (٢١٦) «كَرَاهِيَة الإِطْرَاء».

(٤) أنظر، نهج البلاغة: الخُطبة (٣٤) «فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ».

(٥) نكص: تأخر ورجع: يعني لا تتأخروا عن إجابتي إذا دعوتكم.

(٦) الغَمَرَات: الشّدَائِد.

(٧) نهج البلاغة، باب الكُتب، رقم النّص: (٥٠).

وهي:

«وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا ٱلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي. فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ»[(١)].

وتَكَاد تَرجع كلّ هذه الحقُوق إلىٰ الوفَاء بالبَيعة، فإنّ الإمَام يُبايع عَلىٰ السّمع والطّاعة. وإذَا لم يَسمع المَحكُومون حِين يَدعُوهم ولَم يَطيعُوا حِين يَأمرهم، ولَم يَنصحوا لهُ ولَم يَثبتوا عَلىٰ ولائه لَم يَستَطع الإمَام أنْ يَسيّر أداة الحُكم عَلىٰ نَحو صَالح.

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٢١٦) «كَرَاهِيَة الإطْرَاء».

التَّعَاون بَيْنَ الحُكْم وَالشّعْب

ولاَ يُمكن أَنْ يَصلح شيء من أُمور الدَّولة إلاَّ إِذَا وُجد جـو صَـالح للـعَمل، ويُوجد هذا الجَو بتَحقق الرّغبة المُشتركة بَين الحَاكم والمَحكُومين في إِصلاح مَا يَفتَقر إِلىٰ الإِصلاح وتَقويم مَا يَحتاج إِلىٰ التَّقوِيم من شُؤون النّاس وشُؤون البِلاَد. والَّذي يُعبّر عن هَذه الرّغبة المُشتركة هو تَعَاون الوَالي مع الرّعية عَلىٰ القِيام بذَلك كلّه، وَيَتحقق التّعاون بَينهما بأَنْ يقوم كلّ مِنهُما بمَا عَليه من وَاجبات بَعد أَنْ يَتلقىٰ كلّ مِنهُما مَا لهُ من حقُوق.

فعلىٰ الرّعية أَنْ تُعطي الوَالي مَا لهُ عَليها من حقُوق، فتُطيعه إِذَا أمرَ، وتُجيبه إِذَا دَعَا، وتَنصحه إِذَا كَان في حَاجة إِلىٰ ذَلكَ.

وعَلىٰ الوَالي إِذَا حَصل عَلىٰ ذَلكَ كلّه أَنْ يَستَغله في إِصلاح شؤون رَعِيته.

أمّا حِين لاَ تَبذل الرّعية للوَالي طَاعتها ولاَ تَمحضه نَصيحتها، ولاَ تُلبي دعوَته إِذَا دعَا، وأمّا حِين تَفعل ذَلكَ كلّه ولَكن الوالي يَستَغله في رعَاية مصَالح نَفسه، ويُهمل مصَالح رَعيته فإنّ ذَلكَ مُؤذن بشيُوع الظّلم، وسَيطرة الظّلمة، وفسَاد الدَّولة.

قَالَ عليه السلام:

«وَأَعْظَمُ مَا ٱفْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِـلْكَ الْـحُقُوقِ
حَقُّ الْوَالِي عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَىٰ الْوَالِي،

فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، ! فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ. فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذَا أَدَّتْ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ[1]، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ[2]، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ[3]، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ[4]، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ[5]، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ

---

(١) ذِلّ الطَّرِيق ـ بكَسر الذَّال ـ وَسَطه. والسُّنَنُ: جَمع سُنّة، هي أوَامر الله ونوَاهيه، وهي طَريق المُؤمن في حيَاته، مَعنى الجُملة: إنّ أحكَام الله حِينئذٍ تُطبق بدقّة وإحكَام.

(٢) أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، الإجحَاف: الظُّلم، يَعني ظُلم الوَالي رَعِيَته.

(٣) الْإِدْغَالُ فِي الشَّيءِ: إدخَال مَا يُفسده فيه، والإدغَال في الدِّين: إفسَاده.

(٤) مَحَاجُّ السُّنَنِ: جَمع مَحجّة، وجَمع سُنّة: تركَت طُرق الله وأحكَامه الوَاضحة وانحَرف النّاس عَنها.

(٥) فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ ولاَ يَستَغربُون من تَعطِيل الحقّ لتَعودهُم عَلىٰ تَعطِيل الحقُوق وأفعَال البَاطل.

تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ. فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ»[١].

وقَالَ في التّعاون بين الرّاعي وَالرّعيّة:

«وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَىٰ إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ امْرُؤٌ ـ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ـ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ[٢] عَلَىٰ مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ ـ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ[٣] ـ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ»[٤].

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (٢١٦) «الرّاعي وَالرّعيّة».

(٢) أي بأعلىٰ من أنْ يحتاج إلىٰ المُساعدة والإعانة.

(٣) اقتحَمَتْهُ العُيونُ: احتقرته «بِدُونِ أنْ يُعِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ أوْ يُعَانَ عَلَيْهِ» أي بأعجز من أنْ يُساعد غيره.

(٤) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (٢١٦) «الرّاعي وَالرّعيّة».

المُغَيبات

مَوْقفُ الرّفض لِلمُغَيبَات

في نَاس هَذا العَصر من إذَا وَقعت أبصَارهم عَلىٰ هـذا العُـنوان طَـاف عَـلىٰ ثغُورهم شَبح ٱبتسَامة، ولاَح في أعينهم بَريق الهزء، وٱتّسمت معَالم وجُـوههم بإمارات الإستنكار. ولم كلّ هذا.؟ لأنّنا في هـذا العَـصر الآلي لاَ نَسـتطِيع ـإذَا أردنَا أَنْ نَحترم أنْفسنا وعقُولنا ـأَنْ نُؤمن بوجُود إنسَان يَعلم الغَيب، إنسَان تَنقَشع من أمَام عَينيه حُجب القُرون وتَنطوي المسَافات فَيقرأ المُستَقبل البَعيد أو الخَاطر المَحجُوب كمَا يَقرأ في كتَاب مفتُوح، ويَعي حوَادثه كأنّها بِنت السّاعة الَّتي هـو فِيها.

وكلّ إنسَان يقول هَذا فلاَ بُدّ أَنْ يكُون وَاحداً من ٱثنَين: إمّـا مَـجنُوناً، وإمّـا جَاهلاً بمَا قَدّر للعَقل الإنسَانيّ أَنْ يَعيه من نظَام الكَـون. وقـد لاَ يـقُولون هـذا بألسنتهم ولكنّهم يقُولونه بوجُوههم وأيديهم.

فَلسَفَةُ مَوْقفِ الرّفض:
نَزْعَة التّجريب: عَرضٌ وَمُنَاقَشَة

في نَاس هذا العَصر مَن يَقول هذَا.

وطَبيعة الثّقافة المُنحرفة الَّتي يُلقّاها إنسَان هذَا العَصر في كلّ مكَان هي الَّتي تَدفع بهؤلاَء إلىٰ أَنْ يَقفوا هذا المَوقف ويتّجهوا هذَا المُتّجه في إنكار كلّ دعـوىٰ تَذهب إلىٰ أَنَّ في الإِنسَان شَيئاً آخر ورَاء غُدَده وخلاَياه.

الثّقافة الحَديثَة هي الَّتي تَفرض عَلىٰ الإِنسَان مِثل هذا المَوقف فَهذه الثّـقافة تَعتَبر الإِنسَان ـ آلة ـ آلة دَقيقة الصّنع فَقط، وهي تَخضع في عَملياتها لقَانون الآلَة وحدَه، فلاَ شيء ورَاء الغُدد والأَعصاب يُمكن أَنْ يُعتبر مُوجهاً للنّشاط الإِنسَانيّ وبَاعثاً له.

هَذه النّظرية، نَـظرية الإِنسَـان الآلة، وجـدَت أوّل تَـعبير لهَـا عَـلىٰ لسَـان (ديكَارت) في فَلسفته حِينما أعتبر الإِنسَان آلة، وأنشَأ ثُنائية النّفس والجَسد، ثُمّ وجدت تَعبيراً أشدّ صرَاحـة عَـلىٰ لسَـان (تـوماس هـوبس) فـي فَـلسفَته المِيكانيكيّة، والَّذي جُرد الكَائن الإِنسَانيّ من كلّ قوّة غَير مُدركة. وبَينما كـان (ديكَارت) يَعترف بنشَاط دَاخلي سمّاه «الأَفكَار البَاطنيَّة» نَرىٰ (هوبس) قـد

تنكر لهذا وأرجع مضمون الفكرة إلىٰ الخبرة الحسّية وحدها.

وبين القرنين ـ الثامن عشر والتاسع عشر ـ ساهمت علوم أُخرىٰ غير الفلسفة في تأكيد هذه النظرية.

ومهما تكن حظوظ هذه العلوم من قوّة التأثير وضعفها في صياغة هذه النظرية وإقرارها فلا مراء في أنّ علم النفس المعاصر من أعظم العلوم أثراً في تأكيدها.

فقد بدأ علم النفس عهده التجريبي في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٩م) علىٰ يد (فلهلهم فونت) الّذي أسّس سيكولوجيا الإستبطان، والّذي حاولت مدرسته إحلال كلمة (شعور) المرادفة للحسّ في العمليات النفسية محل كلمة (روح) الّتي هي إرث ديني وغير مدرك.

وبعدها تتابعت المدارس النفسية: السّلوكيّة، التّحليل النّفسي، علم النفس التّحليلي، علم النّفس الفردي، (الجشطلت)، القصد. وكلّها تتنكر للرّوح، ولأي قوّة غيبية أُخرىٰ، وترد السّلوك الإنسانيّ إلىٰ إفرازات الغدد، وعمليات الجهازين الحشوي والعصبي، واللاّوعي، والغرائز.

وقد بلغ التعصب لهذه العلوم ذروته في القرن التّاسع عشر، ففيه استحوذ الغرور علىٰ العلماء المحدثين، وظنّوا أنّهم قد تمكنوا من اكتشاف جميع القوانين الميكانيكيّة الّتي تسيّر الكون، وذهبوا إلىٰ أنّ كلّ دعوىٰ يراد منها إثبات أنّ ثمّة قوىٰ غير مدركة تهيمن علينا، وتتحكم فينا هي دعوىٰ خرافة ذهب زمنها ـ خرافة صنعها الإنسان يوم كان أُفق تفكيره غائماً وضبابياً إلىٰ حدٍّ يثير الإشفاق.

ولعلّ من الخير لنا أنْ نتبين الأساس الّذي يقوم عليه إنكار الرّوح في الثّقافة الحديثة.

المِيزة الكُبرىٰ للحضَارة الحَدِيثة الَّتي هي مُعطىً للثّقافة الحَديثة أنّها حضَارة التَّجريب، فكلّ شيء يَجب أَنْ يَخضع للتّجربة المَعْمَليّة ليَصح أَنْ يُؤمن به، فَإذا لَم يَخضع للتّجربة لَم يَصح أَنْ يُؤمن به كمَا لو خَضع لها وكَشفت زَيفه.

وقَد عَاد هذا الإتّجاه التَّجريبي عَلىٰ الحضَارة بمَا لاَ يتصور مدىٰ خِصبه من النّتائج، ولَكن الخَطأ وَقع حِين دَاخلت العِلم العزّة بنَفسه فَادّعىٰ أَنَّ بوسعه أَنْ يَدخل الإنسَان إلىٰ المَعمل ويَجعله موضُوعاً للتّجريب. ولَيس الإنسَان موضُوع التَّجريب هُنا هو هذَه الكُتلة من اللّحم والعَظم المَشدُودة إلىٰ بَعضها بجهَاز من العَصب، وإنَّما هو النّفس الإنسَانيَّة. فَقد ادّعىٰ العِلم الحَدِيث أَنَّ بإمكانه أَنْ يَفحص صحَة الدّعوىٰ الكُبرىٰ القَائلة بوجُود الرّوح والنّفس ليُثبت صِحتها أو بُطلانها عن طَريق التّجربة المَعْمليّة.

وقَد اضطَلع بهَذه المُهمة عِلمَان تَجريبيَان، هُما (الفيزيولوجيا والسّيكولوجيا)، هَذان العِلمَان أدخَلا الإنسَان إلىٰ المَعْمل ليَريا أحقّ مَا يُقال من أَنَّ وراء هَذه التَّشكيلة الدَّقيقَة من الغُدد والخلاَيا والأَجهزة العَصبيَّة والحَشويَّة شَيئاً يُسمّىٰ نَفساً ورُوحاً، أو أنّ هَذه خرَافة من جُملة الخرَافات؟.

ولَقد كانت النّتيجة بطَبيعة الحَال ـ وهذا شيء كان من المُمكن أَنْ نَجزم به سَلفاً ـ هي أَنَّ لاَ روح ولاَ نفس ولاَ شيء وراء جِسم الإنسَان.

وأُذيعت هذه النّتائج عَلىٰ أَنّها «حقَائق» أثبتَها العِلم التّجريبي وآمن بهَا النّاس، لأَنَّ العِلم التّجريبي والتَّطبيقي، الَّذي أخضَع الأَمراض لسُلطانه، وكَشف عِللها ووضَع أدويَتها، والَّذي لاَ يزال يُفجؤنا كلّ يوم بجَديد لاَ يُمكن أَنْ يَستعصي عَليه هذا المَوضُوع.

وعَلىٰ هذا النّحو المَسرحي حلّت المُشكلة ـ أعقَد وأعضَل مُشكلة وَاجـهت العَقل الإنسَانيّ مُنذ القِدم ـ واُعتبر أمر الرّوح الإنسانيَّة قَد اُنقضىٰ.

وهُنا نقول كَلمتنا في المسألة.

نحنُ نُؤمن بالعِلم قوّة في يَد الإنسَـان وسَـبيلاً إلىٰ إنّـماء الحـيَاة الإنسـانيَّة وإغنائها.

ونحنُ نُؤمن بالتّجربة مَنهجاً للبَحث أفضَل من جَميع المنَاهج الأُخرىٰ.

ولَكنّنا نُؤمن بالعِلم إلىٰ حدّ مَحدُود، ونُؤمن بالتّجربة مَنهجاً للبَحث فيما هـو قَابل للتّجربة.

إنّ المَيدان الأَصيل للعِلم التّجريبي هو المَوضُوع القَابل لأَنْ يَقع تَحت أدوَات التَّجريب: يَد الإنسَان وعَينه وحَاسة الشّـم فـيه ومـوَازيـن الحـرَارة والضّـغط والمشَارط وأنَابيب الإختبار ومَا إلَيها. فكلّ مَوضُوع خَارجـي يَـصلح أَنْ يَـقع تَحت أدَاة التّجريب يَصلح أَنْ يكُون مَيداناً للـعِلم الّـذي يَـستخدم هـذه الأَداة، ويُمكن أَنْ يَتوصل فيه بوَاسطتها إلىٰ نتَائج مُعتمدة نِسبيّاً.

ونَتَسأل:

هَل الرّوح من هذا القَبيل؟ وهل يُمكن أَنْ تَقع مَوضُوعاً صَالحاً لأَداة التّجربة المَعْملية؟ الله اُللّهم لاَ. فالبَاحثون عَنها لاَ يجرؤن عَلىٰ القَول بأنّها شيء ذو كيَان يُمكن أَنْ يَصل إلَيه الحسّ أو مَا يَصطنعه الإنسَان من أدوَات.

ونَتَسأل كرّة أُخرىٰ:

إِذَا كَانت الرّوح شَيئاً لاَ يُمكن أَنْ يَقع مَوضُوعاً لأَداة التّجربة فكَيف يَصح أَنْ تتّخذ هَذه الأَداة سَبيلاً إلىٰ البَتّ في أمرهَا؟.

نَعم، إنّ «أسَاطين» السّيكولوجيا ـ وخاصّة السّلوكيون ـ والفيزيولوجيا يقُولون لنا إنّ بإِستطاعتهم أَنْ (يَختبُروا) وجود الرّوح عن طَريق مُراقبة الإِنفعالات الّتي تَطرأ عَلىٰ مُختلف أجهزَة الإِنسَان بفِعل السّوائل الكِيماوية المُختلفة.

ونَتسأل ثالثَة:

هل عوَاطف الإِنسَان ومَطامحه وأفكَاره تَتجمع كلّها في بضعَة من عَصب، تَنفعل بالسّوائل الكِيمائية الّتي تُراق عَليها لنَحكم بأنّ لاَ روح ولاَ شيء سوىٰ هذه البَضعة الخَاضعة للفِعل الكيماوي؟ وهل يُمكن أنْ يَعتمد عَلىٰ نَتيجة هذه مُقدّماتها في تَقرير مَوقفنا من الحيَاة والكَون، وفي تَحديد مَصيرنا الّذي نُريد؟.

إنّ العِلم التّجريبي نَفسه يأبىٰ عَلينا الأَخذ بنَتيجة هذه مُقدّماتها، فنَتيجة كَهذه لاَ يُمكن أنْ تُسمّىٰ نَتيجة عِلمية بحَال.

وإِذن، فلاَ دَليل يُمكن أَنْ يَنهض عَلىٰ أَنَّ الرّوح الإِنسانيّة لاَ وَاقع لها، وأكثَر من دَليل يَدل عَلىٰ أَنَّ الرّوح الإِنسانيّة، أعظَم وَاقعية من بَعض الأَشياء الّتي نَحسبها وَاقعية.

مَا هو الوَاقعي؟.

أَهُو الشّيء الّذي تُدركه حوَاسنا؟ لاَ، لَقد أصبح هذا التّفسير السّاذج «للوَاقعي» شَيئاً بَعيداً عن المَفهُوم العِلمي الحَدِيث، ولو شئنَا أَنْ نُفسّر الوَاقعي بهَذا التّفسير لوجَب عَلينا أَنْ نُكفّر بأشيَع الحقَائق في حيَاتنا الحَاضرة وأعني بها الكَهرباء. «فالكهرباء ـ كمَا يقول (يَعقوب فأم في البراجماتزم ـ لاَ صورة ذِهنية لها عندنَا ولاَ شكل نَستطيع أَنْ نرَاه بعَين العَقل أو نَتخيله، ومع ذَلكَ فمَدلوله لهُ وجُود ذَاتي مُستقل في هذا النّظام المَوضوعي للكَون. وبعبَارة أُخرىٰ: الكَهرباء

موجود حقيقي وإنْ كان الذّهن لاَ يستطيع أنْ يتخيلها لأنّنا نُشاهد آثارها وعملها في الحياة اليوميّة ».

وإذن، فليس الوَاقع هو مَا نحسه، وإنّما الوَاقع هو مَا يعمل عَلىٰ صيَاغة حيَاتنا بآثاره وإنْ لم يَبلغ عَلمنا مدىٰ كُنهه. وإذَا كان هذا هو الوَاقع فمَا الّذي يمنع أنْ تكون الرّوح حَقيقة من الحقَائق الجمّة الّتي تصنع حيَاتنا بآثارها؟ إنّ جَهلنا بحَقِيقتها لاَ يُبرر نُكران وجُودها. وقد عرفت أنّ الّذِين يُنكرونها يَبنون نُكراهم عَلىٰ ما لاَ يَصلح أنْ يكُون أسَاساً للمَوقف العَقلي الّذي التزموه تُجاه الرّوح فالأَداة الّتي اصطنعوها لمَعرفة الرّوح قَاصرة عن أنْ تنيلهم ما أرَادوا.

لقَد حَدس القُدماء فَلم يَهدهم حَدسهم إلىٰ شيء، ولَقد جَرّب المُحدثون فلَم تَهدهم تَجربتهم إلىٰ شيء، ويَقف الإنسَان مكتُوف اليَدين أمَام غيَاهب الأَسرار، ويُردد حُكم القرآن في اعترَاف بالعَجز: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1].

ونَخلص من هَذا كلّه إلىٰ القَول بأنّ مُنكري «المُغيبات» ليسوا سوىٰ طَائفَة من النّاس تَنظر إلىٰ الإنسَان من أحد جوَانبه وتَبني أحكَامها عَلىٰ ما ترىٰ غير حَاسبة أنّ ثمّة غَير هذا الجَانب، وأنّ حُكمها عَلىٰ الإنسَان قَبل الإحَاطة به من أقطَاره ـ في الحدُود الّتي تَبلغها المَعرفة ـ ضَرب من الخَبط العَشوائي الّذي لاَ يُليق بمن يَدّعي العِلم ويَستَهديه فيما يَفعل أو يقول، وهَؤلاء أشبَه بمن يَحكم بأنّ لَون الهَرم أحمَر لمُجرد أنّه رأىٰ ضلعاً واحداً من أضلاَعه بهذا اللّون قبل أنْ يَرىٰ بقيّة الأَضلاع.

(١) الإسْرَاء: ٨٥.

وحَيث قد عَرفنا أَنَّ في الإِنسَان قوىٰ ورَاء جهَازه العَصبي وَالحشوي وورَاء غُدده وخلاَياه لاَ نُدركها بما لَدينا من وسَائل المَعرفة، فلاَ مُبرر لإِنكار «إِمكان» أَنْ يكون لدىٰ إِنسَان من النّاس، بسَبب ما يَتمتع به من سمُو رُوحي ونقَاء دَاخلي ـ وهَذه صفَات قَابلة للتّفاوت ـ قُدرة عَلىٰ مَعرفة ما يُخبئه الغَد وتُضطم عَليه أحشَاء المُستقبل.

وإِذَا كان «يُمكن» أَنْ يُوجد إِنسَان كهَذا فلنَقم بنقلة تثبت أَنَّ إِنسَاناً كهَذا «مَوجُود بالفِعل».

اِهتَمامُ العِلم الحديث بَطاقَاتِ الإنسان الخَفِيَّة

مُنذ القِدم لاَحظ النّاس في بَعض الأَفراد شيئاً خَارقاً للعَادة، وكَان ذَلكَ الشّيء هو الإطلاع عَلىٰ حَادث وقع في مكَان يَبعد عن مكَان الرّائي بمئَات الأَميال، أو قرَاءة أفكار الآخرين الخَفية، أو التّنبؤ بما سَيقع لبَعض النّاس في الغَد القَريب أو البَعِيد.

وقَد اعتبر القُدماء هذه الظّواهر شَيئاً صَادقاً وَلكن لاَ سَبيل إلىٰ تَعليلَه، وانتهت المَسألة عندَ هذا الحدّ.

وغَبرت القُرون والنّاس يُؤمنون بهذا حتّىٰ نَجمت طـلائع الثـقافة الحَـديثة، فجَرفت فيما جَرفته من مُخلفات القُرون هذه الفِكرة، استناداً إلىٰ أنَّ الرّوح لاَ وَاقع لها، فلاَ شيء من هذا يُمكن أنْ يكُون موضع إيمان وإذعان.

ولَكن ظَاهرة كَهذه لاَ يُمكن أنْ تَذهب وتُنسىٰ بمِثل هَذه السّهولة، فلَيس أمراً عَاديّاً أنْ يَتمتع إنسَان من النّاس بقوىٰ خَارقة تتجَاوز كلّ قانون عِلمي مَعروف.

وهَكذا عَادت هذه الظّاهرة ففَرضت نَفسها عَلىٰ العُلماء من جَديد، وغَـدت موضُوعاً للبَحث العِلمي عند عُلماء مَشهورِين مَشهُود لهُم بدقّة النّـظر، أمـثَال: (سير اوليفر لودج، ووليم كروكس، وألفرد رسل ولاَس)، وهَؤلاء الثّلاثة مـن أعضَاء الجَمعية العِلمية المَلكية. وَ(وليـم جـيمس، وشـارل ريشـيه، وهـنري

سدجوك، وهانز دريش، وهنري برجسون، والدّكتور ميرس، ورتشارد هودسون، وتشارلس اليوث نورثون أُستاذ بجامعة هارفارد، ووليم ر. ليوبولد أُستاذ علم النّفس والفَلسفة في جامعة بنسلفانيا، والفَلكي الفَرنسي المَشهور كاميل فلامريون، وتوماس هكسلي)، وغَيرهم، وهَذا العَدد في تعَاظم يَوماً بعد يَوم.

وكَانت أوّل خُطوة جدية في سَبيل التّثبت من صِدق هذه الظّاهرة هي تَأليف جَمعية المبَاحث النّفسية في بريطانيا سَنَة (١٨٨٢م)، وقد ٱشترك فيها عَدد جم من العُلماء والفَلاَسفة، فأصدَرت مجلّة تَنطق بلسَانها. وكان أوّل رئيس ٱنتُخب لهَا هو البروفيسور (هنري سدجوك).

وقَد ٱنتهجت هَذه الجَمعية في بَحثها طَريقة جَمع الوثَائق وفَحصها، فَإذا سمع البَاحثون بشخص ما يَمتلك موهبة خَارقة أرسلوا إِلَيه مُلاحظين مُعتمدين يقُومون بدرَاسة ما يقُوم به ذَلكَ الشّخص ويَضعُونه تحت المُراقبة الدَّقيقة، ثُمّ يُقدّمون عنهُ تَقريراً بمَا شَاهدوه.

وَقد كَان لنجَاح هذه الجَمعية صدَاه في أنحَاء العَالم، فأُسّست لها فُروع في أقطَار أُخرىٰ (كفرنسا وأمريكا وهولندا والدّانمارك والنّرويج وغيرها).

وقَد ٱكتَشف البَاحثون الَّذِين ٱشتملت عَليهم هذه الجَمعيات وغيرهم أَنَّ في الإِنسَان مَلكات نَفسية خَارقة أهمّها ثلاَث: (تنَاقل الأَفكار، ورُؤية الأَشياء من ورَاء حَاجز أو عن بُعد، والتّنبؤ).

وقَد تُعزىٰ إِصَابة الإِنسَان في التّنبؤ إِلىٰ الصّدفة، ولكن جَمعيات المبَاحث النّفسية أثبَتت كَذب هذه الدّعوىٰ بصُورة قَاطعة، فَقد أثبت (السّير أوليفر لودج) عُضو جَمعية المبَاحث النّفسية البريطانية والعَالم الطّبيعي المَشهور، أَنَّ قُدرة

الإنسَان عَلىٰ التّنبؤ أعلىٰ جدّاً من مُستوىٰ الصّدفة حَسب قَانون الإحتمَالات.

وعَلىٰ أثر إطلاع البروفيسور (راين) عَلىٰ حِلم عَجيب ذي تفَاصيل عَجيبة دَقيقة تَحقق في الخَارج بحذَافيره، أُسّس في سَنة (١٩٣٠م) فَرعاً في جَامعة (ديوك) في ولاية كارولينا الشّمالية في أمريكا لدرَاسة القوىٰ النّفسية درَاسة مُختبرية.

وقَد أيّده وسَاعده في عَمله (وليم مكدوجل) البَاحث النّفساني المَشهور.

وقَد اتّخذ (راين) في بَحثه طَريقاً غير طَريق جَمعيات المبَاحث النّفسية، فَبينما كَانت تِلك الجَمعيات تَهتم بذوي المواَهب الخَارقة وحدهم اهتم هو بفحص الفَرد العَادي لمَعرفة مُقدار مَا لَديه من قوىٰ خَارقة. وقد أثبَتت التّجارب المُتعددة الَّتي أجرَاها (راين) وغَيره، أَنَّ الإنسَان يَملك في الغَالب قُدرة عَلىٰ الحَدس بمُعدل يَفوق مُعدل الصّدفة قَليلاً أو كَثيراً.

وذَلكَ هو ما أثبَته اختبار جَامعة «كولورادو» الَّذي أُجري عَلىٰ ثلاَثمئة شَخص.

وقَد أثَارت تجَارب (راين) ضجّة كُبرىٰ في الأَوساط العِلمية، حتّىٰ لَقد حَاول بَعض البَاحثين أَنْ يَجري تجَاربه سرّاً مخَافة أَنْ يَنفضح أمرَه بَين زُملائه فيكون مَوضع السُّخرية منهُم.

ويَروي (راين) أَنَّ أحد البَاحثين في أمريكَا تَوصل في تجَاربه إلىٰ نتَائج هامّة، ولكنّه امتنع عن نَشرها وقَالَ: إنّ عَائلتي تُريد طعَاماً. أي أنّه يَخشى نَشر أبحَاثه فتَعزله الجَامعة الَّتي يَعمل فيها وتَبقىٰ عَائلته بغَير طعَام.

وقَد كان من آثار هَذه الضَّجة أَنْ اجتمع مُؤتمر الإحصاء الرّياضي في أمريكَا ونَاقش النّاحية الإحصائية من أبحَاث (راين)، ثُمّ أذَاع البلاَغ التالي:

«إنّ أبحاث ـ راين ـ لها ناحيتان: تجريبيّة وإحصائيّة. والرّياضيون لاَ يَستطيعون أَنْ يقُولوا شيئاً عن الجَانب التّجريبي مِنها. أمّا النّاحية الإحصائيّة، فَقد أظهَرت الأَبحاث الرّياضيَّة الحَديثة أَنَّ التّحليل الإحصائي فيها صَحيح. وإذَا كَان من المُمكن أَنْ تُهاجم أبحَاث (راين) فإنّها يَنبغي أَنْ تُهاجم من نَاحية أُخرىٰ غَير النّاحية الرّياضيَّة».

ويَظهر أَنَّ الرّأي العِلمي أخذ يتّجه حَديثاً إلىٰ الإعتراف بحَقيقة هذه القوىٰ الخَارقة، وقد أدلىٰ (البروفيسور ثولس) أُستاذ عِلم النّفس بجَامعة كمَبردج ببيَان في هَذا الصّدد قَالَ فيه:

«إنّ هذه الظّاهرة يَجب أَنْ تُعتبر حَقيقة ثَابتة كأيّة حَقيقة أُخرىٰ توصّل إلَيها البَحث العِلمي، فلنَترك إذن أمر البَرهنة عَلىٰ وجُودها في سَبيل إقناع المُرتَابين، ولنَتوجه عُوض ذَلكَ نحو الإستمرار عَلىٰ درَاستها بقدر الإمكان، فإنّنا بإطلاعنا عَلىٰ طَبيعتها اطلاعاً أوفىٰ نَجد الصّعوبات الّتي تكتَنف التّصديق بوجُودها قد قَلّت إلىٰ حدٍّ بَعيد»[1].

(١) هَذا البَحث مُقتبس من الدّكتور عليّ الوردي: خوَارق اللاّشعور: ١٧٦ ـ ١٦٥. ولأجل التوسع في المَوضوع يُحسن بالرّاغب مُراجعة: عَلىٰ أطلاَل المَذهب المَادي بأجزَائه الأَربعة للبَاحث مُحمَّد فَريد وجدي، فقَد أفَاض إفاضة طَيبة في النّاحية الوَصفية للمسألة.

التَعلِيل العِلمي لِظَاهِرة المُغيَبات

وإذْ قَد أُعتبرت هَذه الظّاهرة شَيئاً وَاقعاً لاَ سَبيل إِلىٰ نُكرانه فَقد اتّجه العُلماء إِلىٰ تُبيُّن القَانون العِلمي الَّذي يُمكن إِدراجها فيه، وإِلىٰ مَعرفة مَاهية هَذه القوىٰ ومصَادرها في الإِنسَان.

وقَد وضعت لأَجل هذا فَرضيات كَثيرة تَعتمد كلّ واحدة مِنها وجهة نَظر مُعينة في المسَائل الطّبيعية، ولَكن لفَرضية ـ سينل ـ من بَين هذه الفَرضيات مُـؤيدين كَثيرين، ويَبدو أَنَّ عَدداً كَبيراً من العُلماء الطّبيعيِّين يَميلون إِلَيها، وذَلكَ لمَا فيها من بسَاطة وملاَئمة للنّظريات الفيزيائيَّة الحَديثة.

فالرأي السّائد بين الفيزيائيِّين يتّجه إِلىٰ اعتبار الكون كلّه مُولّفاً مـن أمـوَاج كهربائية، وما المَادة إِلاَّ أمواج كَهربائية قد كُورت في حَيز ضَيق.

وعَلىٰ هذا الأَساس يَبني ـ سينل ـ فَرضيته، فهو يرىٰ أَنَّ كلّ مَادة في الكَون تَبعث ذَبذبات وأمواجاً أَثِيرية خاصّة لاَ تُدركها الحوَاس الخَمس «وهَذه حَقيقة قرّرها البروفيسور (دنكان) أُستاذ العُلوم الطّبيعية في جَامعة نيويورك سَابقاً».

ويُؤيد فَرضية ـ سينل ـ هَذه أَنَّ الأَبحاث الحَديثة اكتشفت أنوَاعاً مُعينة مـن الأَمواج الكهربائية تَنطلق من دماغ كلّ إِنسَان. ويَذهب الدّ كتور (دايـفس) إِلىٰ القَول بأنّ كلّ فَرد يَطلق من رأسه أموَاجاً دماغية خاصّة به دون غيره.

وإذن، فسبب هذا الإحساس الخارق هو أنَّ منطقة مُعينة من جِسم الإنسان تَتلقىٰ أمواجاً كَهربائية يَتأثر بها الإنسان من حَيث لاَ يَشعر.

وقَد اُعترض عَلىٰ هذا التَّفسِير:

أوّلاً: بأنّ الأمواج الكَهربائية تَضعف ببُعد المسَافة، وقد اُكتشف البَاحثون أنَّ الإحساس الخَارق لاَ يتأثر بالمسَافة.

وثَانياً: بأنّ التّنبؤ يَدخل في جُملة الظّواهر الخَارقة عندَ الإنسَان كمَا عَرفت، وهَذا يُنافي فَرضية الأَمواج إذْ لاَ يَتصور صدُور أموَاج من شيء لَم يُوجد بَعد.

وقَد أُجيب عن الإعتراض الأوّل بأنّ سُرعة الأَمواج الكَهربائية تَختلف بإختلافها طُولاً وقُصراً، فالمَوجة القَصيرة لاَ يُؤثر عَليها البُعد والقُرب، وقَد تكُون الأَمواج الّتي يُطلقها الدّماغ ويَتلقاها من أقصَر الأَمواج الكَهربائية.

وأمّا التّنبؤ فيُمكن أنْ يُبنىٰ عَلىٰ نَظرية (البرت أينشتاين) في الزّمان.

يَختلف تَصورنا التّقليدي للفضَاء عن تَصور (أينشتاين) له. فالفضَاء ـ كمَا نَتصوره ـ فرَاغ ذو ثلاَثة أبعَاد: الطّول والعرض والإرتفاع، بَينما يَذهب (أينشتاين) إلىٰ أنّ للفضَاء أربعَة أبعَاد: الطّول والعَرض والإرتفاع والزّمان.

وإذن، فللزمان، في النّظام المَوضوعي للكَون، كيَان حَقيقي ولَيس عبَارة عن اُختراع أقررّناه لنُقيس أعمَالنا. وهو، لذَلك، بُعد للفَضاء لاَ يَفترق عن الأَبعاد الثّلاثة الأُخرىٰ، غَير أنّنا لاَ نَعيه لأَنَّ أدوات الإدراك عندَنا قَاصرة عن إدرَاكه.

ومَعنىٰ هَذا أَنَّ التّنبؤ عن حوَادث المُستقبل لاَ يَختلف في جَوهره عن الإحساس بأشيَاء مَوجُودة في الوَقت الحَاضر، فالنّفس البَشرية الّتي تَستطيع أَنْ تَخترق حَاجز المسَافة المكَانية بما تَملك من قوىٰ خَارقة تَستطيع أيضاً أَنْ

تَخترق حَاجز المسَافة الزّمانية بهذه القوىٰ. إِنّها قد تُبصر بها شيئاً مُغيباً عَنها في ثنَايا المُستقبل، بنَفس السّهولة الَّتي تُبصر بها شيئاً مُغيباً عنها في أحـد الأَبـعَاد الثّلاثة الأُخرىٰ من الفَضاء.

والأَمواج الكهربائية عَلىٰ مُختلف أنوَاعها تَتحرك في فضَاء ذي أربعَة أبعَاد، أي الأَبعاد الثّلاثة مُضافاً إِلَيها بُعد الزّمان، والقَرائن الَّتي تَدل عَلىٰ هَذا هي:

أوّلاً: كَشَفت الأَبحاث الفيزيائيّة الحَديثة أنّ شعَاع الضّوء يَظهر عَـلىٰ شَكـل مَوجات تَارة وعَلىٰ شَكل دفقَات مُتتالية تَارة أُخرىٰ. وقد حَار العُلماء في تَفسير هذَا الإِزدواج العَجيب في شَخصية الشّعاع الضّوئي. ومن المُحتمل أنّنا حِين نَرىٰ الضّوء عَلىٰ شَكل دَفقات مُتتالية، إِنّما نَستبين منهُ قِمم المَوجات فَقط أمّا البَقية المُختفية من المَوجات فتَذهب في الزّمان أي في البُعد الرّابع، لأَنَّ أموَاج الضّوء تَتحرك في فضَاء ذي أربعَة أبعَاد.

ثَانياً: كَشفت الأَبحاث الذُّرية عن أَنَّ الالكترون يَقفز دَاخل الذّرة من مَدار إِلىٰ آخر ولاَ يَلتزم مَداراً ثَابتاً. وهو حِين يَقفز من مدَار إِلىٰ آخر لاَ يَمر بالمسَافة الَّتي تفصل بين المَدارين، إِنَّه يَختفي من مدَار ليظهر في المدَار الآخر. فأين يَـذهب أثنَاء القَفز؟ إِنَّه في الظّاهر يَذهب في الزّمان الَّذي هو بُعد رَابع، لأَنّه يَسبح فـي فضَاء ذي أربعَة أبعَاد.

ثَالثاً: لاَ يَخضع الالكترون في سَيره لقَانون، وإِنَّما هو يَسير سَيراً عشوَائيّاً في الظّاهر. وهُناك طَائفَة كَبيرَة من العُلماء يُفسرون هَذه الحَركَة العَشوائية في سَـير الأَلكترون بأَنّها نَاتجة عن قصُورنا عن مُراقبة حَركته عَلىٰ نَحو صَـحيح، وذَلكَ أنّنا، في نَظر هؤلاَء العُلماء، نُراقب ظلّ الأَلكترون فقط ولاَ نَسـتطيع أنْ نُـراقـبه

نَفسه لأنّه يَتحرك في فضَاء ذي أربعَة أبعَاد، ونحنُ نُراقبه من خلاَل أبعَادنا الثّلاثة، فهَذه الفُوضىٰ الَّتي نرَاها في سَير الألكترون إنَّما تَرجع إلىٰ أنّنا لاَ نَراه نفسه وإنَّما نَرىٰ ظلّه، لأنَّ مَا يَتحكم في سَيره كَامن في الزّمان الَّذي هو بعد يَخضع له الألكترون في سَيره.

فهَذه الفَرضية، فَرضية سَير الأَمواج الكَهربائية في فضَاء ذي أربعَة أبعَاد، لاَ نَجد صعُوبة في قبُولها بنَاء عَلىٰ مَا جَاء به (أينشتاين) من مفهُوم جَديد للزمَان والمكَان. وعَلىٰ هذا، فالتّنبؤ بحوَادث المُستقبل لَيس مُستحيلاً، لأَنَّ الأَمواج الخَفية الَّتي تُساعدنا عَلىٰ الإحساس الخَارق لاَ يَصعب عليها أَنْ تتّصل بالمُستقبل وتَكشف مَا يَحدث فيه، فهي تَتحرك في كون لَيس فيه مُستقبل ولاَ مَاض[1].

* * *

وإذَن فهَذه الظّاهرة الَّتي تَشمل الرّؤية عن بُعد، وانتفال الأَفكار، والتّنبؤ، أمر وَاقع لاَ سَبيل إلىٰ نُكرانه، كمَا اعترف بذلك جَمهرة من العُلماء الأَثبَات مَرّت عَليك أسمَاء بَعضهم.

وقَد عَرفت أيضاً أَنَّ العِلم الحَدِيث يتّجه إلىٰ البَحث عن مَاهية هَذه الظّاهرة وحَقِيقتها.

وَقَد رَأيت الفَرضية الَّتي يُفسّرون بها هَذه الظّاهرة، وهي، إذَا صحّت، لاَ تُبين لنا حَقِيقتها ومَاهيتها، فالعِلم لاَ يعرف عن مَاهية هَذه الأَمواج النّفسية شيئاً وإنَّما تُوضح آليَات عَملها ومجَالاته.

(١) هَذا البَحث مُقتبس من الدّكتور عليّ الوردي: خوَارق اللاّشعُور: ١٧٩ ـ ١٩٦.

وإذا كان العلم الحديث يقبلها كحقيقة موضوعية لا مراء فيها.

وإذا كان العلماء المحدثون يسعون إلىٰ الكشف عن حقيقتها والتعرف علىٰ آلياتها فهل يبقىٰ بعد ذلك مجال لنكرانها لأننا لا نعرف ماهيتها؟ أللّهم لا، لأننا سنكون حينئذٍ كذلك الأعمىٰ الّذي ينكر وجود النّور لأنّه لا يراه.

وإذ كانت هذه الظّاهرة حقيقة واقعة، وإذ كانت القوانين العلمية الحديثة لا تأباها، فلا حرج علينا إذن في أنْ ندرسها عند أمير المؤمنين عليه السلام، كما تبدو لنا في نهج البلاغة وغيره.

المُغيبات في نَهْج البَلاَغَة

قَد دلّت الأَبحاث الحَديثة كمَا عَرفت عَلىٰ أَنَّ كلّ إِنسَان يَملك مُقداراً من هَذه القوّة الخَارقة الَّتي تَكشف لهُ عمّا ٱضطمت عَليه أحشَاء المُستقبل، ولَكن النّاس إِذَا تسَاووا في نوع هذه القوّة فإِنّهم يَختلفُون في مُقدارها.

فَقد ثَبت أَنَّ هذه الحَاسة تُوجد عندَ بعض النّاس بقوّة تُـثير الدَّهشـة، بَـينما تُوجد في بعض آخر عَلىٰ حَال من الضّعف والوَهن لاَ تكَاد تُبين معهُ، فمَا السّبب في هذا التّفاوت؟.

لَقَد تَبين للبَاحثين أَنَّ قوّة هذه الحاسّة تَتناسب تنَاسُباً طَردياً مع درَجة الصّفاء الرّوحي والنّقاء الدَّاخلي الَّتي يَتمتع بها الشّخص، فكلّما كَـان الإِنسَـان صَـافي النّفس، نَقي الضّمير، مُنعتقاً من أسر التّقاليد الإِجتمَاعيّة الضّارة، مُتفلتاً من قَيد الضّرورة ومَا إِلَيها، خَالي النّفس من العُقد والأَحقاد والمَطامع، كَانت هَذه الحَاسّة فيه قوّية بَالغة القوّة، وكلّما كَان الإِنسَان مُشوش النّفس مُوزع الضّمير مُستغرقَاً في حوَاسه، أسيرَاً لضَرورات جَسده وشهوَاته، غَارقاً في مُجتمعه، كَـانت هـذه الحَاسّة فيه ضَامرة لاَ تكَاد تبين[1].

(١) هَذا البَحث مُقتَبس من الدّكتور عليّ الوردي: خوَارق اللاَّشعُور.

فهذه الحاسّة لاَ تنشط إلاّ في سَاعات الصّفاء العَقلي والرّوحي والوجدانـي، فعندَ ذَلكَ تَبلغ أقصىٰ قوّتها.

فَإذا شِئنا أَنْ نَبحث عن هذه الظّاهرة في حيَاة الإمَامﷺ طَالعتنا فيه عَلىٰ أتمّ وأكمَل ما تكُون، فَلقد بَلغ من الصّفاء الرّوحي حدّاً لم يُدانـه فـيهِ إنسَـان عَـلىٰ الإطلاق ولم يَزِدْ عَليه فيه إلاّ النَّبيّﷺ.

وتَأرِيخ حيَاتهﷺ سلسلَة ذَهبية من هذه الظّواهر الرّائعَة الفَاتنَة.

وإذَا صَح أَنَّ تجرداً وصفَاءً وقتيين يقوم بهما إنسَان عَادي يُتيحان لهُ إطـلاق قوّاه الخَارقة، فمَا قَولك فيمن كَانت حيَاته كلّها تَجرداً رُوحيّاً وصفَاء لاَ يَعدله في بني الإنسَان صفَاء؟.

إنّ هذه الظّاهرة الّتي تَبدو لأَعيننا في تأرِيخ حيَاته لتدلّ عَلىٰ أنّه كَان يَدخل في وسعه أَنْ يُطلق قوّاه الخَارقة مَتىٰ أرَاد، وأَنْ يَعي مَا غَاب عـنهُ فـي أحشَـاء الزّمان وطوايا المكَان مَتىٰ شَاء.

ويَصدق قَولنا هذا مَا أثبَته المؤرّخون وتَسالموا عَليه من إخبارَاته بالمُغيبات وصَدق ما أخبَر به ووقُوعه بَعده بأزمَان.

* * *

لَم يَعن الشّريف رَحمه الله، حِين آلىٰ عَلىٰ نَفسه أَنْ يَجمع كـلاَمهﷺ، بـهَذه النّاحية عنَاية تَستحق الذّكر، فمَا في نَهج البَلاَغة من إخباراته بالمُغيبات لاَ يَبلغ عُشر مَا نُسب إلَيه وصحّ عنهُ.

وهَذه الطّائفة الّتي ذَكرها الشّريف من إخباراته تَجيء عَلىٰ أقسَام:

١ ـ غَرق البَصْرَة.

٢ ـ تَسلط الظّالمين عَلىٰ الكُوفة.

٣ ـ تَغلب مُعَاوية عَلىٰ الخلاَفة.

٤ ـ مَصير الخوَارج ونهَاية أَمرهم.

٥ ـ مَروان وخلاَفته.

٦ ـ حَرب الزّنج.

٧ ـ ولاَية الحجّاج.

٨ ـ الأَترَاك.

٩ ـ بَنو أُميَّة: ظُلمهم ونهَايتهم.

١٠ ـ خُروج المَهدي عَجّل الله فَرجه.

١١ ـ فِتن تَشمل الدُّنيا وتَهلك الحَرث والنّسل.

في هذه العنَاوين يَنحصر ما ذكره الشّريف في نَهْج البَلاَغة من الإِخبار بالمُغيبات، وسَنَتكلم في كلّ واحد من أُولئك عَلىٰ حدة. ذَاكرين بَعد ذَلكَ مَا أهمَله الشّريف ولَم يُعن بهِ.

* * *

لَقد تَحدث الإِمَامعليه‌السلام عن عِلمه بالمُغيبَات في مُناسبَات كَثيرة مِنها قَوله:

«أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ،

فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ

غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا. فَسَأَلُونِي

قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونِي

عَنْ شَيْءٍ فِيما بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلاَ عَـنْ فِـئَةٍ تَهْدِي مِائَةً، وَتُضِلُّ مِائَةً، إلاَّ أَنْـبَأْتُكُمْ بِـنَاعِقِهَا[١]، وَقَائِدِهَا، وَسَائِقِهَا، وَمُنَاخِ[٢] رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً. وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي، وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِـهُ الأُمُـورِ[٣]، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ[٤]، لأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّـائِلِينَ، وَفَشِـلَ كَـثِيرٌ مِـنَ الْـمَسْؤُولِينَ، وَذلِكَ إِذَا قَـلَّصَتْ حَرْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلاَءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ»[٥].

وقَد ذَكرعليه السلام أنّه آستقىٰ عِلمه هَذا من رسُول الله صلى الله عليه وآله.

فقَد أتىٰ في كلاَمٍ لهُ بَعد أنْ هزم أصحَاب الجَمل في البَصْرَة، علىٰ ذِكر بَعض مَا يَلم بالبَصرة من الخُطُوب، فذَكر فِتنة الزّنج[٦] وذَكر التّتر، فقَال لهُ بعض أصحَابه لَقد أعطَيت يَا أَمير المُؤمِنين عِلم الغَيب، فَضحك الإِمَام وقَالَ للرَّجُل:

---

(١) نَاعِقِهَا: الدَّاعي إِلَيها مَأخُوذ من «نَعق بغنمه» إذَا صَاح بهَا لتجتمع.

(٢) مُنَاخِ فِي الأَصل: مَحل بُروك الإبل، آستعمل هُنا للتّعبير عن مَصير الفِئة الضَّالة أو الهَادية ونهَايتها.

(٣) كَرَائِهُ الأُمُورِ: جمع كَرِيهَة، المَصَائب الكُبرىٰ.

(٤) الحَازِبُ الْخُطُوبِ: الخَطب الشّدِيد، يُقال «حَزبه الأمر» إذَا آشتَد عَليه.

(٥) أنظر، نَهج البلاَغة: الخُطبَة (٩٣) «أسألوني».

(٦) يَقصد الشّيخ (رحمه الله) الخُطبَة الَّتي أشَار إِلَيهَا الإِمَام عليّ تَحت رَقم (١٢٨): (يَا أَحْنَفُ كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ، وَلاَ لَجَبٌ، وَلاَ قَـعْقَعَةُ لُـجُمٍ، وَلاَ حَـمْحَمَةُ خَـيْلٍ يُـثِيرُونَ الأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ؛ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ)، قَالَ الشّرِيف يُومىء بذَلِكَ إِلىٰ صَاحب الزّنج.

«لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1]، فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ، أَوْ أُنْثَىٰ، وَقَبِيحٍ، أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ، أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ، أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ[2] عَلَيْهِ جَوَانِحِي»[3].

وقَالَ مُخَاطباً أصحَابه في مَوقفٍ آخر:

«وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ، وَمَوْلِجِهِ[4]، وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. أَلاَ وَإِنِّي مُفْضِيهِ[5] إِلَىٰ

(١) لُقمَان: ٣٤.

(٢) تَضْطَمّ: إفتعَال، من الضّم، أي وتَنظم عَليه جوَانحي، والجَوَانح: الأضلاَع تَحت التَرائب ممّا يَلي الصّدر، وأنضمَامها عَليه: أشتمالها علىٰ قلب يَعيها.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٢٨) «لَيسَ هُوَ بِعِلمِ غَيبٍ».

(٤) المَخرَج: مَحل الخُروج، والمَولج: مَحل الوُلوج، الدّخول، أي: أخبَره من أين يَخرج، وأين يَدخل.

(٥) مُفضِيه: أصلَه من «أفضَىٰ إليه» إذَا خلاَ به. والمُراد أنّه مُوصله إلىٰ أهل اليَقين ممّن لاَ تخشىٰ عليهم الفِتنَة.

الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَٱصْطَفَاهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَىٰ مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هَذَا الأَمْرِ. وَمَا أَبْقَىٰ شَيْئاً يَمُرُّ عَلَىٰ رَأْسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ، وَأَفْضَىٰ بِهِ إِلَيَّ»[١].

وقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي[٢]، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ[٣] عِصْيَانِي، وَلاَ تَتَرَامَوْا بِالأَبْصَارِ[٤] عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ[٥]، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ صلى الله عليه وآله، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَلاَ جَهِلَ السَّامِعُ»[٦].

في هَذه النّصوص يُصرّح الإمام عليه السلام بأنّ عِلمه بالمُغيبات جاءه عن طَريق رسُول الله صلى الله عليه وآله.

والّذي يَستوقفنَا في هذا هو أنّنا لاَ نَستطيع أَنْ نتصور أَنَّ النّبيّ قَد أفضىٰ إلىٰ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٧٥) «أيُّهَا الْغَافلُون».

(٢) لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لاَ يَحملكم ويَكسبنّكم، «شِقَاقِي» عصيَاني. أي لاَ يَكسبنّكم عصيَاني الخُسران والضّياع.

(٣) لاَ تَقعوا فِي هوىٰ العصيَان.

(٤) تَترَامَوا بالأبْصَار: يَنظر بَعضكُم إلىٰ بَعض تَعجُباً وٱستنكَاراً.

(٥) أَنبت الحَبّة، وخَلق الرّوح.

(٦) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٠١) «كُلّه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله»، ولاَحظ في النّص رَقم (١٦) قَوله: «وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ، وَهَذَا الْيَوْمِ».

الإمَام بكلّ حَادثة من الحوَادث المُقبلة عَلىٰ نحو التّفصيل، لأَنَّ الظّرف الزّماني الَّذي جَمع بَين النَّبيّ والإمَام لاَ يَسع شَيئاً مِثل هذَا حتّىٰ لو فَرضنا أَنَّ الإمَام قَد اَختص بأوقَات فرَاغ النّبيّ كلّها، فهُوعليه‌السلام يقول:

«فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاٰ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلاٰ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً، وَتُضِلُّ مِائَةً، اِلاّٰ أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا»[1].

ويقول عليه‌السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا، وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا»[2].

وَيَقول عليه‌السلام:

«وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ، وَمَوْلِجِهِ، وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ صلى‌الله‌عليه‌وآله. أَلاٰ وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَىٰ الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاَصْطَفَاهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ اِلاّٰ صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَىٰ مَنْ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٩٣) «اَسْأَلُونِي».
(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٨٩) «فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ».

يَنْجُو، وَمَآلِ هَذَا الأَمْرِ. وَمَا أَبْقَىٰ شَيْئاً يَمُرُّ عَلَىٰ رَأْسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ، وَأَفْضَىٰ بِهِ إِلَيَّ»[١].

فهذا عِلم وَاسع بَالغ السّعة مُتراحب الآفَاق، ومَهما يكُن الظّرف الزّماني الّذي قضَاه الإِمَام مع النّبيّ طَويلاً، ومَهما تكن الأَوقات الخاصّة الّتي يَفرغ فِيها النّبيّ للإِمام وحده طَويلة وكَثيرة، فإِنّ ذَلكَ كلّه لاَ يَسع الإِفضاء ببَعض هذا العِلم إِلىٰ الإِمَام عَلىٰ نحو التّفصيل، بحَيث يتنَاول التّعلِيم الجُزئيات الدّقيقة، والتّفصيلات الكَثِيرة، فضلاً عن أَنْ يَسع الإِفضاء إِلَيه بكلّ هذا العِلم عَلىٰ هذا النّحو من الإِفضَاء.

وإِذ كانت الحَال عَلىٰ هذا فلاَ نَستَطيع أَنْ نَتصور أَنَّ النّبيّ ﷺ قد أفضى إِلىٰ الإِمَام بكلّ حَادثة من الحوَادث المُقبلة إِلىٰ قيَام السّاعة عَلىٰ نحو التّفصيل، ولَكن الإِمَام عليه السلام يُصرح بما لاَ يَدع مجالاً للشّك بأنّه قَد ٱستقىٰ عِلمه هذَا من النّبيّ ﷺ، فكَيف السّبيل إِلىٰ مُلاءمة هذا الّذي يَقوله الإِمَام مع مَا تَبين لنَا من عَدم ٱستيعَاب الظّرف الزّماني للإِفضاء بكلّ هَذه العُلوم؟.

الّذي أرَاه هو أَنَّ النّبيّ ﷺ لم يُفْضِ إِلىٰ الإِمَام بالمُغيبات عَلىٰ نَحو التّفصِيل الّذي يَلّم بجَميع الجُزئيات، فَقد رَأينا أَنَّ العَقل يُحيل ذَلكَ لأَنَّ الزّمان مَهما يَطلْ لاَ يتّسع له. وإِنّما أفضىٰ إِلَيه بهَذه المُغيبات عَلىٰ نحو الإِجمال لاَ التّفصيل.

فقَد رَأينا أَنّ نشَاط هذه القوىٰ الخَفيّة المُودعة في الإِنسَان والّتي تَصله بالمجهُول المحجُوب في أحشَاء الزّمان أو ثنَايا المكَان، يَتوقف عَلىٰ الحَالَة العَقلية والرّوحية والوجدَانية الّتي يكُون عَليها الإِنسَان، فكلّما كَان الإِنسَان عَلىٰ

(١) أنظر، نَهج البلاَغة: الخُطبَة (١٧٥) «أيُهَا الغَافلُون».

حَال رَفيعة من الصّفاء العَقلي والطّهارة الرّوحية والنّقاء الوجدَاني كَـانت هَـذه القوىٰ أنشَط وأبلَغ في النّفوذ إلىٰ المُغيّب المَحجُوب، والّـذي نـرَاه بـالنّسبة إلىٰ الإمَامعليه السلام هو أنّ النّبيّ قد أخبَره بالمُغيبات عَلىٰ نحو الإجمال ثُمّ هَداه إلىٰ أقوم السّبل الّتي تؤدي به إلىٰ أرفع درجَات هذه الحَالَة الرّوحية الّتي تُتيح لقوَاه الخَفية أنْ تَعمل عَملها الخَارق فيَعي بسَببها تَفصيل ما أجمَله لهُ رسُول اللهصلى الله عليه وآله.

وبهَذا التّفسير وحدَه نَستطيع أنْ نُلائم بَين عِلم الإمَام الوَاسع بالمُغيبات الّذي يَسنده إلىٰ الرّسول وبَين الظّرف الزّماني الضّيق نِسـبيّاً الّـذي جَـمع بَـينه وبَـين الرّسول، ولَيس هذا التّفسير اعتبَاطيّاً فَلدينا عَليه شَاهد مقبُول.

وهَذا الشّاهد الّذي نَعني هو أنّ النّبيّصلى الله عليه وآله خلاَ بالإمام فَأدخله في ثَوبه ونَاجَاه في اللّحظات القَليلة الأَخيرة الّتي قُبض بَعدها، فلّما فَرغ من نجوَاه خَرج الإمَام من عندَه فسأَله النّاس عمّا أفضىٰ به إلَيه فقَال: «أَنَّ رَسُول الله عَلّمَني أَلف بَاب مِن العِلْم، وَيفْتَح كُلّ بَاب أَلف بَاب»(١).

فمَهما كَانت اللّحظات الّتي خلاَ بها النّبيّ مع الإمَام كَثيرة لاَ نَستَطيع أَنْ نَتصور كَيف أفضىٰ إلَيه فيها بألف بَاب من العِلم عَلىٰ نحو التّفصيل، لأنّها مَهما طَال مدَاها لاَ تتّسع للإفضاء ببَعض هَذا العَدد الكَبير، فلاَ بُدّ من القَول بأنّه أفضىٰ إلَيه بـهَذه الأَلف بَاب عَلىٰ نحو الإجمال وذَلكَ بإعطاء الضّوابط الكُبرىٰ الّتي تَشمل كَـثيراً من الأَبوَاب.

(١) أنظر، تأرِيخ دِمَشق ابن عَساكر: ٤٢ / ٣٨٥، البدَايَة وَالنّهاية لابن كَثِير: ٧ / ٣٩٦، سِير أَعلاَم النُّبلاَء ٨ / ٢٤، مِيزَان الإعتدَال فِي نَقد الرّجَال: ٤ / ١٧٤، الكَامل في التّأرِيخ: ٢ / ٤٥٠، الكَشف الحَثِيث: ١ / ١٦٠ ح ٤١٥، العِلَل المُتنَاهيَة: ١ / ٢٢١ ح ٣٤٧.

ولعلّ قوله: «ينفتح لي من كلّ باب ألف بَاب» أبلَغ دلاَلة عَلىٰ ما نقُول من أنّه علّمه عَلىٰ نحو الإجمال لاَ عَلىٰ نحو التّفصيل، وأنّه اتّكل في مَعرفة الجُزئيات والتّفاصيل إلىٰ ما يَتمتع به الإمَام من موَاهب تُسعفه في مَعرفة ما غَاب وتَهدِيه إلىٰ شَريعَة الصّواب.

* * *

قُلنا إنّ إخبارَاته الّتي ذكرها الشّريف تَجيء عَلىٰ أقسَام، مِنها إخبَاره بمَا يَلم بالبَصرة من الخُطُوب.

فأخبَر بعد فرَاغه من أصحَاب الجَمل، عن غَرق البَصْرَة كلّها بقَوله:

«كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ، رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلاقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَـهْدُكُـمْ شِـقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ[1] سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا، وَمِنْ تَحْتِهَا، وَغَرِقَ مَـنْ فِي ضِمْنِهَا.

وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَيْمُ اللهِ لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتَّىٰ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ[2].

(١) الجُؤجُؤ: الصّدر. هُنا: صَدر السّفِينَة.

(٢) جَثَمَ الطّائر: تلبّد بالأرض، وهَيئة النّعامة الجَاثمة عَلىٰ الأرض كهَيئة السّفينَة من مُقدّمها.

وَفِي رِوَايَةٍ: كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: بِلاَدُكُمْ أَنْتَنُ بِلاَدِ اللهِ تُـرْبَةً: أَقْرَبُهَا مِنَ الْمَاءِ، وَأَبْعَدُهَا مِنَ السَّمَاءِ، وَبِهَا تِسْـعَةُ أَعْشَارِ الشَّرِّ، الْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ، وَالْخَارِجُ بِـعَفْوِ اللهِ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ قَرْيَتِكُمْ هَذِهِ قَدْ طَـبَّقَهَا الْـمَاءُ، حَتَّىٰ مَا يُرَىٰ مِنْهَا إِلاَّ شُرَفُ الْمَسْجِدِ، كَأَنَّهُ جُـؤْجُؤُ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ!»[١].

وقَد صَدقت الحوَادث هَذه النُّبوءَة، فَقد ذَكر آبن أبي الحَدِيد أَنَّ البَصْرَة غَرقت مرّتَين: مرّة في أيّام القَادر بالله[٢]، ومرّة فـي أيّـام القَـائم بأَمـر الله[٣]، غَـرقت بأَجمعها ولَم يَبقَ مِنها إِلاَّ مَسجدها الجَامع بَارزاً كجُؤجؤ الطّائر حَسب ما أَخبر بِهِ أَمِير المُؤمِنين... وخَربت دُورها وغَرق كلّ مَا في ضِمنها وهَلك كَثير من أهلهَا. وأَخبَار هَذين الغَرقَين مَعروفة عندَ أَهل البَصْرَة يَتناقله خَلفهم عن سَلفهم»[٤].

وأَخبَر عن هلاَك البَصْرَة بالزّنج، فقَال مُخاطباً الأَحنف بن قَيس بَعد حَـرب الجَمل:

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (١٣) «أَتبَاعَ الْبَهِيمَةِ».

(٢) القَادر بالله، أبو العبّاس أحمد بن إسحاق بن المُقتدر. بُويع بالخلاَفة فـي يَـوم (١٢ رمـضَان سـنَة ٣٨١ هـ ٣ أكتوبر تَشرين الأَوّل ٩٩١م) وآستمر خَليفة إِلىٰ أَنْ تُوفّي في نهَاية (ذي الحجّة سنَة ٤٢٢ هـ ١٨ ديسمبر كَانون الأَوّل ١٠٣١م).

(٣) القَائم بأمر الله، أبو جَعفر عَبد الله بن القَادر. بُويع بالخلاَفة في (ذي الحـجّة سـنَة ٤٢٢ هـ ١٠٣١م) وآستمر خَليفة إِلىٰ (١٣ شَعبان سنَة ٤٦٧ هـ ٣ إبريل نيسَان سنَة ١٠٧٥م).

(٤) أنظر، شَرح النَّهج لابن أبي الحَديد: ١ / ٢٥٣.

«يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ، وَلاَ لَجَبٌ(١)، وَلاَ قَعْقَعَةُ لُجُمٍ(٢)، وَلاَ حَمْحَمَةُ خَيْلٍ(٣)، يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ(٤)، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ(٥)، مِنْ أُولَـئِكَ الَّذِينَ لاَ يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلاَ يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ(٦)، أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا»(٧).

هَذه النُّبوءَة صدّقتها الحوادث، ففي سنَة خَمس وخَمسين ومِئتين ظَهر

---

(١) اللَّجَبُ: الصِّياح.

(٢) اللُّجُم، جمع لُجام. وقَعْقَعَة اللُّجُم مَا يُسمع من صَوت اضطرَابها بين أسنَان الخَيل.

(٣) الحَمْحَمَةُ: صَوت البرذُون عندَ الشَّعِير.

(٤) السِّكَك: الطُّرق. والْمجَانُّ ـ بفَتح المِيم ـ جمع مِجَن ـ بكَسرها ـ وهو التّرس. ومُطْرَقَةُ: وضَع بَعْضهَا فَوق بَعْض حَتّىٰ صَارت طَبقَتين، أو أكْثَر. والسَّرَق: الحَرِير، والدِّيبَاجَ: سِدَاه، ولحِمتَه حَرِير.
ويَعْتَقِبُونَ: يَحْتَسِبُون. وعِتَاقَ الْخَيْلَ: كَرائِمها. واسْتِحْرَارُ القَتل: اشتدَادَه.
وتَضْطَمّ: تَنضَمّ. والجَوَانِح: الأَضْلاَع مِمَّا يَلِي الصَّدر، والْمُرَاد بِهِ هُنَا القَلْب.
أَجْنِحَةِ النُّسُورِ: رَوَاشنها (جَمع رَوشن، بمَعنىٰ شُرفة «برندة») وذَلكَ عَلىٰ التَّشبيه بأجنحَة الطَّير.

(٥) خَرَاطِيم الدُّور: هي الميَازيب تُطلىٰ بالقَار.

(٦) أصحَاب الزّنجي، وإنّما لاَ يُندب قَتِيلهم، لأنَّ لَيس لهُم زوْجات وأهل يَبكون عَليهم لأنَّهم كَانوا عَبيداً لَيسَت لهُم أُسر.

(٧) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٢٨) «لَيسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ».

المَدعو عَليّاً بن مُحَمَّد بن عَبد الرّحيم[١] وجَمع الزّنوج وخَرج بهم عَلىٰ المُهتدي العبّاسي[٢]، وٱستَشرىٰ أمره، وكَاد يُبيد البَصْرَة ويُفني أهلهَا، وٱستمرت الحَرب بَينه وبَين السّلطة المَركزية خَمسة عَشر عاماً، فَقد قُتل في سنَة سَبعِين ومِئتين، وقَد كَتب ٱبن أبي الحَدِيد فَصلاً كَبيراً عن هَذه النُّبوءَة[٣].

ولاَ يَفُوتنا التَّنبيه عَلىٰ تَنبُوئه عليه السلام، في النّص الآنف، بمَا ستكُون عَليه حَال البَصْرَة من النّاحية العُمرَانية.

---

(١) زَعم أنّه عَلي بن مُحَمَّد بن أحمَد بن عِيسَىٰ بن زَيد بن عليّ بن الحُسَين بن عليّ بن أبي طَالب، ولَكن ذَكره صَاحب الأعلام: ٤/ ٣٢٤، وٱبن خُلدون: ٤/ ١٨، فقَالا: هو عليّ بن مُحَمَّد الورزنيني العَلوي، المُلقب بصَاحب الزّنج، من كبَار أصحَاب الفِتَن في العَصر العَبّاسيّ، وفتنته مَعروفة بفِتنة الزّنج، لأنّ أكثَر أنصَاره مِنْهُم، وُلد ونَشأ في ورزنين، إحدىٰ قرىٰ الرّي، وظَهر في أيّام المُهتدي بالله العَبّاسيّ سَنَة (٢٥٥ هـ).

كَانَ يَرىٰ رَأي الأزارقة، وٱلتف حَوله سُودان أهْل البَصْرَة، ورعَاعها، وبَلغ عَدد جَيْشه ثمنمئة ألف مُقَاتل، وقد عَجز عن قتَاله الخُلَفَاء، حتّىٰ ظفر بِهِ المُوفق بالله فَقتله سَنَة (٢٧٠ هـ)، وبَعث برَأسه إلىٰ بغدَاد.

قَالَ المرزباني: تُروىٰ لهُ أشعَار كَثيرة في البسَالة، والفَتك كَانَ يَقُولها ويَنحلها غَيره.

وفي نَسبه العَلوي طَعن وخلاَف. أنّه من عَبد القَيس، وأنّه عليّ بن مُحَمَّد بن عبدالرّحيم، وأُمّه أسدية من أسد بن خُزَيْمَة جدّها مُحَمَّد بن حَكيم الأسدي، من أهْل الكُوفَة، أحد الخَارجين مع زَيد بن عليّ بن الحُسَين بن علي بن أبي طَالب عليهم السلام علىٰ هِشام بن عَبدالملك، ولمّا قُتل زَيد عليه السلام، هَرب ولحق بالرّي، وسَكن القَرية الّتي يُقَال لها ورزنين، وكَانَ مَولد أبوه في طَالقان، ثُمّ قَدم العِرَاق وٱشترىٰ جَارِيَة أسدية فَأولدها مُحَمَّداً أبَاه.

أُنظر، مُروج الذّهب: ٤/ ١٩٤، شَرح نَهج البَلاَغَة لابن أبي الحَدِيد: ٨/ ١٣٠، مُعجَم الشُّعَرَاء للمرزباني: ٢٩، تَأرِيخ الطّبري: ١١/ ١٧٤، تَأرِيخ دمشق: ٥٢/ ٢٢٠، سِير أعلاَم النُّبلاء: ١٥/ ١٤٣، البدَاية والنّهاية: ١١/ ٤١، الكَامل في التّأرِيخ: ٧/ ٢٠٥.

(٢) المُهتَدي بالله، مُحَمَّد بن هَارون الوَاثق، ٱبن المُعتصم بن الرّشيد بُويع لهُ بالخلاَفة يَوم (٢٧ رَجب سَنة ٢٥٥ هـ ١١ يوليو/ تمّوز ٨٦٩م)، وخُلع في (١٤ رَجب سَنة ٢٥٦ هـ ١٧ يونيو سنَة ٨٧٠م).

(٣) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٢/ ٣١٠ ـ ٣٦١.

وأخبَر عن هلاك البَصْرَة بالتَّتر فقال عليه السلام:

«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ(١)، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ(٢)، وَالدِّيبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ(٣). وَيَكُونُ هُنَاكَ اَسْتِحْرَارُ(٤) قَتْلٍ حَتَّىٰ يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَىٰ الْمَقْتُولِ، وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ!»(٥).

هَذه النُّبوءَة تَحققت بظهُور التّتار واكتسَاحهم للمَالك حتَّىٰ وصلُوا إِلىٰ العرَاق فَلقيت البَصْرَة منهُم أعظَم البلاَء وأشنَعه، فَقد تَكدّست الجُثث في الشّوارع

---

(١) المَجَان، جَمع مِجن ـ بكَسر الميم ـ وهو الترس، وسُمّي مجناً لأنّه يَستتر به عن العَدوّ، والجُنّة ـ بالضّم ـ السّترة، والمُطَرَّقَة، هي الَّتي الرّق بها الطّرَاق ـ ككتَاب ـ وهو جُلد يُفصل عَلىٰ مقدَار الترس ثُمّ يُلزق بهِ.

أُنظر، البدَاية والنّهاية: ٦ / ٢٥٠، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ١٠ / ٧٩، ينَابيع المودَّة: ١ / ٢٠٦، النّهاية في غَريب الحَديث: ٣ / ١٢٢، أُسد الغَابة: ٥ / ٦٣٤، تَهذيب الكمَال: ٢٨ / ٣٦٤ ح ٦١٢٧، كِتَاب الفِتن لابن حمّاد: ٤١٤، الجَامع الصَّغير: ١ / ٦٥٤ ح ٤٢٥٣، كَنز العُمَّال: ١٤ / ٢٠٥ ح ٣٨٤٠٤، الدُّر المَنثور: ٦ / ٥٤، الكَامل لابن الأثير: ٢ / ١٣٠، عِلل الدّار قُطني: ٩ / ١٨٣ ح ١٧٠٤، مُسند الشّاميّين: ٤ / ٢٦٧ ح ٣٢٣٥، صَحيح أبن حبّان: ١٥ / ١٤٤، المُعجم الأوسط: ١ / ١٩ و: ٨ / ٣١٧، المَجمُوع: ٢٠ / ٨٨، صَحيح مُسلم: ٨ / ١٨٤، سُنن أبي دَاود: ٢ / ٣١٥ ح ٤٣٠٤، السُّنن الكُبرىٰ: ٩ / ١٧٦، الدِّيباج عَلىٰ مُسلم: ٦ / ٢٣٢ ح ٦٢ و ٦٣، مَجمَع الزّوائد: ٩ / ٣١١، سُنن أبن مَاجه: ٢ / ١٣٥٤ ح ٤٠٧٢، مُسند أحمَد: ١ / ٤، صَحيح البُخاريّ: ٣ / ٢٣٣، مُسند أبي دَاود: ١٦١، المصنّف لِابن أبي شَيبة: ١١ / ٣٧٥ ح ٢٠٧٨٢.

(٢) السَّرق: شقق الحَرير الأبيَض.

(٣) يَعْتَقِبُون الخَيْل... أي يَحتَبسُون كرَائم الخَيل لأنفسهم ويَمنعُون غَيرهم مِنها.

(٤) اَسْتِحْرَارُ قَتْلٍ: اَشتدَاد قَتلٍ.

(٥) أُنظر، نَهج البَلاَغة الخُطبَة (١٢٨) «لَيسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ».

والأَزقة وحلَّ بالنّاس منهم خَوف عَظِيم. وقَد وَقعت هذه الأَحداث في زَمن ٱبن أبي الحَدِيد فكَتَب عَنها فصلاً كَبيراً(١).

* * *

وقَد تنبّأ عليه السلام بمَا سَيحلُّ بالكُوفة من الظّالِمين فقَال:

«كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ(٢)، تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ(٣)، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلاَزِلِ(٤)، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلاَّ ٱبْتَلاَهُ اللهُ بِشَاغِلٍ، وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ!»(٥).

وقَد صَدَقت الحوَادث تنُبوءَته، فَقد تَعَاقب عَلىٰ الكُوفَة سلسلَة من ولاَة الجَور، وأعوَان الظّلمة، أذَاقوها الصّاب وسَامُوها العذَاب، فزِياد ٱبن أبيه(٦)،

---

(١) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٢ / ٣٦١ ـ ٣٧١.

(٢) الأَدِيم: الجِلد المَدبُوغ، والعُكَاظِي نِسبة إِلىٰ عُكاظ ـ كغُراب ـ وهو سُوق كَانت تُقيمه العَرب في صَحراء بين نَخلة والطّائف، يَجتمعُون إِلَيه من بدَاية شهر ذي القَعدة ليتعَاكظوا، أي يَتفَاخروا، وأكثَر ما كَان يُباع الأَدِيم بِتلك السّوق فنُسب إِلَيها. وقَوله: «تُمَدِّينَ مَدَّ الأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ» ٱستعَارة لمَا يَنالها من العَسف والشّدائد، كأنّ مَا يَنزل بها من الظّلم يَشبه ما يَنزل بالجِلد حِين يُراد أنْ يُدبغ من الخَبط والدّق.

(٣) تَعرَكِين مَأخوذ من «عَرَكتهم الحَرب» إِذَا مَارَستهم حتّىٰ أتعَبتهم، والنّوازل: الشّدَائد.

(٤) الزّلاَزل: المُزعجَات من الخُطوب.

(٥) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٤٧) «الكُوفَة».

(٦) زِيَاد هَذَا هُو الّذي يُقال لهُ زيَاد بن أَبيه؛ لأَنّه ٱستلحَقه مُعَاويَة وأدّعىٰ أنّه أخُوه لأَبيه، وشَهد لهُ بذلِكَ بَيّنَة شَهد أحدهُم أنّه سَمع عَليّاً يَقول: كُنتُ عند عُمَر بن الخَطّاب فَقدم زيَاد بكِتَاب أبي مُوسىٰ فتَكَلّم زيَاد بكَلام أعجَب عُمَر. فقَال:

«أكُنت قَائلاً هَذَا للنّاس عَلىٰ المِنبر.

فقال: هُم أهون عَليّ مِنك يَا أمير المُؤمِنين.

فقال أبو سُفيَانَ وكَان حَاضراً، هُو أبني.

فَقلتُ: ومَا يَمنعك؟.

فقال: هَذَا القَاعد عَلىٰ المِنبر يَعني عُمَر، ثُمّ شَهد آخر بذَلك.

فقال أبُو مَريَم السّلولي: مَا أدرِي مَا شهَادة عَليّ، وَلكنّني كُنت خمّاراً بالطّائف فمرّ بي أبو سُفيَان في سَفره فَطعم، وشَرب، ثُمّ سَألني فَأتيته بسُميّة جَاريَة بني عَجلان، وهي من أصحَاب الرّايات يَعني زَانية بالطّائف، فوَقع عَليهَا.

فقال: مَا أصبت مثلها، لقَد أستَلت مَاء ظَهري إستلالاً تَبيّنتُ أثر الحَمل في عِينهَا.

فقَال لهُ زِيَاد: مَهلاً يَا أبَا مَريَم! إنّما بُعثت شَاهداً، ولَم تُبعث شَاتماً.

فقَال: قُلتُ الحَقّ، عَلىٰ مَا كَان، ولَو أعفيتمُوني لكَان أحبّ».

أنظر، الطَّبَقَات الكُبرَىٰ لابن سَعد: ٧/ ٥٤، أُسد الغَابة: ٤/ ٢٤٨، الإِصَابَة: ٣/ ٣٤٤ تحت الرّقم «٧١٣١»، نُزهَة الألبَاب في الألقاب: ١/ ٤٢٠ و: ٢/ ١١٢، تَأرِيخ أبن عسَاكر: ١٩/ ١٧٣، مُرُوج الذّهب: ٢/ ٥٤، تَأريخ اليَعقوبي: ٢/ ١٩٥، تَأريخ أبن كَثير: ٨/ ٢٨، تَأريخ أبي الفِدَاء: ١٩٤، الكَامل في التّأريخ: ٣/ ١٩٢، تَأرِيخ الطّبَريّ: ٤/ ٢٥٩، الأغَاني: ١٧/ ٣٥١ طَبعة سَاسي، شَرح نَهج البَلاغة لابن أبي الحَدِيد: ٤/ ٧٠.

ثُمّ قَام يُونس بن أبي عُبَيد الثّقفيّ، فقَال يَا مُعَاوِيَة: قَضىٰ رَسُول الله ﷺ: «الوَلَد للفرَاش، وللعَاهر الحَجَر»، فَعكَستَ ذَلكَ، وخَالفتَ سُنّة رَسُول الله ﷺ.

فقَال: أَعد، فأعَاد يُونس مقالَهُ هَذَا.

فقَال مُعَاوِيَة: يَا يُونس! والله لتنتَهِين أو لأطيرنَ بِك طِيراً بَطياً وقُوعها، فأنفذ مُعَاوِيَة هَذه الشّهادة، وأَثبت زِيَاداً لأبي سُفيَان، وَكفَىٰ بذَلك ذمّاً، وقُبحاً لعُبَيْدالله بن زِيَاد.

وَرَد الحَدِيث في مصَادر عَدِيدة لاَ يُمكن ذكرهَا، وَلكن نَذكر بَعضاً مِنهَا عَلىٰ سَبيل المثَال لاَ الحَصر.

أنظر، مُسنَد الإمَام الشّافعي: ١٨٨، مُسند الإِمَام أحمَد: ٢/ ٣٨٦، سُنن الدّارمي: ٢/ ١٥٢، صَحِيح البُخَاريّ: ٣/ ٣٩، صَحِيح مُسلِم: ٤/ ١٧١، سُنن أبن مَاجه: ١/ ٦٤٦، سُنن التِرمذي: ٣/ ٢٩٣، مِصبَاح الزُّجَاجَة فِي زَوَائِد أبن مَاجه: ٢/ ١٢٢، مُسنَد الشّهَاب لمُحمّد بن سَلاَمَة بن جعفر القُضَاعيّ، حَقّقهُ وَخرّج أحَادِيثهُ، حَمْدِي عَبدالمَجيد السّلَفيّ: ١/ ١٩٠، البَيَان والتّعرِيف: ٢/ ١٣٠

وعُبيد الله ٱبن زيَاد[١]، والحجّاج[٢]، ويُوسف بن عُمر[٣]، والمُغيرة بن شُعبة[٤]،

↔ و ٢٦٧، التّمهيد لاِبن عبد البرّ: ٨/١٩١، كَشف الخَفاء: ٢/٤٥١، شَرح النّووي عَلىٰ صَحِيح مُسلِم: ١٠/٣٧.

(١) لَم ينصّ المؤرّخون علىٰ ولاَدة ٱبن زيَاد نصّاً دَقيقاً، فقد ذكر ٱبن كَثير في البدَاية: ٨/٢٨٣ نقلاً عن ٱبن عسَاكر أنّ مَولد عُبيدالله بن زيَاد سنَة (٣٩هـ)، وذكر ٱبن جرير في تأريخه: ٦/١٦٦ أنّ ولاَدته سنَة (٢٨هـ). لأنّ مُعاوية ولاّه خرَاسان ولهُ (٢٥) سَنة ولذا يكُون عُمره يوم الطّف (٣٢) سنَة وهذَا يتّفق مع ٱبن كَثير في البدَاية، وذكر ٱبن حَجر في تَعجيل المَنفعة: ٢١٧ أنّه وُلد سنَة (٣٢هـ) أو (٣٣هـ).

وأنظر تَرجمته وَترجمة أُمّه في المعَارف لاِبن قُتيبة: ٣٤٧، وعُمدة القاري في شَرح البُخاري: ٧/٦٥٦، وتأريخ الطّبري: ٧/٦، ٦/٢٦٨، الكَامل لاِبن الأثير: ٤/١٠٣ و ٣٤، سِير أعلام النُبلاء للذّهبي: ٢/٣٥٩، الصّواعق المُحرقة: ١١٦، تأريخ ٱبن عسَاكر: ٤/٣٣٩، أنسَاب الأشراف: ٤/٧٧ و ٨١ و ٨٦، و: ٥/٨٤، البَيان والتّبيان: ١/٧٥، و: ٢/١٦٧، النّقود القَديمة الإسلاميّة للتّبريزي: ٥٠، كَشف الغمّة: ٦١، مآثر الإناقة للقَلقشندي: ١/١٨٥.

(٢) يَقول صَاحب مُرُوج الذّهب، وَصَاحب العِقد الفَرِيد في أَقوَال النّاس في الحَجّاج: (أُحصي مَن قَتلهُم الحَجّاج صَبراً سوَاء مَن قُتل في حرُوبه فكَانُوا (١٢٠) ألفاً، وكَانَ في حَبسه (٥٠) ألف رَجلاً، و (٣٠) ألف ٱمرَأة سِتَة عَشر مِنهُن عَاريَات، وكَانَ يُطعم المَسَاجين كمَا يَقُول ٱبن الجَوزي في تَأرِيخه، الخُبز مَمزُوجاً بالرّماد). وَجَاء فِي العِقد الفَرِيد أَيضاً عَلىٰ لِسَان عُمَر بن العَزِيز: (لَو جَاء النّاس يَوْم القِيَامَة بفُسَاقهم، وَجئنَا بالحَجّاج لزُدنَا عَلَيهم).

أُنظر، فَتح البَاري: ٣/٤٥٥ و: ٨/٣٢٧، المُستَدرَك عَلىٰ الصَّحيحَين: ٣/٦٣٦، التّمهيد لاِبن عَبد البرّ: ١٦/١٤٣، شَرح الزّرقاني: ٢/٣٩٧ و: ٣/١٥٩، تَهذيب الأسمَاء: ١/٢٣٧، سُبل السَّلاَم: ٤/٥٤، المُحلىٰ: ١١/٩٦ و ١١٦، نَصب الرّايـة: ٣/٣٨٢، تَهذيب التّهذيب: ٢/١٨٥ و ٣٣٨ و: ٥/١٨٨، عَون المَعبُود: ١٢/١٦٦، سِير أَعلاَم النُّبلاء: ٤/٣٤٣ و: ٢٢/٢١٨، أَخبَار مَكّة: ٢/٣٦٠، تَعجيل المَنفعَة: ١/٤٥٢.

(٣) يُوسُف بن عُمر الّذي بَدأ سِيَّاسَة الإضطِهَاد وَالتّنكيل بِشيعَة بَني هَاشم، وَكَان لاَ يَدَع أَحَداً يُعرَف بمُوَالاَة بَني هَاشم، وَمَودَة أَهل بَيت رَسُول الله إلاّ وَبَعث إليهِ فَحَبسَه عِنده بوَاسط.

أُنظر، الأَخبَار الطّوَال: ٣٣٩، العِرَاق في ظِلّ العَهد الأُموي: ١١٤.

(٤) المُغيرة بن شُعبه بن أَبي عَامر بن مَسعود الثّقفي. أُمّه ٱمرأة من بَني نَصر بن مُعاويَة، أَسلَم عَام الخَندق ↔

وخَالد بن عبد الله القَسري[١] وأضرَابهم... كلّهم أقَاموا الحُكم في الكُوفة عَلىٰ رُكام من الجمَاجم وأنهَار من الدّمَاء[٢].

* * *

وقَد تنبّأ عليه السلام بتغلب مُعَاوية عَلىٰ الخلاَفة وسَيطرته عَلىٰ الكُوفة وأنّه سَيأمر أهل الكُوفة من الشّيعة بَسبّ الإِمَام والبَرَاءة منه[٣]، فقَال:

وهاجر إلىٰ المَدينة، وشهد الحُديبية، وأرسلَه الرّسول مع أبي سُفيان لهَدم صَنم ثَقيف بالطّائف، وأُصيبت عَينه يَوم اليَرموك، ولاّه عُمر البَصرة وعَزله عَنها لمّا شَهدوا عَليه بالزّنا، ثُمّ ولاّه الكُوفة، وتوفّي أمِيراً عَليها من قِبل مُعاوية سنَة (٥٠ هـ) بعد أنْ أحصن (٣٠٠) أمرأة في الإسلام وقِيل بل ألف أمرأة.

أنظر، الإصَابة: ٣/ ٤٣٢، الإستيعاب بهَامش الإصابة: ٣/٣٦٨، أسد الغَابة: ٤/ ٤٠٦.

(١) خَالد بن عَبدالله القَسري أحَد عُملاَء الأُمَويِّين يَقُول عَلىٰ المِنبَر وَفي مَكّة المُكرّمَة: أللّهُمّ ألعَن ـ وَالعِيَاذ بِالله ـ عَليّ بن أبي طَالب بن عَبدالمُطلب بن هَاشم صِهر رَسُول الله عَلىٰ ابْنته، وَأبَا الحَسن والحُسَين، ثُمّ يُقبل عَلىٰ النّاس، ويَقُول: هَل كَنيت؟! ثُمّ يَتبع سبّ عَليّ بِسَبّ الحَسن والحُسَين.

أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٤/ ٥٧، الكَامل في التّأريخ: ٤١٤ طَبعَة أُوربا.

(٢) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ١/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) فَقد سبّ أمِير المُؤمنِين عليه السلام وذَلك من مُعاويَة بن أبي سُفيان الّذي وَلَعنه في الأقطار الإسلاميّة وطَلب التّبريّ منهُ وإنْ لم يكُن ذَلك فالضّرب والشّتم والهَتك والقَتل للمُؤمنِين، وهَذا مَشهور ولاَ يَحتَاج إلىٰ بُرهان ودَليل بل يكفي كُلّ مُؤرّخ أن يَسأل عن قَتل حِجر بن عدي رضي الله عنه وَأصحابه كمثَال عَلىٰ ذَلك.

بهَذه الكَلمَة الصّغيرة: «حتّىٰ يَربُو الصّغير، وَيَهرم الكَبير» عَبّر مُعَاويَة عَن نَفسه، وَأبرزهَا عَلىٰ حَقيقتهَا، فَلَيس من قَصده وَغَايته المُلك وَالسّيطرة فَقط، بَل عُقدة في نَفسه يُحَاول حلّها، وَحِقد في قَلبه يُغلي وَيَفور، وَلاَ يَجد مَخرجاً مِن لذعَه وَألَمه إلاّ السِّباب وَالتّقتيل، وهَذه غَايَة الغَايَات عند مُعَاويَة وَمَا عَدَاها وَسيلة لإشبَاع الحِقد، وإلاّ فَليدُلنا الّذين وَصفوا مُعَاويَة بالحلم وَسِعة الصّدر عَن مكَان هَذا الحلم في قَوله: «حتّىٰ يَربُو الصّغير، وَيَهرم الكَبير»...

ولَم يَشف غَليل مُعَاويَة السّب عَلىٰ المَنابر، وَالكتَابة به إلَىٰ عُمّاله، وَاتخاذه سُنّة وَديَانه، حتّىٰ تَعمدَه

«أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ[1] عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ[2]، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ[3]، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ! أَلاَ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي، وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ، وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلاَ تَتَبَرَّءُوا مِنِّي[4]، فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الإِيمَانِ، وَالْهِجْرَةِ»[5].

↔ في مَحضر أوَلاَد الإمَام وَأقَاربه، بَل كَان يَدعو أحدهم إلَىٰ بَيته، وَيَجمع حَوله شَياطينه وَزبَانيته، ثُمّ يَشرعُون بِالسُّباب وَالشّتائم!... لَقَد سَمعنَا أنّ عدوّاً أغتَال عَدوّه، وَهُو سَائر في طَريقه، وَنَائم عَلىٰ فرَاشه، أمّا أن يَدعُوه إلَىٰ بَيته، ثُمّ يَغدر بِهِ، فَلَم نَعهَده إلاّ من مُعَاوية وَأمثَاله. نَادىٰ مُنَادي الرَّسُول يَوم الفَتح: «مَن دَخَل دَار أبي سُفيَان فَهُو آمِن». وَأرَاد مُعَاوية أنْ يَرد لهُ هَذَا الإحسَان.

أنظر، صَحِيح مُسلم: ٣/١٤٠٨ ح ٨٦، سُنن أبي دَاود: ٣/١٦٣ ح ٣٠١٢.

فَهَذَا أبو سُفيَان أشدّ عَدَاوة لِرَّسُول اللهﷺ فِي مُحَاربَته، وَغزوَاته تَشهَد بذَلك، وَإنّما أسلَم عَلىٰ يَد العَبّاس الَّذي مَنَع النَّاس من قَتله، وَجَاء به رَديفاً، شَرّفه النَّبيّﷺ، وَكَرّمه فكَانَ جَزَاء ذَلك من بَنِيه أنْ حَاربُوا عَلِيّاًعليه السلام، وَسَمّوا الحَسَنعليه السلام، وَقَتلُوا الحُسَينعليه السلام، وَحَملُوا النّسَاء عَلىٰ الأقتَاب حَوَاسراً، وَقَيّدوا بالحَدِيد زَين العَابِدِينعليه السلام الَّذي أوقَفُوه عَلىٰ مَدرج جَامع دمشق في مَحلّ عَرض السَّبَايَا.

وأنظر، خصَائص الوَحي المُبين: ١٣١ فصل ٢١ الطَّبعة الأولىٰ، كَشف الغمّة: ١/٣١٦، الدرّ المنثُور: ٦/٧٩، و٣١٩، و: ٧/٣٠٥، مَجمع الزّوائد: ٩/١٣١، و: ٧/١٧.

(١) سَيَظْهَر: سَيَغلب.

(٢) الرّحب: الوَاسع.

(٣) مُنْدَحِقُ الْبطْن: عَظِيم البَطن بَارزه، كأنّه لعظمه مُندلق من بَدنه يَكَاد يَبين عنهُ.

(٤) قَد يكُون السّب نَتيجَة للإكرَاه من الظَّالم مع إبطَان الحُبّ والولاَء، وأمّا البَراءة مِن إنسَان فَهي الإنسلاَخ من مَذهبه.

(٥) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٥٧) «سُبُّوا وَلاَ تَبَرّءُوا».

هذه النُبوءَة تَحققت بتَمامها، فَقد غَلب مُعَاوية بعد صُلح الحَسن وأمرَ النّاس بسبّ الإِمَام صَلوات الله وسلاَمه عَليه، والبَراءة منهُ، وقَتل طَائفَة مِن عُظماء أصحَابهعليه السلام لأنّهم ثَبتوا عَلىٰ ولاَئه فلَم يَتبرَّؤوا منهُ، منهُم حِجر بن عَدي الكِندي وجمَاعته(١). وقَالَ قَوم إنّ المَعني بهذَا الكلاَم زيَاد بن أَبيه، وقَالَ قَوم إنَّه المُغيرة ٱبن شُعبة، وكلٌّ وَلِيَ الكُوفة، وأمرَ بالسّبّ والبَرَاءة(٢).

* * *

وَتَنبّأعليه السلام بمَا سَيصِير إِلَيه أمر الخَوَارج من بَعده فقَال:

«أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلاَ بَقِيَ مِنْكُمْ آثِرٌ. أَ بَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِصلى الله عليه وآله، أَشْهَدُ

---

(١) هُو حِجر بن عدي الأَدبر الكِندي المُلقّب بحِجر الخَير، وكان من فُضلاء الصّحابة، وفَد إلىٰ النّبيّ وشَهد القَادسيَة، وقد قَتله مُعاوية صَبراً، ويُقال: إنّه أوّل من قُتل صَبراً في الإِسلام، قُتل معهُ ستّة من أصحَابه، وهم: شريك بن شدّاد الحَضرمي، وصَيفي بن فسيل الشّيباني، وقبيصة بن ضَبيعة العبسي، ومحرز بن شهاب السّعدي، وكدام بن حيان العَنزي، وعبدالرَّحمن بن حسّان العنزي. وكان حِجر ثقة عَيناً ولم يَرو عن غير عليّ شيئاً، وهو الّذي ٱفتتح مرج عَذراء، وكان شَريفاً في قومه مُطاعاً، آمراً بالمَعروف، صَالحاً عابداً يُلازم الوضُوء، وبَاراً بأُمّه، كَثير الصَّلاة والصّيَام.

أنظر، تَرجمته في طبقات ٱبن سعد: ٦/ ١٥١ و ١٥٤، المُستدرك: ٣/ ٤٦٨، الإِستيعاب: ١/ ١٣٤ الرّقم ٥٤٨، طَبعة حيدرآباد، أسد الغَابة: ١/ ٣٨٥، سِير أعلاَم النُّبلاء: ٣/ ٢٠٥ التّرجمة رَقم ٣١٤، تأريخ الذّهبي: ٣/ ٢٧٦، تأريخ ٱبن كَثير: ٨/ ٥٠، الإِصَابة: ١/ ٣١٥، تأريخ الطّبري: ٢/ ١١١ـ ١٤٩ و ٥/ ٢٧٧، تأريخ ٱبن الأثير: ٣/ ٤٠٢ و ٤٠٤، وقعَة صفّين: ١٠٣، مُروج الذّهب: ٣/ ٣ ـ ٤، تَهذيب الكمَال: ٥/ ٤٨٥ الرّقم ١١٤١، المعَارف لاِبن قُتيبة: ٣٣٤، الأغاني: ١٦/ ١٠، تأريخ دمَشق: ٢/ ٣٧٩.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَديد: ١/ ٣٥٥.

عَـلَىٰ نَـفْسِي بِـالْكُفْرِ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[١]! فَأُوبُوا شَرَّ مَ آبٍ، وَارْجِعُوا عَلَىٰ أَثَرِ الْأَعْقَابِ. أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاًّ شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً[٢] يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً»[٣].

وَهَكذا كَان، فإِنّ الخَوارج، بَعد العَدل الَّذي لاَقوه من حكُومته والحُريّة الَّتي تَمتعوا بها، لم يُعاملوا في جَميع العهُود التَالية إِلاَّ بالإِضطهاد والحَرب والمُطاردة.

* * *

وقَالَ لمّا قَتل الخَوارج وقِيل لهُ: هَلَك القَوم بأَجمعهِم:

«كَلاَّ وَاللهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ[٤]، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ[٥]، حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ. لاَ تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ»[٦].

وقَد صَحت نبُوءَته، فَلم يَمضِ زَمن طَويل حتَّىٰ نجَمَ أمرهُم مرّة أُخرىٰ

---

(١) الأَنْعَام: ٥٦.

(٢) الأَثَرَة: الإِستبدَاد بفوَائد المُلك، وحِرمَان الآخَرين منهُ.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (٥٨) «أَبَعْدَ الإِيمَان، وَالجِهَاد مَعَ رَسُولِ اللهِ؟».

(٤) قَرَارَاتِ النِّسَاء: كنَايَة عن الأَرحَام.

(٥) كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِع: كُلما ظَهر منهُم رَئيس قُتل.

(٦) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (٦٠ و ٦١) «طَلَبَ البَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ».

وأستمرت بَينهُم وبَين السّلطات المَركزية المُتعاقبة حُروب طَاحنة، وكَانت نهَايتهم أنْ صَاروا قُطّاع طُرق ولُصُوصاً سَلاَّبِينَ.

* * *

وَقَد تَنبّأ بعَدد مَن يُقتَل من أصحَابه وبقَدر مَن يَبقىٰ من الخَوارج قَبل أنْ يَشتَبك معهُم في النّهروَان(١)، فقَال:

---

(١) دَعا عليّ عليه السلام أبا عمرة بشير بن عمرو بن مِحصَن الأنصاري، وسعد بن قَيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فقَال لهم: أذهبوا إلىٰ هذا الرّجل ـ يَعني مُعاوية ـ وأدعوه إلىٰ الله تَعالىٰ وإلىٰ الطّاعة والجمَاعة لعلّ الله تَعالىٰ أنْ يَهديه ويَلتئم شَمل هَذه الأمّة. أُنظر، الفتُوح لابن أعثَم: ٢/ ١٧.

وكان ذَلكَ في أوّل يَوم من ذي الحجّة سنَة ستّ وثلاَثين من الهِجرة، فأتوه ودخلوا عَليه، فابتدأ بشير بن عمرو الأنصاري فحمد الله وأثنىٰ عَليه وقَال:

يا مُعاوية، إنّ الدّنيا عنكَ زَائلة وإنّك راجع إلىٰ الآخرة، وإنّ الله تَعالىٰ مُحاسبك بعَملك ومُجازيك بمَا قدّمت يداك وإنّي أُنشدك الله تَعالىٰ أنْ لاَ تُفرّق جمَاعة هذه الأمّة وأنْ لاَ تَسفك دماءها فيما بَينها.

فَقطع مُعاوية عليه كلاَمه وقَال: هلّا أوصَيتَ بذَلك صَاحبك.

فقَال: إنّ صَاحبي لَيس أحد مِثله وهو صَاحب السّابقة في الإسلام والفَضل والدّين والقَرابة من رَسُول الله صلى الله عليه وآله. أُنظر، تأريخ الطّبري: ٥/ ٢٤٢، و: ٣/ ٥٦٩ طَبعة أُخرىٰ.

قَال: فمَا الّذي عندكَ يا أبن عمرو؟ وما الّذي تَأمرني به؟.

قَال: الّذي عندي وما آمرك به تقوىٰ الله وإجابة أبن عمّك إلىٰ مَا يَدعوك إليه من الحقّ فإنّه أسلم لكَ في دنيَاك وخيرٌ لك في عَاقبة أمرك.

قَال مُعاوية: ونُطل دمّ عُثمان والله لاَ أفعل ذَلكَ أبداً.

ثُمّ تكلّم سعد بن قيس وشبث بن ربعي، فلم يَلتفت مُعاوية إلىٰ كلاَمهم وقَال: أنصرفوا من عندي فإنّه لَيس بيني وبينكُم إلاّ السّيف. فقَال لهُ شبث بن ربعي: أفعلينا تهول بالسّيف؟ وأُقسم ليعجلِنّ بها إليك.

فأتوا عَليّاً عليه السلام فأخبروه بالّذي كان، فجَعل عليّ عليه السلام بعد إتيانهم بكلاَم مُعاوية يَأمر الرّجل ذا الشّرف من أصحَابه أنْ يخرج في خَيل يخرج إليه جماعة من أصحاب مُعاوية في خيل مثلها فيقتتلان،

«مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ(١)، وَاللهِ لاَ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَلاَ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ»(٢).

↔ ثمّ تنصرف كلّ خَيل إلىٰ أصحابها وذَلكَ لمّا كَرهوه من مُلاقاة جمع أهل العرَاق لجمع أهل الشّام فيكون فيه إِستئصال العَسكرين وذهَاب الفئتين وهلاك المُسلمِين. أُنظر، تأريخ الطّبري: ٣ / ٥٧٠ مع إِختلاف يَسير في اللّفظ.

فكَان عليّ عليه السلام يخرج مرّة، ومرّة الأشتر، ومرّة حِجر بن عدي الكندي، ومرّة شبث بن ربعي، ومرّة خالد بن المعمر، ومرّة زياد بن النّضر الحارث، ومرّة زياد بن خصفة التّيمي، ومرّة سعد بن قيس الهمداني، ومرّة معقل بن قيس الرّياحي، ومرّة قيس بن سعد الأنصاري رضي الله عنهم. أُنظر، وقعة صفّين: ١٩٥، تأرِيخ الطّبري: ٣ / ٥٧١.

ثمّ دَخلت سنة سبع وثلاَثين فحصل في شهر المُحرّم منها بين عليّ عليه السلام ومُعاوية موادعة علىٰ الحَرب طمعاً في الصّلح وأختلفت الرّسل بينهما فلم يتّفق صلح.

ذكر ذَلكَ الطّبري في تأريخه: ٣ / ٥٧١ بإختلاف يسير في اللّفظ: قَال: فلمّا أنقضىٰ ذو الحجة تداعي النّاس إلىٰ أنْ يكفّ بعضهم عن بعض المحرّم لعلّ الله أنْ يجري صلحاً أو إجتماعاً، فكفّ بعضهم عن بعض. وذكر ذَلكَ أيضاً نصر بن مزاحم في وقعة صفّين: ١٩٦، وأبن أعثَم في الفتوح: ٢ / ٢١.

وأنظر تأريخ الطّبري أيضاً: ٤ / ٢ ففيه: فكان أوّل شهر منها ـ يعني سنة (٣٧ هـ) ـ وهو المحرّم موادعة الحرب بين عليّ ومُعاوية قد توادعا علىٰ ترك الحَرب فيه إلىٰ إنقضائه طمعاً في الصّلح. وذكر الطّبري في نفس الصّفحة، وأبن مزاحم في وقعة صفّين: ١٩٧ أنّ الإمام عليّ عليه السلام أرسل إلىٰ مُعاوية عديّ بن حاتم، وشبث بن ربعي، ويزيد بن قيس، وزياد بن خصفة فدخلوا علىٰ مُعاوية فحمد الله عديّ بن حاتم وأثنىٰ عليه ثمّ قَال: أمّا بعد فإنّا أتيناك لندعوك إلىٰ أمر يجمع الله عزّ وجلّ به كلمتنا وأمتنا... إلخ، وسبق وأنْ أشرنا إلىٰ هذه المُساجلات ومصَادرها.

(١) يَعني بالنُّطفَة مَاء النّهر، وقَد جَرت المَعركة معهُم عند النّهروَان.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٥٩) «حَوْلَ الْخَوَارِجِ».

أُنظر، الفُتوح لابن أعثَم: ٢ / ٢٧٥، الإِمَامَة وَالسّيَاسَة: ١ / ١٦٩. رَجُلان هَربا إلىٰ خرَاسَان، وَبِها نَسلهُما إلىٰ الآن، وَرَجُلان صَارا إلىٰ بِلاَد عُمان وَبها نَسلهُما إلىٰ الآن، وَرَجُلان إلىٰ بِلاَد اليمَن وَبِهَا نَسلهُما وهُم الّذين يُقَال لَهم الأَبَاضيّة ـ أصحَاب عَبدالله بن أبَاض من بني مُرّة بن عُبَيْد مِن بَني تَميم ↔

«فَلم يُقتل من أصحَاب الإمَام إلاَّ ثمَانيَة، ولَم يَنجُ من الخَوارج إلاَّ تِسعَة»[1].

↔ رَهط الأحنف بن قَيس كمَا جاء في المعَارف: ٦٢٢. وَقَالَ: هُم فُرقه من الخَوارِج، وهُم يَسكنون الآن مرّ بهمْ أبن بَطوطة الرّحَالة ٱلمَعرُوف فِي سيَاحته ٱلّتي كَانَت في القَرن الثّامن للهِجرَة وَقَالَ أبن قُتيبَة في الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٧٢ وما بَعدها: هُم أبَاضيّة المَذهَب، ويصلّون ٱلجُمُعَةِ ظُهراً أربَعاً. فإذَا فرغوا قَرأ الإمَام آيات من ٱلقُرآن، وَنَثر كَلاَماً شُبه ٱلخُطبَة يَرضىٰ فيه عَن أبي بَكر، وعُمر، وَيَسكت عَن عُثمان، وَعليّ، وَإذَا أرَادوا ذكر عليّ كنَوا عَنه بالرَّجل، وَيَرضَون عَن الشّقي اللّعِين أبن مُلجَم وَيَقُولُون فِيه العَبد الصّالح مَع الفِتنَة... رَاجع يَنَابيع المَوَدَّة: ٢٥٢، المنَاقب المرتَضوية: ٢٠٣، الغَدِير للأَميني: ٤ / ٣٢٢. وَرَجُلان صَارا إلىٰ الجَزيرة، وَرَجل صَار إلىٰ تل مُوذن. وَهي مَدِينة عَلىٰ دِجلَة فَوق تِكريت. وفِي: ٢ / ٢٩٧ «البوَازيج» بَلد قُرب تكريت عَلىٰ فَم الزّاب الأسفل حَيث يَصب في دِجلَة. وَغَنم أصحَاب عليّ عليه السلام مِنهُم غنَائم كَثيرَة، وقُتل من شيعة عَليّ رَجُلان. كَشف اليَقِين: ١٦٦، الفُتُوح: ٢ / ٢٧٥. وَقُتل من أصْحَاب عَليّ عليه السلام تِسعَة، عَدد مَن سَلم مِن الخَوارِج. أنظر، شَرح النَّهج للمُعتزلي: ٢ / ٢٠٦ وما بَعدها، وتذكرة الخواصّ: ٩٥، وتَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٦٢.

أمَّا فِي الفُتُوح لابن أعثَم: ٢ / ٢٧٥ فَقد ذكرهُم بالتسلسل القِتَالي: رُويبه بن وَبر البَجَليّ ٱلّذي دَفع إلَيهِ الإمَام عليه السلام اللّواء، وَأمره بالتّقدم فتقدّم وأرتَجز شِعراً، وحَمل حَتّىٰ أستُشهِدَ، وتقدّم من بَعده عَبدالله بن حمّاد الحِميَري حَتّىٰ أستُشهِدَ، ثمّ رفَاعة بن وَائل الأرحبي حَتّىٰ أستُشهِدَ، ثُمّ كَيسُوم بن سَلمة الجُهني حَتّىٰ قُتل، ثُمّ عَبد بن عُبَيد الخَولاني حَتّىٰ قُتل، ثُمّ قَالَ: وأقبل التّاسع وأسمُه حَبيب بن عَاصم الأزدِيّ. فَقَالَ: يا أمِير ٱلمُؤمِنين، هَؤلاء ٱلّذين تُقَاتلهُم أكفّار هُم؟

فَقَالَ عليّ عليه السلام مِن الكُفر هَربوا، وفيه وَقعوا.

قَالَ: أفمُنَافقُون؟.

فَقَالَ عَليّ عليه السلام: إنَّ ٱلمُنَافِقِين لاَ يَذكرُون الله إلاّ قَليلاً.

قَالَ: فمَا هُم يا أمِير ٱلمُؤمِنين حَتّىٰ أُقاتلهُم عَلىٰ بَصِيرة وَيَقين؟.

فَقَالَ: عَليّ عليه السلام: هُم قَوْم مَرقوا من دِين الإسْلاَم..» وهُو التّاسع من أصحَاب عليّ فَقَاتل وقُتل.

أنظر كَنز العُمَّال: ٦ / ٧١ ح ١١٧٩، و: ١١ / ٢٨٩ و ٣٠٢، ومَجمَع الزّوائد: ٦ / ٢٤٢.

وَلَم يَسلَم من الخَوارِج ـ المَارِقِينَ ـ المَقتُولين غير هَذِه التّسعة المَذكُورِين خَذَلهُم الله. وهَذِه كَرامَة مِن أمِير ٱلمُؤمِنين عَليّ بن أبي طَالب عليه السلام فإنّه قَالَ قبل ذَلِكَ. المَصدر السّابق: ١ / ٢٠٥.

(١) قَالَ الشَّيخ مُحمَّد عَبدَه: «ما نجا مِنهُم ـ الخَوارِج ـ إلاّ تِسعَة، تَفرقوا في البِلاَد، ومَا قُتل من أصحَاب ↔

وقَد كثُر كلاَمه عمّا سَيحل بالنّاس من بَني أُميّة وظُلمهم، وكأنّه يَعد بذَلك أنفس النّاس لتَلقىٰ فَادح الظُّلم.

وقَد تَنبّأ بخلاَفة مَروان بن الحَكم وبمَا سَيحل بالأُمّة منهُ ومن أولاَده، وتَنبّأ عن نهَاية بني أُميّة مَتىٰ تحين.

قَالَ مُتنبئاً بمَصِير الخلاَفة إلىٰ مَروان:

«أَوَ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمان؟ لاَ حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ، لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسُبَّتِهِ. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ[1]، وَهُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ[2]، وَسَتَلْقَىٰ الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ!»[3].

وقَد تمّ كلّ مَا قَالَ، فَقد كَانت إمرة مَروان قَصِيرة جدّاً إذْ لَم تَزد عَلىٰ تِسعَة أشهُر، وقدكَان لهُ من الأَبناء أربعَة هُم: عَبد المَلك، وعَبد العَزيز وبِشر، ومُحمَّد. وَليَ عَبد المَلك الخلاَفة، ووَليَ مُحمَّد الجَزيرة، ووَلي عَبد العَزيز مَصر، ووَلي بِشر العرَاق. وقَد حلّ بالمُسلمِين منهُم ظُلم عَظيم[4].

⟵ أَمِير المُؤمِنِين إلاّ ثمَانية». أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة لمحَمَّد عَبدَه: ١/ ١٠٧.

وكلّ ما أُخبر به الإمَامﷺ من الغَيب فَهوَ عن رَسُول اللهﷺ عن جِبرِيل عن الله، وإِلَىٰ هَذا أشَار الإمَام بقَوله: «لَيسَ هُوَ بِعِلمِ غَيبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلمٍ، عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُﷺ فَعَلَّمَنِيهِ». أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطبَة (١٢٨)، شَرح نَهج البَلاَغة: ١/ ٣٧٩ـ ٣٨٠ و ٤٢٤ـ ٤٢٧ و ٤٤٥ـ ٤٤٦.

(١) تَصوِير بالحَركَة لقصر مُلك مَروان بن الحَكم.

(٢) كنَايَة عن أولاَده.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٧٣) «مَرْوَان بِن الحَكَم».

(٤) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٢/ ٥٣ـ ٦٠.

↔ أختار عبدالملك هذا السفّاح، ليوطد الملك في العراق والحجاز، فأخذ يقتل النّاس بالجملة، وكأنّهم ذباب وحشرات، حتّىٰ الّذين خلدوا إلىٰ الهدوء والسكون، بل حتّىٰ الضّعفاء من النّساء، والشيوخ، والأطفال ومن أجل هذه الفظائع والفجائع الّتي روعت الوحوش كان الحجّاج مكرماً ومعظماً عند عبدالملك وأشركه في الحكم فولاه فضلاً عن العراق بلاد فارس، وكرمان، وسجستان، وخراسان، ثمّ ضمّ إليها بلاد عمان، واليمن وسائر البلاد العربيّة وأكرمه وحافظ عليه في حياته؛ وأوصىٰ به أولاده بعد مماته.

قال ابن الأثير: «لمّا شعر عبدالملك بهلاكه قال لأولاده: وأوصيكم بتقوىٰ الله، وإكرام الحجّاج فإنّه الّذي وطّد لكم المنابر، ودوخ البلاد، وأذلّ الأعداء». أنظر، التّعازي والمراثي للمبرد: ١٢٣ ـ ١٢٥ وصيّة عبدالملك لأولاده، تاريخ دمشق: ٦٣ / ١٧١، تاريخ ابن خلدون: ٣ / ٥٨، الإمامة والسّياسة: ٢ / ٦٨، الأخبار الطّوال: ٣٢٥.

يا لسخرية المنطق!... أتقوا الله وأكرموا الحجّاج.

قال صاحب العقد الفريد:

«خطب يوماً عبدالملك، فقال: أيّها النّاس إنّي والله ما أنا بالخليفة المستضعف ـ يريد عثمان ـ ولا بالخليفة المداهن ـ يريد معاوية ـ ولا بالخليفة المأفون ـ يريد يزيد ـ فمن قال برأسه كذا ـ أي لا ـ قلنا بسيفنا كذا ـ ضربت عنقه ـ ثمّ نزل.

أنظر، العقد الفريد: ٢ / ٢٦٣، أحكام القرآن للجصّاص: ١ / ٨٦، تاريخ دمشق: ٣٧ / ١٣٥، البداية والنّهاية: ٩ / ٧٧، النّزاع والتّخاصم: ٤١، تاريخ الخلفاء للسّيوطي: ٢١٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦ / ١٧ و: ١٥ / ٢٥٧.

أخذ عبدالملك هذا الخطاب «البليغ» من خطاب يزيد بن المقنع العذري، حيث قال: «إنْ هلك هذا ـ وأشار إلىٰ معاوية ـ فهذا ـ وأشار إلىٰ يزيد ـ ومن أبىٰ فهذا ـ وأشار إلىٰ سيفه ـ. علىٰ هذا الأساس قام حكم الأمويّين، علىٰ القوّة والعنف، ومن هنا كان زوالهم ومحوهم من الوجود.

قد أتّضح ذلك عندما أرسل إليهم في أخذ البيعة ليزيد وليّاً للعهد قام يزيد بن المقنع فلخص الموقف الأموي من الخلافة بعبارة وجيزة ولكنّها بليغة قال: «أمير المؤمنين هذا، وأشار إلىٰ معاوية... فإن هلك فهذا، وأشار إلىٰ يزيد... فمن أبىٰ فهذا، وأشار إلىٰ سيفه!... فقال له معاوية: «إجلس فإنّك سيّد الخطباء». أنظر، العقد الفريد: ٥ / ١١٢، طبعة سنة ١٩٥٣م، دار الكتب العلمية ↔

وقَالَ في ظُلم بني أُميَّة:

«وَاللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتَّىٰ لاَ يَدعُوا للهِ مُحرَّماً إِلَّا اَسْتَحلُّوهُ[١]، وَلاَ عَقداً إِلَّا حَلُّوهُ، وَحَتَّىٰ لاَ يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ، وَلاَ وَبَرٍ[٢] إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ[٣]، وَحَتَّىٰ يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اَغْتَابَهُ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنّاً، فَإِنْ أَتَاكُمُ اللهُ بِعَافِيَةٍ فَاَقْبَلُوا، وَإِنِ اَبْتُلِيتُمْ فَاَصْبِرُوا، فَإِنَّ ﴿الْعَاقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ﴾[٤]»[٥].

ولاَ يَجهل أحد مَبلغ مَا نَزل بالنّاس من ظُلم بني أُميَّة وآنتهاكهُم للحُرمَات، وآستهتارهم بالفَضيلة حتَّىٰ صَار خُلفاؤهم مثلاً في الظُّلم والفسق والتّهتك[٦].

بَيرُوت. و: ٢/٣٠٢ ـ ٣٠٤، الكَامِل لاِبن الأثِير: ٣/٢١٤ ـ ٢١٦ و ٥١١، الإمَامَة والسِّيَاسَة تَحقِيق الشِّيري: ١/١٩٣، البيان والتّبيِّين: ١/٣٠٠.

(١) أستحلاَل المُحرّم: أستبَاحته.

(٢) بيُوت المَدَر: المَبنيّة من حَجر، وبيُوت الوَبر: الخيَام. أي أنّ ظُلم بني أُميّة يَشمل جَميع النّاس حَيث كانُوا.

(٣) أصْله مِن «نَبا بهِ المَنزل) إذا لم يُوافقه، فارتحل عنهُ. أي أنّ ظُلم بني أُميّة وسُوء سيَاستهم في النّاس، يَجعل المُجتَمع مُضطرباً غَير مُستقر ولاَ آمن.

(٤) القَصَص: ٨٣، وطه: ١٣٢، والأعرَاف: ١٢٨.

(٥) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٩٨) «بَنُو أُمَيَّةَ».

(٦) شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبِي الحَدِيد: ٢/٤٦٦ ـ ٤٦٧ ورَاجع: ٢/١٩٣ ـ ١٩٤ و ٤٠٨ ـ ٤٠٩ في

وَقد تحدث عليه السلام كثيراً عن نهاية بني أُميّة وأنّ الأمر سيصير إلىٰ أعدائهم بعدهم في الوقت الّذي يحسب النّاس فيه أنّهم مُخلدون.

قالَ عليه السلام:

أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صلى الله عليه وآله: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَىٰ مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَاعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ـ وَهُوَ أَنَا. أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ! وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَىٰ حُدُودِ الْحَلاَلِ، وَالْحَرَامِ، وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي، وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي، فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ.

حَتَّىٰ يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَىٰ بَنِي أُمَيَّةَ(١)، تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا(٢)، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلاَ يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ سَوْطُهَا، وَلاَ سَيْفُهَا، وَكَذَبَ

⇔ شأن عَبد الملك بن مَروان والفِتن في عَهده.

(١) مَعْقُولَةٌ عَلَىٰ بَنِي أُمَيَّةَ: مَقصورة عَليهم، مُسخرة لهُم، كأنّهم شَدّوها بعقَال النّاقَة.

(٢) دَرَّهَا: لَبَنها.

الظَّانُّ لِذَلِكَ. بَلْ هِيَ مَجَّةٌ[١] مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً!»[٢].

وقَالَ عليه السلام:

«حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله، شَهِيداً، وَبَشِيراً، وَنَذِيراً، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً.

فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا، وَلاَ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا، قَلِقاً، وَضِينُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللهِ ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ. فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ، وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً. وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللهِ، يَا بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ، وَفِي دَارِ

---

(١) مَجّة: مَصدَر من «مجّ الشراب من فِيه» إذَا رَمىٰ به.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة الخُطبَة (٨٧) «لاَ تَستَعمِلُوا الرَّأيَ».

عَدُوِّكُمْ! أَلاَ إِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلاَ إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ، وَقَبِلَهُ!»[١].

هَذه النّبوءات بزوال مُلك بني أُميّة عَلىٰ يد العبّاسيِّين، ومَا يَصنعه العبّاسيُون من القَتل والتّشريد قَد تَحققت بحذافيرها[٢].

وقَد تَنبّأ بولاَية الحجّاج وبمَا سَيحل بالعرَاق من بَلوائه فقَال عليه السلام:

«وَ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَبْكُونَ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ، وَ تَلْتَدِمُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَ لَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لاَ حَارِسَ لَهَا وَ لاَ خَالِفَ عَلَيْهَا، وَ لَهَمَّتْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لاَ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ غَيْرِهَا، وَ لَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَ أَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ. فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَ تَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَ لَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ، وَ أَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَ اللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ، وَ أَوْجَفُوا عَلَىٰ الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَىٰ الدَّائِمَةِ، وَ الْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ. أَمَا وَ اللهِ، لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلاَمُ ثَقِيفٍ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٠٥) «لاَ يُعجِزُهُ مَن طَلَبَ».

(٢) شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَديد: ٢/١٣٢ ـ ١٣٣ و ١٧٨ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠٢ و ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ(١)، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ. وَ يُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ، إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ(٢)!»(٣).

وقَالَ فِيما روَاه ابن أبي الحَدِيد من تتمّة خُطْبَة أُخرىٰ تَنبّأ فِيها بولاَية الحجّاج ابن يُوسف الثّقفي ويُوسف بن عَمرو الثّقفي:

«وَسَتَليكُم مِن بَعْدي وُلاَة يُعذّبُونكُم بالسِّيَاط والحَدِيد. وَسَيأتِيكُم غُلاَمَا ثَقِيف: أخْفَش وجَعبُوب، يَقتُلان ويَظْلِمَان وقَلِيل مَا يَمكثَان».

قَالَ ابن أبي الحَدِيد:

«الأَخْفَش الضّعيف البَصر خَلقة، والجَعبُوب القَصِير الدَّمِيم، وهُما الحجَّاج ويُوسف بن عَمرو وفي كتَاب عَبد المَلك إلىٰ الحجَّاج: قَاتَلك الله أُخيفش العَينَين أصكّ الجَاعرتَين. ومن كَلاَم الحَسَن البَصري يَذكر فيهِ الحجّاج: أتَانا أُخيفش أُعَيمش يَمد بيَد قَصِيرة البنَان مَا عَرق فِيها عنَان في سَبيل الله. وكَان المَثل يُضرب بقصر يُوسف بن عَمرو وكَان يَغضَب إذَا قِيل لهُ قَصِير»(٤).

---

(١) الذَّيَّال: الطَّويل القَد، الطَّويل الذَّيل، المُتَبختر في مِشيته، والمَيَّال: الجَائر المَائل عن طَريق الحقّ والعَدل.

(٢) الوَذَحَة: قَالَ الشَّريف الرَّضي رَحمهُ الله بَعد أنْ أورَد هذا النّص: الوَذَحَةَ: الخُنفُساء. وهَذا القَول يُومىء به إلىٰ الحجّاج، ولهُ مع الوَذحَة حَديث لَيس هذَا مَوضع ذِكره.

وقَد أورَد ابن أبي الحَدِيد عندَ شَرح هَذه الفِقرة عدّة روَايات عن الحجّاج الثّقفي في شَأن الوَذحَة.

رَاجع الجُزء: ٧/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ من شَرح نَهج البَلاَغة بتَحقيق مُحَمّد أبو الفَضل إبرَاهيم، نَشر دَار إحيَاء الكُتب العَربية سنَة (١٩٦٠م)، وَشَرح نَهج البَلاَغة لمُحَمّد عَبدَه: ١/ ٢٣٠، شَرح مِئة كَلِمَة لابن مِيثَم: ٢٤١، مَجْمَع البَحرَين: ٤/ ٤٨٥، تَاج العَرُوس: ٢/ ٢٤٦.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة الخُطبَة: (١١٦). «نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ».

(٤) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣ و ٢٥٧ ـ ٢٥٨، و: ٦/ ٣٨٣ بتَحقِيق مُحَمّد أبو

راجع النّصوص التّالية: رَقم (١٣ و ١٤ و ٤٦ و ٥٦ و ٥٧ و ٧٠ و ٨٤) (آخر النّص) و ٩٠ و ٩٥ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٢ و ١٠٥ و ١١٣ و ١٢٥ و ١٣٦ و ١٤٥ و ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٦ و ١٦٤ و ١٧٣ و ١٨٥ و ١٨٧).

↔ الفَضل إبرَاهيم، دَار إحيَاء الكُتب العَربيّة، طَبعَة عِيسىٰ البَابي الحَلبي وشُركَاه.

مُغيبَات أُخرَىٰ ذَكرَهَا آبْن أَبي الحَديْد

قُلنا أَنَّ الشّريف رَحمه الله لم يَذكر في نَهْج البَلاَغة كـلّ مَـا صـحّ عـن أَمِـير المُؤمِنِين من أخبَاره بالمُغيبَات، ولكن آبن أبي الحَدِيد قَد سدّ هذا النّقص حِين أفَاض في ذِكر مَا صحّ عنهُ عليه السلام في هَذا البَاب.

وَممّا يُحسن ذِكره هُنا أَنَّ آبن أبي الحَدِيد لَم يَنقل كلّما وَقع إِلَيه مـن أخـبَار الإِمَام بالمُغيبَات، بل حَقق فِيما وَقع إِلَيه من ذَلكَ فَطَرح المُشتبه أمرَه، وذَكر مَا صحّ عنهُ عليه السلام.

قَالَ آبن أبي الحَدِيد:

«وَقد وقَفت لهُ عَلىٰ خُطب مُختلفة فِيها ذِكر المَلاَحم[1] فوجَدتها تَشتمل عَلىٰ مَا يجُوز أَنْ يُنسب إِلَيه ومَا لاَ يجُوز أَنْ يُنسب إِلَـيه، ووجَـدت فـي كَـثير مِـنها آختلاَلاً ظَاهراً. وهَذه المَواضع الَّتي أنقُلها لَيست من تِلك الخُطب المُضطربة بل من كلاَم وجَدته مُتفرقاً في كُتب مُختلفَة»[2].

وعللّ آبن أبي الحَدِيد هذه الظّاهرة الفذّة في الإِمَام بقَوله:

«وآعلم أنّه غَير مُستَحيل أَنْ تكُون بعض الأَنفُس مُختصّة بخاصّية تُدرك بها

---

(١) المَلاَحم: جَمع مَلحمَة، وهي الوَاقعَة العَظِيمَة.

(٢) شَرح النّهج لاِبن أبي الحَدِيد: ٢/٥٠٨.

المُغيبَات، وقد تَقدّم من الكلاَم في ذَلكَ مَا فيهِ الكـفَاية[١]، وَلَكـن لاَ يُـمكن أَنْ تكُون نَفس تَدرك كلّ المُغيبات، لأَنَّ القوّة المُتناهية لاَ تُحيط بأُمور غَير مُتناهية، وكلّ قوّة في نَفس حَادثة فهي مُتناهية. فوَجب أَنْ يُحمل كلاَم أَمِير المُؤمِنين عليه السلام لاَ عَلىٰ أَنْ يُريد به عمُوم العَالميّة، بل يَعلم أُموراً مَحدُودة مـن المُـغيبات، مـمّا ٱقتَضت حِكمة البَاري سُبحانه أَنْ يُؤهله لِعلمه»[٢].

* * *

ولاِبن أبي الحَدِيد هذا نصّ طَويل ذَكر فيهِ طَائفَة كَبيرَة من إِخبَارات الإِمَـام بالمُغيبَات، نَذكره لطَرافته، ولمَا لهُ من الصّلة ببَحثنا هذَا، عَلىٰ أَنْ نَتَبعه بذِكر مَـا أهمل ٱبن الحَدِيد ذِكره في هذَا النّص وذَكره في مُنَاسبَات أُخرىٰ. قَالَ:

«وَهَذه الدّعوىٰ لَيست منهُ عليه السلام ٱدعَاء الرّبوبيّة ولاَ ٱدعاء النّبوّة، ولكـنّه كَـان يقُول إنّ رسُول الله صلى الله عليه وآله أخبَره بذَلك، ولَقد ٱمـتحنَا إِخـبَاره فـوَجدناه مُـوَافـقاً، فٱستدللنا بذَلك عَلىٰ صِدق الدّعوىٰ المَذكُورة.

«كإِخبَاره عن الضّربة ٱلّتي يُضرب في رَأسه فتُخضب لِحيَته».

«وإِخبَاره عن قَتل الحُسَين ٱبنه عليه السلام، ومَا قَاله في كَربُلاء حَيث مرَّ بهَا».

«وإِخبَاره بمُلك مُعَاوية الأَمر من بَعده».

«وإِخبَاره عن الحجّاج وعن يُوسف بن عَمرو».

«ومَا أَخبَر به من أمر الخَوارج بالنّهروان».

---

(١) تقدّم منهُ كلاَم في هذَا في: ١/ ٤٢٥ و ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(٢) المَصدَر السّابق: ٢/ ٥٠٨.

« ومَا قدّمه إلىٰ أصحَابه من إخباره بقَتل مَن يُقتل منهُم وصَلب مَن يُصلب ».
« وإخبَاره بقتَال النّاكثِين[١] والقَاسطِين[٢] والمَارقِين »[٣].

---

(١) النّاكثون: أهل الجَمل.

ذكر قصّة الجَمل، وكلاَب الحَواب، الطَّبري في تأريخه: ٣/ ٤٧٥، وآسم جَمل أُمّ المُؤمِنين يسمّىٰ « عَسكراً » وكان عَظيم الخَلق شَديداً، فلمَّا رَأته أعجَبها، وأنشأ الجمّال يُحدّثها بقوّته، وشدّته، ويقُول في أثنَاء كلاَمه « عَسكر » فلمَّا سَمعت هَذه اللّفظة آسترجَعت، وقَالت: ردّوه لاَ حَاجة لي فيهِ، وذَكرت حِين سُئلت أنّ رسول الله ﷺ ذَكر لها هذا الاسم، ونهَاها عن ركُوبه وأمرت أنْ يُطلب لها غَيره، فلم يُوجد لها ما يَشبهه فغيّر لها بجلالٍ غير جلاله، وقِيل لها: قد أصبنَا لَك أعظم منهُ خلقاً، وأشدّ منهُ قوّة، وأتيت به فَرضيت!.

أنظر، شَرح النّهج لاِبن أبي الحدِيد: ٦/ ٢٢٤، وفي: ٦/ ٢٢٧ (أنّ عَائشَة رَكبت يَوم الحَرب الجَمل المُسمّىٰ عَسكراً في هودج قد أُلبس الرّفوف، ثمّ أُلبس جلود النّمر، ثمّ أُلبس فوق ذَلكَ دُروع الحَدِيد)، في تأريخ آبن أعثَم: ١٧٦ مِثله، وزَاد الطَّبريّ في تأريخه: ٥/ ٢١٢، وآبن الأَثير: ٣/ ٩٧ أنّ ضبّة، والأزد أطَافت بعَائشة يَوم الجَمل. وإذَا رجَال من الأَزد يَأخذون بَعر الجَمل يَفتّونه ـ يَكسرُونه بأصابعهم ـ ويَشمّونه ويقُولون: بعُر جَمل أمّنا رِيحه رِيح المِسك...

أنظر، مُروج الذّهب للمَسعودي: ٢/ ٣٦٦، تأريخ الطَّبري: ٥/ ١٧٨، وطَبعة أُوروبا: ١/ ٣١٢٧، آبن كَثير في تَأريخه: ٦/ ٢١٢، السّيوطي في خصَائصه: ٢/ ١٣٧، والبَيهقيّ، والمُستدرك: ٣/ ١١٩، والإصَابة لاِبن حَجر العَسقلاني: ٦٢، السِّيرة الحَلبيَّة للحلبيّ الشّافِعيّ: ٣/ ٣٢٠، مُسنَد الإمَام أحمَد: ٦/ ٩٧، السّمعاني في تَرجمة الحَوأب في الأنسَاب، والسِّيرة الحلبيّة للحلبيّ الشّافعيّ: ٣/ ٣٢٠، ومُنتَخب الكَنز: ٥/ ٤٤٤.

(٢) القَاسطُون: أهل الشّام.

أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغة: ٧/ ٤٧، المطَالب العَالية: ٤/ ٢٩٧ح ٤٤٦٢، منَاقب الخوارزميّ: ١١٠، طَبعة النّجف الأشرف، الحَاكم في المُستدرك: ٣/ ١٣٩، تأريخ آبن عسَاكر تَرجمة الإمَام عليّ: ٣/ ١٦٨ح ١٢٠٥، مِيزان الإعتدال: ١/ ١٢٧، كَنز العمَّال: ٦/ ٨٢، الرّوض الأزهر: ٣٨٩ طَبعة حَيدر آباد، شَرح المقَاصد: ٢/ ٢١٧، تأريخ بغدَاد: ٨/ ٣٤٠، أرجَح المطَالب: ٦٠٢، فرَائد السّمطَين: ١/ ١٥٠، كفَاية الطَّالب: ١٦٩، ينَابيع المودّة: ١٢٨، تأريخ الطَّبريّ: ٥/ ١٥٦، الأربعين

↔

«وإخبَاره بعدّة الجَيش الوَارد إلَيه من الكُوفة لمّا شَخص عليه السلام إلىٰ البَصْرَة لحَرب أهْلهَا».

«وإخبَاره عن عَبد الله بن الزّبير وقَوله فيهِ: خبّ ضبّ، يَروم أمراً ولاَ يُدركه، يَنصب حبَالة الدِّين لاِصطياد الدُّنيا، وهو بَعد مَصلُوب قُرَيش».

«وكإخبَاره عن هلاَك البَصْرَة بالغَرق وهلاَكها تَارة أُخرىٰ بالزّنج...».

«وكإخبَاره عن ظهُور الرّايات السّود من خرَاسان، وتَنصيصه عَلىٰ قَوم من أهلها يُعرفون ببَني رزِيق ـ بتَقدِّيم المُهملة ـ وهم آل مُصعب الَّذِين منهُم طَاهر بن الحُسَين ووُلده وإِسحق بن إِبرَاهيم، وكَانوا هُم وسَلفهم دُعَاة الدَّولة العبّاسيَّة».

«وكإخباره عن الأَئمّة الَّذِين ظَهروا من وُلده بطَبرستان كالنّاصر والدَّاعي وغَيرهُما في قَوله عليه السلام:

«وإنّ لآل مُحمَّد بالطّالقان لكَنزاً سَيُظهره الله إِذَا شَاء، دُعاوُه حقّ، حتّىٰ يَقوم بإذن الله فيَدعو إلىٰ دِين الله».

«وكإخباره عن مَقتل النّفس الزّكية بالمَدينة وقَوله إنّه يُقتل عندَ أحجَار الزّيت».

«وكقَوله عن أَخيه إبرَاهيم المَقتُول ببَاخمرا:

حَديثاً لاِبن حَجر: ٧٤ح ٣٠ و ٣١ باب ٩، مُنتخب الكَنز بهَامش مُسنَد الإمَام أحمَد: ٥ / ٤٣٥، البدَاية والنّهاية: ٦ / ٢١٨، المصنّف لاِبن أبي شَيبة: ١٢ / ٦٤ح ١٢١٣١، أُسد الغَابة لاِبن الأثير: ٣ / ٦٠٢ح ٦١١١، دلاَئل النُّبوّة للبَيهقي: ٦ / ٤٣٥، مُسنَد الإمَام أحمَد: ٣ / ٨٢.

(٣) المَارقُون: أهل النّهروان.

أنظر، أربعَة قرون من تأريخ العرَاق: ٢١ الطّبعة الثّانيَة، الفتُوح لاِبن أعثَم: ٢ / ٢٧٥، شَرح النَّهج للمُعتزلي: ٢ / ٢٠٦، تَذكرة الخواصّ: ٩٥، تأريح الطّبري: ٤ / ٦٢، كَنز العمّال: ٦ / ٧١ح ١١٧٩، و: ١١ / ٢٨٩ و ٣٠٢، مَجمَع الزَّوائد: ٦ / ٢٤٢.

«يُقتل بَعد أَنْ يَظهر ويُقهر بَعد أَنْ يَقهر».

وقَوله فيه أيضاً:

«يَأتيه سَهم غَرب تكُون فيه مَنيّته، فيَا بُوْساً للرّامي شُلّتْ يَده ووهنَ عَضده».

«وكإخبَاره عن قَتلىٰ وجّ وقَوله فِيهم: «هُم خَير أهل الأَرض»»[1].

«وكإخبَاره عن المَملكة العَلويّة بالمَغرب، وتَصريحه بذِكر كتَامة، وهُم الّذِين نَصروا أبَا عَبد الله الدّاعي المُعلم».

وكقَوله، وهو يُشير إلىٰ أبي عَبد الله المَهدي، وهو أوّلهم: «ثُمّ يَظهر صَاحب القَيروان الغضّ النّض ذو النّسب المَحض المُنتخب من سلاَلة ذي البدَاء المُسجىٰ بالرّداء».

وكَان عُبيد الله المَهدي أبيض مُترفاً مشرباً بحُمرة، رخص البَدن، تَارّ الأَطراف، وذو البدَاء إسماعيل بن جَعفر بن مُحَمّدعليه السلام وهو المُسجىٰ بالرّداء لأَنّ أبَاه أبَا عَبد الله جَعفر أسجَاه بردَائه لمّا مَات وأَدخل إلَيه وجُوه الشّيعة يُشاهدونه ليَعلموا مَوته وتَزول عنهُم الشُّبهة في أمرَه».

وكإخبَاره عن بَني بُويه وقَوله فيهم: «ويَخرج من دَيلمان بنو الصّياد» إشَارة إلَيهم، وكَان أبوهُم صيّاد السّمك، يصِيد منهُ بِيده ما يَتقوّت هو وعيَاله بثَمنه، فأخرج الله تَعالىٰ من وُلده لصُلبه مُلوكاً ثلاَثة، ونَشر ذرّيتهم حتّىٰ ضُربت الأَمثَال بمُلكهم. وكقَوله عليه السلام فِيهم: «ثُمّ يَستشري أَمرهم حتّىٰ يَملكوا الزّوراء ويَخلعوا الخُلفاء»، فقَال لهُ قَائل: فكَم مُدّتهم يَا أَمِير المُؤمِنين؟.

فقَال: «مِئة أو تَزيد قَليلاً».

(١) شَرح نَهج البَلاَغة ـ ابن أبي الحَديد: ٢ / ١٧٥ ـ ١٧٦، و: ٧ / ٥٣ ـ ٥٩ طَبعَة أُخرىٰ.

وكقوله فِيهم: «والمُترف بن الأجذم يَقتله ٱبن عمّه عَلىٰ دجلَة، وهو إشَارة إلىٰ عزّ الدَّولة بختيَار بن معزّ الدَّولة أبي الحُسَين، وكَان مُعزّ الدَّولة أقطع اليَد، قُطعت يَده في الحَرب، وكان ٱبنه مُعزّ الدَّولة بختيَار مُترفاً صَاحب لَهو وطَرب، وقَتله عَضد الدَّولة فنَاخسرو ٱبن عمّه بقَصر الجصّ عَلىٰ دجلَة في الحَرب وسلَبه مُلكه». فأمّا خَلعه للخُلفاء، فَإنّ مُعزّ الدَّولة خَلع المُستكفي». «ورَتّب عُوضه المُطيع، وبهَاء الدَّولة أبَا نَصر بن عَضد الدَّولة خَلع الطّائع ورَتّب عُوضه القَادر. وكَانت مُدّة مُلكهم كمَا أخبَر بهِ عليه السلام.

«وكإخبَاره عليه السلام لعَبد الله بن العبّاس رَحمه الله تَعَالىٰ عن ٱنتقَال الأمر إلىٰ أولاَده، فَإنّ عليّ بن عَبد الله لمّا وُلد أخرجهُ أبُوه عَبد الله إلىٰ عَليّ عليه السلام، فأخذه وتَفل في فِيه وحَنّكه بتَمرة قدَ لاَكها، ودَفعه إلَيه وقَالَ: خُذْ إليك أبَا الأَملاَك»[١].

«وَكَم لهُ من الأَخبار عن الغيُوب الجَارية هذا المَجرىٰ مَمّا لو أردنَا ٱستقصَاءه لكَسرنا كرَاريس كَثيرة، وكُتب السّيَر تَشتمل عَليها مَشروحَة»[٢].

وقَالَ:

«وَالمُراد بقَوله: فلأَنا بطُرق السّماء أعْلم منّي بطُرق الأَرض، مَا ٱختص به من العِلم بمُستَقبل الأُمور ولاَ سِيما في المَلاَحم والدّول، وقَد صَدق هذا القَول عنهُ مَا توَاتر عنهُ من الأَخبار بالغيُوب المُتكرّرة لاَ مرّة ولاَ مِئة مرّة حتّىٰ زَال الشّك والرّيب في أنّه إخبار عن عِلم ولَيس عن طَريق الصّدفة والإتّفاق»[٣].

---

(١) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ٧/ ٤٧ ـ ٥٠.

(٢) شرح نَهج البَلاَغة ـ ٱبن أبي الحَدِيد: ٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦، و: ٧/ ٥٣ ـ ٥٩ طَبعَة أُخرىٰ.

(٣) المصَدر السّابق.

ونأخذ الآنْ في ذِكر ما أهمل آبن أبي الحَدِيد ذِكره في النّص السّابق وأتـىٰ عَلىٰ ذِكره في مُنَاسبَات أُخرىٰ.

١ ـ لمَّا شَجَرهم(١) ـ الخوَارج ـ عليّ عليه السلام بالرّماح قَالَ: «أطلبوا ذَا الثّـديَة» فَطَلبُوه طَلباً شَديداً حتَّىٰ وجَدوه في وهدَة من الأَرض تَحت نَاس مـن القَـتلىٰ فأُتي بِهِ وإِذَا رجُل عَلىٰ ثَديَه مِثل سُبلات السّنور، فكبّر عَليّ عليه السلام وكـبّر النّـاس معهُ(٢).

(١) شَجَرهُم: حَارَبهُم أو رمَاهُم.

(٢) شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ١/ ٢٠٥.

وهُو حَرقُوص بن زُهير، وكَان أَسوَد مُنتَن الرّيح، ولهُ عَضد ولَيس لهُ ذِراع، وعَلىٰ رَأس العَـضُد مثل ثَدي المَرأة، ومن أجل هَذَا لُقّب بذِي الثّديَة والمخدَج أي النّاقص، وبذِي الخُويصرَة، وكَان من رُؤُوس الخوَارج.

أنظر، الفُتُوح لاِبن أعثَم: ٢/ ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٥، الأَخبَار الطّوال: ٢٠٦، الإمَـامَة وَالسّـيَاسَة: ١/ ١٦١ و ١٦٣، وأنظر تَرجمته في أسد الغَابَة: ١/ ٣٩٦، والإِصَابَة: ١/ ٣٢٩ التَرجمَة ١٦٦١ القِسم الأوّل وهو ذو الخُويصرة، وكَانَ رَجُلاً أَسوَد مُنتِن الرّيح لهُ ثَدي كَثدي المرأة، إِذَا مُدّت كَانَتْ بطُول اليَد الأُخرىٰ، وَإِذَا تركت أجتمعت وتقلّصَت، وصَارت كثدي المَرأَة، عليها شَعرات مِثل شوَارب الهرّة...

أنظر شرح النّهج لاِبن أبي الحَدِيد: ٢/ ٢٧٦ تحقِيق محمّد أبو الفَضل، وكشف اليَقِين: ١٦٥، نَيل الأَوطار للشّوكانيّ: ٧/ ١٨٥، البدَاية والنّهاية: ٤/ ٣٦٢.

وفِي صَحِيح مُسلِم كِتَاب «الزّكَاة»، وأبي دَاود بَاب قِتَال الخوَارج: إنّ رَسُول الله ٩ قَد أشَار إلىٰ هَذَا الشّيطَان بقَوله: «يَخرج قَوْم ـ أي الخوَارج ـ مِن أُمّتِي يَقرَأون القُرآن لَيس قِرَاءتكُم إِلىٰ قِرَاءتهُم بِشيء..... يَمرقُون في الإِسْلاَم كمَا يَمرق السّهم من الرّميَة... وإنّ فيهم رَجُلاً لهُ عَضُد، ولَيس لهُ ذِارع عَلىٰ رَأس عَضُده مثل حلمَة الثّدي. أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٩/ ٢١، صَحِيح مُسلِم: ٢/ ٧٤١.

وروىٰ البُخَاريّ: «وإنّ هَذَا الشّيطَان أتىٰ النّبيّ، وهُو يقسِم قَسْماً، فقَال: يَا رَسُول الله أعدل؟ فقَال لهُ: وَيلكَ! وَمن يَعدِل إذَا لَمْ أَعدل؟». أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٤/بَاب علاَمَات النّبوّة في الإِسْلاَم، شَرح النّهج لاِبن أبي الحَدِيد: ٢/ ٢٦٦ تَحقِيق مُحمّد أبو الفَضل، تَاج العَـروس: ٤/ ٣٧٩

↔

٢ ـ قَالَ عليه السلام لمن قَالَ لهُ: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طَاقة الشّعر، بَعد كلاَم: وإنّ في بَيتك سَخلاً يَقتل آبن رسُول الله صلى الله عليه وآله. قَالَ آبن أبي الحَدِيد: وكَان آبنه، قَاتل الحُسَين عليه السلام طِفلاً يَحبو، وهو سِنَان آبن أنَس النّخعي[1].

↔ أيضاً آسمه حَرقوص بن زُهير، وأنظر النّهاية: ٢/ ١٩، وأنظر تَأرِيخ الطّبَرِيّ: ٥/ ٧٢ ط أخرى، ومرُوج الذّهب: ١/ ٤١٥، وتَذكرة الخواصّ لابن الجوزي: ١٠٠، والمُسترشد في الإمَامَة: ٦٧٣.

وروىٰ أهْل التّأرِيخ أنّ الإمَام بَعد أنْ أنتهىٰ من قَتل الخَوَارِج، قَال: «أطلبُوا ذَا الثّدية بَينَ القَتلىٰ، فَبحثُوا عَنهُ فَلم يَجدُوه. فقَال الإمَام: لقَد أخبرنِي رَسُول الله صلى الله عليه وآله بقَتله، والله مَا كَذَبَت ولا كُذِبت. أنظر، مُسْنَد أحمَد: ١/ ١٣٩، صَحِيح مُسلِم: ٣/ ١١٦، فَتح البَاري: ١٢/ ٢٦٤، المُصَنَّف لعبدالرّزاق الصّنعاني: ٣/ ٣٥٨ح ٥٩٦٢، المُصَنَّف للكوفي: ٧/ ٤٥٣ح ٥ و: ٨/ ٧٣٧ح ٣٥، مُسنَد أبي يَعلىٰ: ١/ ٣٧٤ح ٤٨٠، نُظم دُرر السّمطين: ١١٦، الهِدَايَة الكُبرىٰ: ١٤٦، خصَائص النّسائي: ١٣٨، تَأرِيخ بَغداد: ١/ ١٥٩، المُدونة الكُبرَىٰ: ٢/ ٤٩، كفَاية الطّالب: ١٧٧.

وأطلبُوا الرّجُل وإنّه مَع القَتلىٰ. فَبحثُوا عَنهُ حَتّىٰ وجدُوه في حُفرَةٍ، فنُسِب إلَيهَا.

أنظر، تَأرِيخ الطّبَرِيّ: ٤/ ٦٤، و: ٦/ ٤٩، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ١٦٩، تَأرِيخ الطّبَرِيّ: ٥/ ٨٦، وأبن الأثير: ٢/ ٤٠٦، والفُتوح لابن أعثَم: ٤/ ١٢٥، أُسد الغَابَة: ١/ ٣٨٥ ومَا بعدها، و: ٢/ ٣٥١ و ٣٧١ و ٣٧٥، و: ٣/ ١٥٠ و ٣٥٤، و: ٤/ ١٠٠ و ٣١٥، و: ٥/ ١٢٢ و ١٤٣ و ٢٧٤، وشرح النّهج للعلاّمة الخوئي: ٤/ ١٢٢، وشرح النّهج لابن أبي الحَدِيد: ٢/ ٢٧٢، ومرُوج الذّهب: ٢/ ٤١٦، ومُستَدرَك الوَسَائل: ٢/ ٢٥٤، والطّبَرِيّ: ٦/ ٤٩، كَنز العُمّال: ٦/ ٧١ح ١١٧٩، و: ١١/ ٢٨٩ و ٣٠٢، ومَجمَع الزّوائد: ٦/ ٢٤٢.

(١) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ١/ ٢٠٨.

ذَكَر آبن قُتَيبَة فِي مَعَارفه: ٢١٣ بلَفظ «سِنَان بن أبي أنَس النّخعي» وَفي يَنابِيع المَودّة للقُندوزي الحنَفي: ٣/ ٨٢ـ ٨٣ طَبعة أسوَة بلَفظ: سِنَان بن أنَس النّخعي... ثُمّ دَنَا مِنهُ ـ مِن الحُسَين عليه السلام ـ فَفَتح عَينَيه في وَجهه فَآرتعدَت يَده وَسَقط السّيف مِنهَا وَولّىٰ هَارِباً... وَذَكر القُندُوزي في نَفس الصّفحَة أنّ القَاتل هُو الشّمر بن ذِي الجَوشن الضّبابي. وَأمّا الشّيخ المُفِيد في الإرشَاد فَقَد ذَكر في: ٢/ ١١٢ بلَفظ: طَعَنهُ سِنَان بن أنس بالرُّمح فَصرعهُ... وَنَزل شِمرٌ إلَيه فَذبحَه، ثُمّ دفَع رَأسَه إلىٰ خَولّىٰ بن يَزِيد... وَأمّا فِي اللُّهوف: ٥١، فَقَد ذَكَر أنّ الّذي آحتزّ رَأسه عليه السلام سِنَان بن أنَس النّخعي وَزَاد أنّ سِنَاناً هَذَا كَان يَقُول ↔

٣ ـ وخَطب ذَات يَوم فقَام رجُل من تَحت مِنبره فقَال: يَا أَمِير المُؤمِنِين، إِنّي مرّرت بوَادي القرىٰ فوجَدت خَالد بن عَرفطة قَد مَات فٱستَغفر لهُ.

فقَال عليه السلام: «وَالله مَا مَات ولاَ يَموت حتَّىٰ يقُود جَيش ظَلاَلَة صَاحب لوَائه حَبيب بن حمّار».

فقَام رجُل آخر من تَحت المِنبر فقَال: يَا أَمِير المُؤمِنِين! أَنَا حَبيب بن حمّار وإِنّي لكَ شِيعة ومُحبّ.

↔ للإِمَام الحُسَين عليه السلام «وَالله إِنّي لأَجتَزّ ـ لأَحتَزّ، ٱحْتَزّ ـ رَأسك وَأَعلَم أَنّك ٱبن رَسُول الله وَخَير النَّاس أَباً وَأُمّاً. ثُمّ ٱجتَزّ رَأسه المُقدّس المُعَظّم عليه السلام».

وَفِي المَنَاقب لابن شَهرآشُوب: ٣/ ٢١٥ و٢٣٣، و: ٤/ ٥٨ طَبعَة آخر ذَكرَ أَنَّ الَّذي ٱحتَزّ رَأسه عليه السلام الشّمر وَعندَما جَلَس اللَّعين عَلىٰ صَدره عليه السلام وَقَبض لحيَته... فَضحك الحُسَين وَقَال لهُ: «أَتقتُلني وَلاَ تَعلم مَن أَنَا؟.

فَقَال: أَعرفُك حَقّ المَعرفَة، أُمّك فَاطمَة الزَّهرَاء، وَأَبُوك عَليّ المُرتَضىٰ، وَجَدّك مُحمَّد المُصطَفىٰ، وَخَصمُك العَليّ الأَعلىٰ، أَقتلك وَلاَ أُبَالي فَضَربه بسَيفه ٱثنَتَا عَشرَة ضَربَة، ثُمّ جَزّ رَأسه صَلوَات الله وَسَلاَمه عَلَيه... وَقَال لهُ أَيضاً بَعد أَنْ طَلب المَاء: يَا ٱبن أَبي تُرَاب! أَلَستَ تَزعَم أَنَّ أَبَاك عَلىٰ حَوض النَّبيّ صلى الله عليه وآله يَسقي مَن أَحبّه؟ فَٱصبر حَتَّىٰ تَأخذ المَاء مِن يَده... أُنظر، النّهايَة: ٤/ ٣٤٣، تَذكرَة الخوَاصّ: ٢٥٣، و: ١٤٤ طَبعَة آخر.

أَمّا الطَّبري فِي تَأرِيخه: ٤/ ٣٤٦، و: ٤٠ طَبعَة آخر فَقَد ذَكَر بَعد كَلاَم طَويل فَقَال:... وَحَمل عَلَيه فِي تِلكَ الحَال سِنَان بن أَنس بن عَمرو النَّخعي فَطَعنهُ بالرُّمح فَوقَع ثُمّ قَال لخَولّىٰ بن يَزِيد الأَصبَحي ٱحتَزّ رَأسه، فَأَرَاد أَنْ يَفعَل فَضَعف فَأرعَد، فَقَال لهُ سنَان بن أَنس: فَتّ الله عَضُديك، وَأَبَان يَدَيك، فَنَزل إِلَيه فَذَبحه وَٱحتَزّ رَأسه، ثُمّ دَفع إِلىٰ خَولّىٰ بن يَزِيد وَقَد ضَرب قَبل ذَلكَ بالسَّيف... وَفي الفُتُوح لابن أَعثَم: ٣/ ١٣٧ بعد كَلاَم طَويل قَال: فَنَزل إِلَيه خَولّىٰ بن يَزِيد الأَصبَحي فَٱحتَزّ رَأسه.

أُنظر، ٱبن الأَثِير فِي الكَامل: ٤/ ٤٠، مُرُوج الذَّهَب للمَسعُودي: ٢/ ٩١، الأَخبَار الطِّوَال: ٢٥٨، تَهذِيب تَأرِيخ دِمَشق لابن عَسَاكر: ٣/ ٣٤٢، سِمط النُّجُوم العوَالي: ٣/ ٧٦، مَقتَل الحُسَين لأَبي مَخنَف: ٢٠٠، مَقتَل الحُسَين للخوَارزمي: ٢/ ٣٦ و٣٧، الفصُول المُهمّة في مَعرفَة الأَئِمّة: ٢/ ١٥١، بتَحقِيقنَا.

فقَال: «أنتَ حَبيب بن حمّار»؟.

قَالَ: نعم.

فقَال لهُ ثَانية: «وَالله إنّك لحَبيب بن حمّار»؟.

فقَال: أي والله.

قَالَ: «أمَا والله إنّك لحَاملها ولتَحملنّها ولتَدخلن بهَا من هذَا البَاب، وأشَار إلىٰ بَاب الفِيل بمَسجد الكُوفَة».

قَالَ ثابت ـ وهو رَاوي الحَدِيث ـ: فوَالله مَا مَات حتَّىٰ رأيت ٱبن زياد وقَد بَعث عُمر بن سَعد إلىٰ الحُسَين بن عليّ عليه السلام، وجَعل خَالد بن عَرفطة علىٰ مُقدّمته وحَبيب بن حمّار صَاحب رَايته، فدَخل بها من بَاب الفِيل[1].

٤ ـ كَان جَالساً في مَسجد الكُوفة وبَين يَديه قَوم منهُم عَمرو بن حُريث إذ أقبلَت ٱمرأة مُختَمرة لاَ تَعرف فوَقَفت فقَالت لعَليّ عليه السلام: يَا من قَتل الرّجال وسَفك الدّماء وأيتَم الصّبيان وأرمَل النّساء.

فقَال عَليّ عليه السلام: «وأنّها لَهي هَذه السّلقلقة الجَلعة الجَعة، وإنّها لَهي هذه الشّبيهَة الرّجال والنّساء الَّتي مَا رَأت دماً قطّ.

قَالَ يَزيد الأحمسي ـ وهو رَاوي الحَدِيث ـ فوَلّت هَاربة مُنكسة رَأسها، فتَبعها عَمرو ٱبن حُريث، فلمّا صَارت بالرّحبة قَالَ لهَا: وَالله لقَد سُررت بمَا كَان مِنك اليَوم إلىٰ هذَا الرّجل فأدخلي مَنزلي حتَّىٰ أهب لَكِ وأكسُوك، فلمّا دَخلت مَنزله أمرَ الجوَاري بتَفتِيشها وكَشفها ونَزع ثيَابها ليَنظر صِدقه فِيما قَاله عَنها، فبَكت وسَألته أنْ لاَ يَكشفها وقَالت: أنَا والله كمَا قَالَ، ليّ رُكب النّساء وأنثيَان كأُنثيي

(١) شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ١/٢٠٨.

الرّجال، ومَا رأيتُ دماً قطّ، فتركها وأخرجها، ورَجع إلىٰ مَجلسه مَع الإمَامعليه السلام فحَدّث بذَلك»[1].

٥ ـ قَام أعشىٰ بَاهلة وهو يَومئذ غُلام حَدث إلىٰ عَليّعليه السلام، وهو يَخطب ويَذكر الملاَحم، فقَال: يا أَمِير المُؤمِنِين:

مَا أشبَه هذا الحَدِيث بحَدِيث خرَافة.

فقَال عَليّعليه السلام:

«إنْ كُنت آثماً فِيما قُلت يَا غُلام فرمَاك الله بغُلاَم ثَقِيف»، ثُمّ سَكت.

فقَام رجَال فقَالوا: ومَن غُلاَم ثَقيف يَا أَمِير المُؤمِنِين؟.

قَالَ: «غُلاَم يَملك بَلدتكُم هَذه لاَ يَترك حُرمة إلاَّ ٱنتهكها يَضرب عُنق هـذَا الغُلاَم بسَيفه».

فقَالوا: كَم يَملك يَا أَمِير المُؤمِنِين؟.

قَالَ: «عِشرين إنْ بَلغها».

قَالوا: فيَقتل قَتلاً أم نمُوت مَوتاً؟.

قَالَ: «بَل يمُوت حَتف أنفَه بدَاء البَطن، يَثقب سَريره لكَثرة مَا يَخرج من جَوفه».

قَالَ إسمَاعيل بن رجَاء ـ وهو الرّاوي ـ فوَالله لَقد رَأيت بعَيني أعشىٰ بَاهلة وقَد أُحضر في جُملة الأَسرىٰ الَّذِين أُسروا من جَيش عَبد الرّحمن بـن مُـحَمَّد بـن الأَشعَث بين يَدي الحجّاج فقَرعه ووَبخه وٱستنَشده بشِعره الَّذي يُحرض فيهِ عبد الرّحمن عَلىٰ الحَرب ثُمّ ضَرب عُنقه في ذَلكَ المَجلس»[2].

---

(١) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ١ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ١ / ٢٠٩.

٦ ـ قَالَ عليه السلام لعَمرو بن الحمق الخُزاعي في حَديث:

«يَا عمرو إنّك لمَقتُول بَعدي، وإنَّ رَأسك لمَنقول، وهو أوَّل رَأس نُقل في الإسلاَم، والوَيل لقَاتلك، أمّا إنّك لاَ تنزل بقَوم إلاَّ أَسلمُوك برُمتك، إلاَّ هذا الحيّ من بَني عَمرو بن عَامر من الأَزد فإنّهم لَن يَسلموك ولَن يَخذلُوك.

قَالَ شمير بن سدير الأَزدي ـ وهو الرّاوي ـ فوالله مَا مَضت الأيّام حتَّىٰ تَنقل عمرو بن الحمق في خلاَفة مُعَاوية في بَعض أحيَاء العَرب خَائفاً مَذعوراً حتَّىٰ نَزل في قَومه من بني خُزاعة فأَسلموه، فَقُتل، وحُمل رَأسه من العرَاق إلىٰ مُعَاوية بالشّام وهو أوّل رَأس حُمل في الإسلاَم من بَلدٍ إلىٰ بَلد»[١].

٧ ـ دَخل جُويريَة بن مسهر العَبدي عَلىٰ عليّ عليه السلام يَوماً وهو مُضطجع وعِنده قَوم من أصحَابه، فنَادَاه جُويريَة:

«أيُّها النّائم اْستَيقظ فلتَضربن عَلىٰ رَأسك ضَربة تَخضب بهَا لِحيَتك».

قَالَ حيّة العربي ـ وهو الرّاوي ـ فتَبسم أَمِير المُؤمِنين عليه السلام وقَالَ: «وأُحدثك يَا جُويريَة بأمرك، أمَا والّذي نَفسي بيَده لُتتلَن إلىٰ العِتل الزّنيم، فَليقطعنَّ يَدك ورِجلك وليَصلبنك تَحت جِذع كَافر».

«قَالَ حيّة العربي: فوالله ما مَضت الأَيّام عَلىٰ ذلك، حتَّىٰ أخذَ زيَاد جُويريَة فقَطع يَده ورِجله وصَلبه إلىٰ جَانب اْبن مُكعبر وكَان جذعاً طَويلاً فصلبه عَلىٰ جِذع قَصير إلىٰ جَانبه»[٢].

٨ ـ قَالَ الإمَام لمَيثم التّمار يَوماً بمَحضر من خَلق كَثير من أصحَابه وفِيهم

(١) شَرح نَهج البلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ١/ ٢٠٩.

(٢) شَرح نَهج البلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ١/ ٢٠٩ ـ ١١٠.

الشّاك والمُخلص:

«يَا مَيثم إِنّك تُؤخذ بَعدي وتُصلب، فَإِذاكان اليَوم الثّاني ٱبتدر مِنخراك وفَمك دَماً حتّىٰ يُخضب لِحيَتك، فَإِذاكَان اليَوم الثّالث طُعنت بحربَة تَقضي عَليك فٱنتظر ذَلكَ، والمَوضع الَّذي تُصلب فيه عَلىٰ بَاب دَار عمرو بـن حُـريث، إِنّك لعَـاشر عَشرة أَقصرهُم خَشبة وأَقربهُم من المَطهرة، يَعني الأَرض، ولأَرينك النّخلة الَّتي تُصلب عَلىٰ جِذعها، ثُمّ أَرَاه إِيَّاها بَعد ذَلكَ بيَومَين».

وقَد تَحققت هَذه النّبوءَة بحذَافيرها كمَا ذَكر ذَلكَ ٱبن أَبي الحَدِيد في حَديث طَويل يَضيق به المقَام(١).

٩ ـ روىٰ إِبرَاهيم بن العبَّاس النّهدي في سَند يَنتهي إِلىٰ زيَـاد بـن النّـضر الحَارثي أنّه قَالَ:

«كنتُ عند زيَاد وقد أُتي برُشَيد الهِجري وكَان من خواصّ أصحَاب عَليّ عليه السلام، فقَال لهُ زيَاد: مَا قَالَ لكَ خَليلك أنَّا فَاعلون بك؟.

قَالَ: تَقطعُون يَدي ورِجلي وتَصلبونني.

فقَال زيَاد: أمَا والله لأُكذبنّ حَديثه، خَلّو سَبيله، فلمّا أرَاد أَنْ يَخرج، قَـالَ: رُدّوه، لاَ نَجد شَيئاً أَصلَح ممّا قَالَ لكَ صَاحبك، إِنّك لاَ تَزال تَبغي لنَـا سُـوءاً إِنْ بَقيت، ٱقطعوا يَديه ورِجلَيه، فَقطعوا يَديه ورِجلَيه وهو يَتكلّم.

فقَال: ٱصلبُوه خَنقاً في عُنقه.

فقَال رُشَيد: قَد بَقي لكُم عندي شيء ما أرَاكم فَعلتمُوه؟.

فقَال زيَاد: ٱقطعوا لسَانه، فلمّا أخرجُوا لسَانه ليُقطع.

(١) شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أَبي الحَدِيد: ١ / ٢١٠ ـ ٢١١.

قَالَ: نفسّوا عني أتكلّم كَلمَة وَاحدة، فنفسّوا عنهُ.

فقَال: هذَا والله تَصديق خَبر أَمِير المُؤمِنِين أخبَرني بقَطع لسَاني، فَقطعُوا لسَانه وصَلبُوه»[١].

١٠ ـ حَدّث سَعد بن وَهب، فقَال في حَديث:

«فَأتيتهُ ـ يَعني عليّاً عليه السلام ـ في كَربُلاء، فوَجدته يُشير بِيَده ويقُول: هَهُنا هَهُنا فقَال لهُ رجُل: ومَا ذَاك يا أَمِير المُؤمِنِين؟.

فقَال: ثَقل لآل مُحَمّد صلى الله عليه وآله يَنزل هَهُنا، فَويلٌ لهُم منكُم ووَيلٌ لكُم منهُم.

فقَال لهُ الرّجل: مَا معنىٰ هذا الكَلاَم يا أَمِير المُؤمِنِين؟.

قَالَ: وَيلٌ لهُم منكُم تَقتلونهُم ووَيلٌ لكم منهُم يَدخلكم الله بقَتلهم النّار»[٢].

١١ ـ ذَكر ٱبن أبي الحَدِيد تتمّة خُطْبته في المَلاَحم تَنبأ فِيها الإِمَام بأَنّ السّلاح سَيُحمل عَلىٰ الظّهر بقَوله: «وحتَّىٰ يكُون مَوضع سلاَحكم عَلىٰ ظهُوركم وكأنّه يُشير بذَلك إلىٰ البُندقية ومَا إِلَيها من الأَسلحة الحَديثة، وتَنبأ فِيها بولاَية الحجّاج ويُوسف بن عُمر»[٣].

١٢ ـ قَالَ ٱبن الحَدِيد: ومِن عَجِيب مَا وقفتُ عَليه من ذَلكَ قَوله في الخُطْبَة الّتي يَذكر فِيها الملاَحم وهو يُشير إِلىٰ القَرامطة: «يَنتحلُون لنَا الحُبّ والهَوىٰ ويَضمرون لنَا البُغض والقلىٰ، وآيَة ذَلكَ قَتلهم ورَاثنا وهَجرهم أحدَاثنا».

قَالَ ٱبن أبي الحَدِيد: وصحّ مَا أُخبر به، لأَنَّ القَرامطة قَتلت من آل أبي طَالب

(١) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ١ / ٢١١ ـ ٣٠٠.

(٢) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ١ / ٢٧٨.

(٣) شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٢ / ١٣٣.

خَلقاً كَثيراً وأسمَاؤهم مَذكورة في كتَاب مقَاتل الطّالبين لأَبي الفَرج الأَصفهاني.

وفي هَذه الخُطْبَة قَالَ، وهو يُشير إلىٰ السّارية الَّتي كَان يَستند إِلَيها فـي مَسـجد الكُوفَة: «كأنّي بالحَجر الأَسود مَنصُوباً هُنا، وَيحهُم أنّ فَضِيلته لَيسَت في نَفسه بَل في مَوضعه وأُسّه، يَمكث هُنا بُرهة، ثُمّ هَهُنا بُرهة، وأشَار إلىٰ البَحرين، ثُـمّ يَعود إلىٰ مَأواه وأُمّ مَثواه». ووَقع الأَمر في الحَجر الأَسود بمُوجب مَا أُخبر بِهِ[١].

---

(١) شَرح نَهج البَلاَغة لاِبن أبي الحَدِيد: ٢/٥٠٨، وذكر أبن أبي الحَدِيد في: ٢/٤ ـ ٥٠، عن المَدَائني في كتَاب صفّين خُطبَة للإمَام في المَلاَحم خَطَبها بَعد النّهروان.

الـوَعْــظُ

تَمْهِيد:

خَطأ أُسلُوب الوُعَّاظ التّقلِيديِّين وَالطّرِيقَة الصَّحِيحَة لدَراسَةِ النُّصُوص

يحسب بعض المُثقفين من نَاشئة هذا الجِيل أَنَّ الإِسلاَم يدعو إِلىٰ التّنكر للدُّنيَا والتّزهيد فيها وٱعتبارها أذىً كَبيراً لا يجمل بالمَرء أَنْ يصيب منه قليلاً ولا كثيراً.

والكُتب المَوضوعة للتّبشير بالحضارة الغَربية، عدوّة كلّ دعوة روحية، تُساعد عَلىٰ تركيز هذه الفِكرة عن الإِسلاَم في نفوس هؤلاء. وتُسهم إِسهاماً كبيراً في تركيزها أيضاً البرامج التّعليمية المَدخولة الّتي تهمل دور الإِسلاَم العظيم في إِنقاذ العالم وتقدّمه، وإِنْ عَرضته فإِنّما تعرض إِسلاماً مُشوهاً خالياً من الحيَاة.

كلّ هذا جعل هذه النّاشئة تنظر إِلىٰ الإِسلاَم نظر ذعر وتخوف مبعثهما الجهل لا العِلم، والعمى لاَ البصر.

وتوجه هذه النَّظرَة أيضاً إِلىٰ التُّراث الإِسلاميّ في ميادين الفلسفة والأَخلاق والأَدب.

ونَهج البَلاَغة من جملة هذا التُّراث الّذي يُنظر إِلَيه عَلىٰ هذا النّحو.

فهذا الكتاب، عند ناشئة الجيل، يحتوي عَلىٰ طَائفَة من الخُطب قيلت في

التّزهيد بالدُّنيا والتّنفير منها، والنّعي عَلىٰ المُتمسكين بها، والآخذين بنَصيب من مباهجها وأفراحها، وهو لذلك كتاب لا يُلائم روح عصرنا هذا، لأنّه يشل في الإنسَان رغبته في العَمل ويُعطل حسّ الحيَاة فيه، ويدفعه إلىٰ القناعة بحياة ذليلة واهنة مُظلمة شوهَاء.

ولَم لاَ؟ ألم تصدر هذه الخُطب والأَقوال من رجل رَكل الدُّنيا بقدمه، وخرج عنها، ودعا النّاس إلىٰ أَنْ يركلوها بأقدامهم ويخرجوا عنها؟.

هذه نظرة طَائفَة كَبيرَة من شباب الجيل إلىٰ نَهْج البَلاَغة.

والأُسلوب الوعظي الّذي يتناول فيه كثير من الوعاظ في المساجد والمحافل مهمتهم يدعم نظرة ناشئة الجيل إلىٰ نَهْج البَلاَغة ويُعززها، فهم يتناولون مهمتهم عَلىٰ نحو خاطيء، لأنّهم يعتمدون في وعظهم اعتماداً مُطلقاً عَلىٰ التّنفير من الدُّنيا وعَلىٰ ذمها والتّزهيد فيها واعتبارها أذىً كبيراً يَحول بين الإنسَان وبين أَنْ يصبح إنساناً حقّاً، ويجدون في نَهْج البَلاَغة عَلىٰ الخصوص مَعيناً لاَ ينضب من الشّواهد عَلىٰ ما يقولون.

* * *

إنّنا إذْ نرجع إلىٰ مبادىء الإسلاَم لنتعرف عَلىٰ وجهة نظره إلىٰ الدُّنيا نجد هذه المبادىء تشجع الإقبال عَلىٰ الدُّنيا، وتحترم العَمل، وتُمجد العامل، وتعنىٰ بنشاط الإنسَان الدُّنيوي كما تُعنىٰ بنشاطه الأُخروي، يدل عَلىٰ ذَلكَ ما شرعه الإسلاَم من قوانين تتناول جميع ألوان نشاطه الدُّنيوي.

والإمَام عليه السلام هو أعظم أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وآله فهماً للإسلام ووعياً لأَسراره فلا يعقل أَنْ يقول شيئاً يُخالف روح الإسلاَم العامة ونظرته الشّاملة إلىٰ الإنسَان. ولكنّنا

نرجع إِلىٰ نَهْج البَلاَغة فنجده مُكتظاً بالتّنفير من الدُّنيا، وردع النّاس عنها.

فكيف نُلائم بين ما نراه في نَهْج البَلاَغة، وبين ما نعرفه عن الإمَام عليه السلام.

الَّذي أراه هو أَنَّ الوعاظ والنّاشئة جميعاً راحوا ضحية خطأ كبير سبب لهم سوء الفَهم وسوء التَّأويل لما جاء في نَهْج البَلاَغة من ذمّ الدُّنيا.

فعندما نريد أَنْ نفهم نصاً من النّصوص يتضمن رأياً في الإِنسَان وفي مصيره يجب علينا أوّلاً أَنْ نفهم الثّقافة الَّتي صدر عنها هذا النّص، ثُمّ يجب علينا ثانياً أَنْ نفهم الوَاقع التَّأريخي الَّذي صدر فيه النّص، فَإِذا تمَّ لنا من ذَلكَ ما أردنا وضعنا النّص في إِطاره التَّأريخي الخاص وأحطناه بظروفه النّفسية المُعينة، وفسرناه من وجهة نظر الثّقافة الَّتي ألهمته قائله، فحِينئذٍ يتهيأ لنا أَنْ نفهم النّص فهماً صحيحاً.

أمّا حين نُجرد النّص من إِطاره التَّأريخي؟ ثُمّ ننظر إِلَيه بغير الرّوح الَّتي صدر عنها، فإِنّ أملنا بالفهم الصّحيح يكون عقيماً لأَنّنا حينئذ لن نحصل عَلىٰ الفَهم الصّحيح أبداً.

وهنا يكمن الخَطأ الكبير الَّذي انزلق إِلَيه من حسب نَهْج البَلاَغة كتاباً يدعو إِلىٰ رفض الحيَاة الدُّنيا والتَّنفير عنها.

إِنّ هؤلاء حينما ذهب بهم الوهم هذا المذهب كانوا عَلىٰ جهل بالمَثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم من جهة أُولىٰ، وكانوا عَلىٰ جهل بنظرة الإِسلاَم الواقعية إِلىٰ الحيَاة والمَوت والمال من جهة ثَانية، وكانوا عَلىٰ جهل بالواقع التَّأريخي الَّذي صدر فيه القسم الوعظي من نَهْج البَلاَغة من جهة ثَالثَة.

فعلينا لكي نفهم القِسم الوعظي من نَهْج البَلاَغة فهماً صحيحاً أَنْ نعني بفهم هذه الأُمور الثّلاثة، وسيكون هذا سبباً في دراسة الوَاقع الإِجتماعيّ في زمان الإِمَام دراسة مُوسعة.

المَثلُ الأَعَلىٰ لِلحَيَاةِ في الإِسْلام وَالوَاقِعُ الإِجتَماعي وَالسَيَاسي حِينَ تَولَّىٰ الإِمَام عَليّ عليه السلام الحُكْم

إِصْلاحَات الإِمَام عليّ عليه السلام وَرُدودُ الفِعْل ضدّهَا

ونَبدأ بالمثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم.

لقد عرفنا أَنَّ المثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم هو التَّقوىٰ.

وقد فهمنا أَنَّ التَّقوىٰ هي الفضيلة في أرفع معانيها، وعرفنا أَنَّ الإِنسَان المُتقي هو الإِنسَان الَّذي وعىٰ وجود الله وأمره ونهيه في كلّ ما يلم به من فعل أو قول، وجعل من نفسه خلية إِنسانية حيّة تعمل بحرارة وإِخلاص عَلىٰ رفع مستوىٰ الكيان الإِجتماعيّ الَّذي تضطرب فيه، وصدر في ذَلكَ كلّه عن إِرادة الله المُتجلية فيما شرع من أحكام.

هذا هو المثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم، فما الَّذي يَحول بين الإِنسَان وبين بلوغه؟.

الَّذي يَحول بين الإِنسَان وبين بلوغ هذا المثل الأَعلىٰ هو أَنْ تقفر حيَاته من الشّعور بالله كطاقة نفسية فاعلة، ويتبع ذَلكَ بصورة حتمية أَنْ يفقد الدِّين ما له من أثر توجيهي في حياة الإِنسَان، وإِذَا فقد الإِنسَان هذين (الشّعور بالله، والدِّين) لم

تعد الجماعة الَّتي يعيش فيها تعني بالنسبة إليه شيئاً، ولا يعود يستلهم في سلوكه سوى ذاته هو، والنّتيجة الطّبيعية لهذا هي أَنْ يصبح إنساناً فردياً أنانيّاً.

إذَا آستوىٰ وجود الإنسَان عَلىٰ هذا النّحو كان بعيداً عن التَّقوىٰ، وكان واقعه حائلاً بينه وبين التَّقوىٰ.

وقد قلنا إنّ وجه الفائدة في جعل التَّقوىٰ مثلاً أعَلىٰ للحيَاة هو أَنْ يكون مفهوم الطّبقة الَّذي يستتبع حكماً تقويمياً لطائفة من النّاس مُنبثقاً من التَّقوىٰ، بدلاً من أَنْ ينبثق هذا المفهوم من الإقتصاد أو الحَرب، وبذلك تكـون الطّـبقات ظـاهرة إجتمَاعيّة تعود عَلىٰ المُجْتَمع بالخير، بدلاً من أَنْ تكون تَعبيرا حادّاً عن التَّفسخ الإجتماعيّ.

فَإذا عدنَا لنرىٰ واقع المُجْتَمع الإسلاميّ في الوقت الَّذي ولِّي فيه الإمَام الحُكم ألفيناه مُجتمعاً مريضاً مُنحرفاً فقد الدِّين قوته الدَّافعة عندهم، وآستشرت الرّوح القبلية فيهم، وعاد المثل الأَعلىٰ للحيَاة عندهم المال والقوّة.

ويقتضينا فهم هذا الوَاقع أَنْ نَلم بالأَسباب الَّتي أدّت إلَيه.

* * *

ولّي عُثمَان بن عفّان الخلاَفة بعد عُمر بن الخطاب فكانت خلاَفته إيذانا بأفول سياسة وبزوغ عَهد سياسي جديد.

فلقد آتّبع عُثمَان مُنذ ولّي الحُكم سياسة خطرة في المال والولاَيات.

فقد طفق يهب خواصه وذوي رحمه ومن يمت إلَيه بنسب أو سبب الأمـوال العظيمة ويخصهم بالمنح الجليلة، ويحملهم عَلىٰ رقاب النّاس.

وولّىٰ عَلىٰ البُلدان الإسلاميَّة شُبّاناً من بني أُميّة، لا يحسنون الحُكم ولا السّياسة، ذوي روح تسلطية عاتية، لم ينل منها الإسلاَم شيئاً مذكوراً.

وهكذا كوّنت هذه الطّبقة طبقة أريستوقراطية من الأَغنياء المُترفين الَّذِين لا تزال تعتمل في صدورهم القيم البدوية الجاهلية.

وقد ٱمتد نفوذ هذه الطّبقة في خلاَفة عُثمَان ٱمتداداً هائلاً، فسيطرت عَلىٰ الحُكم سيطرة مُطلقة، وحازت الأَموال العَظيمة الَّتي أفاءها الله عَلىٰ المُسلمِين، والَّتي كان المفروض فيها أَنْ تذهب إِلىٰ المُعدمين والفُقرَاء، وٱنتشرت هذه الطّبقة في طول البلاَد الإِسلاميَّة وعرضها حين فتح لها عُثمَان باب الهجرة والتَّنقل في البلاَد الإِسلاميَّة.

وإِلىٰ جانب هؤلاء كانت ثمّة طبقة أُخرىٰ تتألف من الأَعراب وأهل البَادية وكانت القوىٰ المُسلحة في الدَّولة الإِسلاميَّة مكوّنة منهم، يَنضم إِلَيهم من دخلوا في الإِسلاَم من الأُمم غير العرب، هؤلاء كانوا يلقون في زمن عُثمَان حيفاً كبيراً من طبقة الاريستوقراطيِّين النّاشئة، الطّامحة إِلىٰ مَزيد من القوّة والإِستعلاء بسبب ما يعتمل في نفوس أفرادها من قِيم البدَاوة.

وكانت عاقبة ذَلكَ أَنْ تضخمت الفروق بين الطّبقات تضخماً كبيراً من النّاحية المادية والمَعنوية.

وٱنقلبت الأَثرة إِلىٰ طُغيان، وٱنقلب الحقد إِلىٰ زئير، وتراكم الطّغيان حتَّىٰ وجد رد فعل طاغ في ثورة المَظلومين، الَّذِين أثقلهم الظّلم الفادح، عَلىٰ حكُومة عُثمَان وعَلىٰ ولاَته.

وكانت عَاقبة ذَلكَ كلّه قَتل عُثمَان[١].

(١) قتل بَعد أنْ اشتَد الطّعن عليه بسبب مُخالفاته الّتي لا تُحصىٰ، ولكن نَذكر طَرفاً منها للتّعرف علىٰ مُخلفات الفَلتَة في بيعة أبي بكر، وعُمر، كمَا اعترفَا هُما بذَلك، وكذلك علىٰ عقَابيل الشُّورَىٰ... والبَاب الّذي فتحهُ عُثمان لبني أُميّة... ثُمّ كَيف انقضوا عليه وبتروه بعد أنْ تبرءوا منه؛ لأنّ المنافق لا يُؤمن شرّه....

ودولة عُثمانَ ظهر فيها النّفاق وبلغ أوج عظمته إنْ كانت له عَظمة -إنْ صحّ التعبير- لأنّ العظمة لله وَحده سُبحانه وتعالىٰ.

منع كتَبة الحَديث ليس من دراستنَا هذه، ولكن نَذكرهَا استطراداً؛ لأنّ عُثمانَ هُو أيضاً مَنع كتابة الحديث، وأوّل خُطوة بَدأ بها قَوله: «لاَ يَحل لأحد يروي حديثاً لَم يُسمع به في عَهد أبي بكر ولا في عهد عُمر بن الخطّاب».

أنظر، الطّبقات الكُبرىٰ: ٢/ ٣٣٦، كَنز العُمَّال: ١٠/ ٢٩٥، وراجع أَضواء عَلىٰ السُّنَّة المحمّدية، أو دفَاع عَن الحَديث، مَحمُود أبُو رَيَّه: ٤٦.

إذَنْ هُو لاَ يختلف عَن صَاحبيه، بَل زاد عَليهم واتسعت الطّبقة الإرستقراطية العُثمانية وزادت قَائمة النُّبلاء. ومن هُنا ظهرت الحركات المُضادة الّتي تَئن تحت العَباءة الأُمويّة، وَلذا نَرىٰ عُثمانَ يقف ويَقول: «أيُّها النَّاس إنّ أبَابكر، وعُمر كَانا يَتأوّلان هَذا المال ظلف أنفسهُما وذوي أرحامهُما، وإنّي تَأوّلت فيه صِلة رَحمي». أنظر، الطّبقات الكُبرىٰ: ٣/ ٦٤، كَنز العُمَّال: ٥/ ٦٢٧.

ويقول: «.. لو أنّ بيدي مفَاتيح الجنّة لأعطيتُها بني أُميّة حتّىٰ يدخلوا عَن آخرهم...

أُنظر، أُسد الغَابة في مَعرفة الصَّحابة: ٣/ ٣٨٠، تطهير الجنَان وَاللّسان لابن حَجر: ٤٦.

وترك عُثمانَ نَفسه يوم قتله، ثلاثين ألف ألف درهم. وَخمسمئة ألف درهم، وَخمسون وَمئة ألف دينار وتَرك ألف بعير». أُنظر، الفتح الرّبانيّ: ٢٢/ ٣٣٢، الطّبقات الكُبرىٰ: ٣/٧٦.

كمَا أنّ عُثمان سَار عَلىٰ سيرة عُمر بن الخَطّاب في إختيار الأُمراء، فَقد عين أبَا زُبيد النّصراني، وإياس بن جيح -من أصحاب مُسيلمة الكذاب- وطلحة بن خُويلد -الّذي ادّعىٰ النُّبوَّة- فسار عُثمان عَلىٰ منهج صاحبه فعين الوَليد ابن عقبة حَتّىٰ ظهر منه شُرب الخمر، وهُو الّذي نَزلت فيه: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، الحُجرات: ٦.

ونَزلت فيه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾. السَّجدَة: ١٨.

وَلاَ أدري كَيف يرد الأُستَاذ مُحمَّد زكي الدِّين مُحمَّد قَاسم عَلىٰ هذا وغيره عندما قَالُوا: (الصَّحابة

كُلّهم من أَهل الجنَّة قَطعاً، وَلاَ يدخل أَحد منهم النّار).

أُنظر، في عالم القيم مَع الخُلفَاء الرَّاشدين، مُحَمَّد زَكي الدِّين مُحمَّد قَاسم: ١٥.

وَأستعمل سعد بن العاص عَلىٰ الكُوفة وظهر منه أشياء مُنكرة حتَّىٰ قَالَ: «إنَّما السَّواد بُستان لقُريْش تَأخذ منه ما شاءت وتترك منه ما شاءت». حَتَّىٰ إنَّه لم يعزله بأختيارة بَعد أنْ أُبلغ بأفعاله، بَل رده أميراً علىٰ الكُوفة، وأَمره بالتَّضييق عَلىٰ أهلها، فَلمَّا جاء ليدخُل الكُوفة خرج أَهلها عليه بالسّلاح فتلقُوه فردُوه، وكتبُوا إلىٰ عُثمان: «لاَ حاجة لنَا في سعيدك ولاَ وليدك».

أُنظر، تَأريخ الطّبريّ: ٥/٨٨ و ٩٤، أبن الأثير في الكَامل: ٣/٦٧و:٣/٧٣، الإِستيعاب: ٢/٦٢١.

وجعل عبدالله بن أبي السّرح أخا عُثمان من الرّضاعة وَالياً عَلىٰ مَصر بعد أنْ عزل عَمرو بن العاص عَنها ـ وعبدالله كَان كَاتباً للوحي كما يدعُون، ثُمَّ أرتد مُشركاً وأَمر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقتله ولو وُجد مُتعلقاً بأستار الكعبة لكنَّ عَبدالله أختفىٰ عند عُثمان إلىٰ أنْ جاء دوره وَأمره أنْ يغزو بلاَدَ إفريقيه؛ فَإنْ فتحها فلهُ خُمس الخُمس من الغنيمة، فسار إليها في عَشرة آلاَف فأفتتحها، وقتل خلقاً كَثيراً من أَهلها.

أُنظر، البداية وَالنّهاية لاِبن كَثير: ٧/١٥٢، أبن الأثير: ٣/٤٣، الطَّبريّ: ٥/٤٩.

وسيّر أَبَا ذرّ إلىٰ الرَّبذة مَطروداً، وهي خَارج المدينة، وعندما ودَّعه الإِمَام عليّ عليه السلام غَضب عُثمان، وَلكنْ لمّا سمع الإِمَام عليّ عليه السلام بغضب عُثمان، قال مقُولته المشهُورة: (غَضَب الخَيل عَلىٰ اللّجَام). أُنظر، تَأريخ الطّبري: ٥/١١٢، الكَامل في التَّأريخ: ٣/٦٩، مرُوج الذَّهب: ٢/٣٥٠.

وسيّر عَامر بن عَبد قيس، مِن البصرة إلىٰ الشّام، وطلب منه عبدالله بن خالد بن أُسيد صلة فأعطاه أربعمئة أَلف... وأفتتح إفريقيه وأَخذ خُمسها فوهبه لمروان».

وَقَالَ أبن هِشام في السِّيرة الحَلبية: «وسَبب هذه الفتنة أنَّهم نَقموا عليه أُموراً منها عَزله لأَكَابر الصَّحابة ممَّنْ وَلاَّه رَسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومنهم من أوصىٰ عُمر بأنْ يَبقىٰ عَلىٰ ولايته وَهُو أَبُو مُوسىٰ فَعزله عُثمانَ وولىٰ أبن خَالد عبدالله أبن عَامر مَحله، وعزل عَمرو بن العَاص عن مَصر وَوَلاَّها أبن أبي سَرح، وعَزل المُغيرة عن الكُوفة، وعَزل أبن مَسعود عَنها وأَشخصه إلىٰ المدينة، وعَزل سَعد بن أَبي وَقاص عَن الكُوفة وَولىٰ أَخاه لأُمّه الوليد بن عُقبة الّذي سمّاه الله تَعَالىٰ فَاسقاً... ومنها أنَّه أدخل عمّه الحكم وكَان يُقال لهُ طَريد رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَلعينه... وأنّه حَبس عَطاء عبدالله أبن مَسعود وهجره، وحَبس عَطاء أُبي بن كعب، ونَفىٰ أَبَا ذرّ إلىٰ الرَّبذة، وَأشخص عُبَادة بن الصَّامت من الشّام لمّا شكَاه مُعَاوية... وضَرب عَمَّار بن يَاسر، وكعب بن عبيدة، ضربه عشرين سَوطاً ونفاه إلىٰ بَعض الجبَال،

↔ وَقال لاِبْن عُوف إنّك مُنافق... وأنَّه أحرق الصُّحف الّتي فيها القُرآن، وأنَّه أتم الصَّلاة بمنىٰ... وأنَّه ترك قتل عُبيد الله وقد قتل الهُرمزان...».

أُنظر، المصابِيح، لأحمد بن إبراهيم: ٢٨٨، العقد الفريد: ٣/٧٧ و ٩١، السِّيرة النّبويّة: ٢/٨٢، الطَّبعة الثّانية مَصر، شَرح النّهج: ١/٦٦ و ٢٣٣، مُستدرك الحَاكم: ٣/٣٣٧ و ٣٤٥، أبن الأثير: ٣/٦٥ و ٧٣، تَأريخ الطَّبريّ: ٥/٨٠ و ٩٤، مُسند أحمد: ٥/١٥٥ و١٦٦، و ٦: ٤٥٧، كَنز العُمّال: ٦/١٧٠، المعَارف لاِبن قُتيبَة: ٨٤، أبن كثير: ٧/٤٥٢، تَأريخ أبي الفِدَاء: ١/١٦٨، الإصابة: ٣/٦١٩، سُنن البيهَقيّ: ٨/٦١، الطَّبقات لاِبن سَعد: ٥/٨، أنسَاب الأشرَاف: ٥/٢٨، مرآة الجنَّان: ١/٨٥، كُلّ هذه المصادر وغيرها نقلت لنَا هذه المساوىء العُثمانية بشكل مُفصل. فمن أراد المزَيد فليراجع.

وَقد أخرج صاحب الأغاني قَول عُثمان: «... أما يَجد مُراق أهل العراق وفساقهم مَلجأً إلاّ بَيت عَائشة؟ فسمعت عَائشة فرفعت نَعل رسُول الله ﷺ، وقَالت: تَركت سُنّة رسُول الله صَاحب هَذَا النّعل، فَتسامع ٱلنَّاس فجَاءوا حَتّىٰ مَلأوا المسجد فمن قائل: أحسنت، ومَن قائل: مَا للنّساء ولهذا؟ حَتّىٰ تحَاصبوا وتضَاربوا بالنّعال... وَقد واجهه جُندُب ومَا أدراك مَا جُندُب، وزيد بن صُوحان. فزيد هُو القائل لعُثمان: «مِلتَ فمَالت أُمّتك أعتدل تَعتدل أُمّتك». أُنظر، الطَّبقات الكُبرىٰ: ٦/١٢٤.

وتجري الأحدَاث يَوماً بعد يوم ضد عُثمان عندما كشّر عن نوَاياه السّيئة وأظهرها في خُطبته حين قَال: «فَقد والله عبتُم عَليّ بمَا أقررتُم لاِبن الخَطّاب بمثله، ولكنّه وطئكُم برجله وضربكُم بيده وقمعكم بلسانه...». أُنظر، تَأريخ الطَّبريّ: ٥/٩٧، البداية وَالنّهاية لاِبن كَثير: ٧/١٦٩، الإمامة وَالسّياسة: ١/٣٤ ـ٣٨، الكَامل لاِبن الأثير: ٣/مَقتل عُثمان.

وَلذَا عندما طُلب مِن عُثمان أنْ يستقيل من مَنصب الخِلاَفَة قَال: «لاَ أنزع قميصاً أُلبسنِيه الله عزَّوجلّ...». أُنظر، المَصدر السَّابق: ٤/٣٧١ و٣٧٢ و٣٧٥ و ٣٧٧، الكَامل لاِبن الأثير: ٣/١٦٩، بَيروت، شَرح النّهج: ٢/١٥٠.

وَقَالَ أبُو سُفيان في جمع ضمّ بني أُميّة في دَار عُثمان بن عفّان: «يَا بَني أُميّة تَلقفُوها تَلقف الكُرة، فوالذي يَحلف به أبُو سُفيان مَا زِلتُ أرجُوها لكُم ولتصيرَن إلىٰ صبيانكُم ورَاثة».

أُنظر، مرُوج الذَّهب: ٢/٣٥١، النّزاع وَالتّخاصم، تَحقيق: حُسين مُؤنس: ٣٨.

ومن هذا وغيره مِن الأسباب هي الَّتي جعلت الثّوار يَقتحمون باب المجاهد ويردونه قَتيلاً بعد أنْ أستنجد بمُعاوية حليفه وصاحب بطانته، ولكنّه تباطأ عنه كما يذكر الطَّبريّ. أُنظر، تَأريخ الطَّبريّ: ↔

وجاء النّاس إلىٰ الإمَام يَطلبون منه أَنْ يلي الحُكم، ولكنّه أبىٰ عليهم ذلك، لاَ

↔ ٥/ ١١٥.

وأمّا السَّيِّدة عَائشة فإنّها أوّل من كفّرته وقَالت: «أقتُلوا نعثلاً فقد كَفر». أُنظر، تَأريخ الفُتوح لابن أعثم: ١٥٥، النّهاية لابن الأثير: ٥/ ٨٠، شَرح النّهج: ٤/ ٧٧.

أمّا طَلحَة بن عُبيد الله فكَان يَوم قُتل عُثمان مُقنعاً بثوب أستتر به عن أعيُن النَّاس، وكَان يرمي دَار عُثمانَ بالسّهام كما ذكر شَرْح النّهج لابن أبي الحَديد، ولطلحة قصَّة مشهورة مع عُثمان عندما أشرف من الخَوخَة عَلىٰ الثّوار. أُنظر، شَرح النّهج لابن أبي الحَدِيد: ٢/ ٤٠٤، الفَتح الرَّبانيّ: ٢٢/ ١١٢، تَأريخ الطَّبريّ: ٥/ ١٢٢.

وأمّا عَمرو بن العاص المُستشار السّياسي السّابق له فقد نَاداه يَوم القَتل من نَاحية المسجد: أتق الله يَاعُثمانَ فإنّك قَد ركبت نَهابيراً وركبنَاها معك فتُب إلىٰ الله تَتُب. فناداه عُثمان: وإنّك هُناك يَا أبن النّابغة قَملت جُبتك مُنذ تركتُك من العمل... فناداه النَّاس... ياعُثمانَ تُبْ إلىٰ الله وَأظهر التّوبة يَكف النَّاس عَنك. أنظر، تَأريخ الطَّبريّ: ٥/ ١٠٨، ١١١.

وأمّا مَروان بن الحَكم فَقد كانت مُهمته تَصعيد المَوقف وهُو العُنف من قبل الثّوار ضدّ (المجاهد) عُثمان بكتَابته الكتُب المُزورة والمختُومة بختم ذي النّورين في قَتل مُحمّد بن أبي بَكر وأصحَابه من أهل مَصر، حتّىٰ نَائلة زوّج عُثمان حَذّرته من مَروان وقالت لعُثمان: «إنّك إنْ أطعت مَروان قتلك». ومَروان هُو القَائل للنَّاس: «شَاهَت الوجُوه إلّا مَن أُريد..».

أُنظر، البدَاية وَالنّهاية لابن كَثير: ٧/ ١٧٣، تَأريخ الطَّبريّ: ٥/ ١١٢.

ومن جرَّاء ضَعف عُثمان لأنّ لهُم حَتّىٰ ركب، ولو كانت بيده مَفَاتيح الجَنَّة لأعطاها لبني أُميَّة كمَا يَقول هُو. أُنظر، تَطهِير الجنَّان وَاللّسان، لابن حَجر: ٤٦، أُسد الغابة في مَعرفة الصَّحابة: ٣/ ٣٨٠، الطَّبقات الكُبرىٰ، لابن سَعد: ٥/ ١٧٢، تَأريخ الطَّبري: ٥/ ٣٥.

لَم يَكن عُثمانَ يتحمل حَتّىٰ النّقد البَسيط، فحين سَخر أبُو ذرّ الغفَاري عندما تَساءل عُثمان: أترُون بَأساً أنْ نَأخذ مَالاً من بَيت المُسلمِين فَننفقه فيما يُقوينا من أمرنا ونعطيكموه؟ قال لهُ عُثمان: «مَا أكثر أذاكَ ليّ! غيِّب وَجهك عَني فقَد آذيتنا»، فخَرج أبُو ذَرّ إلىٰ الشّام، فكَتب مُعاوية إلىٰ عُثمانَ أنّ أبَا ذرّ تَجتمع إليه الجمُوع، وَلاَ آمن أنْ يُفسدهم عليك. فكتب إليه عُثمان ليحمله عَلىٰ بَعير عليه قَتب يابس ويَرسله إلىٰ المدينة، وقَد تَسلخت بواطن أفخَاذه!». وقَد قيل له: «أتقِ الله يَاعُثمان، فإنّك قَد ركبت أُموراً، وركبناها مَعك، فَتُب إلىٰ الله تَتُب مَعك...». أُنظر، مُروج الذّهب: ٢/ ٣٤٤.

لأنّه لم يأنس من نفسه القوّة عَلىٰ ولاَية الحُكم وتحمل تبعاته، فقد كانعليه‌السلام عَلىٰ تمام الأُهبة لولاَية الحُكم، كان قد خبر المُجْتَمع الإسلاميّ من أقطاره، وخالط كافة طبقاته، وراقب حياتها عن كثب، ونفذ إلىٰ أعماقها، وتعرف عَلىٰ الوجدان الطّبقي الَّذي يشدها ويجمعها.

وقد مكنه من ذَلكَ كلّه المركز الفريد الَّذي كان يتمتع به من النَّبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله فهو وزيره ونَجيبه، وأمين سرّه، وقَائد جيوشه، ومُنفذ خططه، ومعلن بلاَغاته... هذه المَنزلة الفريدة الَّتي لم يكن أحد من الصّحابة يَتمتع بها أعدته إعداداً تاماً لمُهمة الحُكم.

وقد كان النَّبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله يَبتغي من وراء إناطة هذه المهام كلّها به إعداده للمنصب الإسلاميّ، ليصل إلَيه وهو عَلىٰ أتمّ ما يكون أهلية وآستعداداً.

ولقد غدا من نافلة القول أَنْ يُقال أنهعليه‌السلام هو الخَليفة الَّذي كان يجب أَنْ يلي حكُومة النَّبيّ في المُجْتَمع الإسلاميّ.

وإذَا لم يقدر له أَنْ يصل إلىٰ الحُكم بعد النَّبيّ فإنّه لم يَنقطع عن الحيَاة العامة، بل ساهم فيها مُساهمة خصبة، فقد كان أبو بَكر ثُمّ عُمر ومن بعدهما عُثمَان لا يسعهم الإستغناء عن آراءه في السّياسة والقَضاء والحرب، وخاصة في خلاَفة عُثمَان فقد كان فيها عَلىٰ أتمّ الصّلة بالتّيارات الَّتي تمخر المُجْتَمع الإسلاميّ، لكن عُثمَان لم يَنتفع كثيراً بالتوجيه الَّذي كان الإمَام يُقدّمه إلَيه لأَنَّ بطانة مُتعفنة كانت تُحيط بهذا الخَليفة.

فأنت ترىٰ أنّه لم يأبَ الحُكم لأنّه لم يأنس من نَفسه القوّة عليه، وإنّما أباه لأَمر آخر:

لَقد كان يرىٰ المُجْتَمع الإِسلاميّ وقد تردىٰ في هوّة من الفوارق الإجتمَاعيَّة الَّتي ٱزدادت ٱتساعاً بسبب السّياسة الَّتي ٱتبعها ولاَة عُثمَان مُدة خلافته.

ولقد كان يرىٰ التَّوجيهات الدِّينية العظيمة الَّتي عمل النَّبيّ طيلة حيَاته عَلىٰ إرساء أُصولها في المُجْتَمع العربي قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة النّاس.

وكان عليه السلام يعرف السّبيل الَّذي يرّد الأَشياء إِلىٰ نصابها، فإِنّما صار النّاس إِلىٰ واقعهم هذا لأَنَّهم فقدوا الثّقة بالقوّة الحاكمة الَّتي تُهيمن عليهم. فقدوا الثّقة بهذه القوّة كناصر للمَظلوم وخَصم للظالم، فراحوا يَسعون إِلىٰ إقرار حقوقهم وصيانتها بأنفسهم. وهكذا، رويداً رويداً ٱنقطعت الصّلة بَينهُم وبين الرّموز المعنوية الَّتي يجب أَنْ تقود حياتهم.

والسّبيل إِلىٰ تلاَفي هذا الفساد كلّه هو إِشعار النّاس أَنَّ حُكماً صحيحاً يُهيمن عليهم، لتعود إِلىٰ النّاس ثقتهم الزّائلة بحكامهم.

ولكن شيئاً كهذا لم يكن سهلاً قريب المنال، فهُناك طبقات ناشئة لاَ تسيغ مثل هذا، ولذلك فهي حَرِيَّة أَنْ تقف في وجه كلّ برنامج إِصلاحي وكلّ محاولة تطهيرية، ولذلك أبىٰ عليهم قبول الحُكم، لأنّه قدر ـ وقد أصاب ـ أنّه سيلاقي معارضة عنيفة من كلّ طبقة تجد صلاحها في أَنْ يبقىٰ الفساد عَلىٰ حاله.

لأَجل هذا قَالَ للجماهير يوم هَرعت إِلَيه تسأله أَنْ يلي الحُكم:

«دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ، وَأَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ[1]. وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ[2]، وَالْمحَجَّةَ

(١) لاَ تَصبر لهُ، ولاَ تُطيق ٱحتماله.

قَدْ تَنَكَّرَتْ[٣]. وَٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ الْقَائِلِ، وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ، وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[٤].

ولكن القوم أبوا عليه إلاّ أَنْ يلي الحُكم، وربّما رأىٰ عليه السلام أنّه إذا لم يُستجب لهم فربّما توثب عَلىٰ حُكم المُسلمِين من لاَ يصلح له، فيزيد الفسَاد فساداً، ورجَا أَنْ يَخرج بالنّاس من واقعهم الاجتماعيّ التّعس الَّذي أحلتهم فيه آثنتا عشرة سنَة مضت عليهم في خلاَفة عُثمَان، إلىٰ واقع أنبل وأحفل بمعاني الإسلاَم، وهكذا آستجاب لهم، فبويع خَليفة للمُسلمِين.

ولقد دأب، بعد أَنْ بويع، عَلىٰ بيان الهدف الَّذي آبتغىٰ من وراء ولاَية الحُكم، وذَلكَ بأَنْ يكون في مركز يُمكنه من أَنْ يصلح ما يفتقر إلىٰ الإصلاح من شؤون النّاس، وأَنْ يرفع عن المظلومين فادح ما رزحوا تحته من ظُلم، فترَاه يقول:

«فَمَا رَاعَنِي إلاّ وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّىٰ لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ

---

(٢) أغامَت: غُطيَت بالغَيم.

(٣) ألمحجَّة: الطَّريق المُستَقيمَة. تَنَكّرَت: تَغيَّرت معَالمها فصَارت مَجهُولة.

(٤) شَرح نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٩٢) «وَٱلتمِسُوا غَيْري».

أُخْرَىٰ، وَقَسَطَ آخَرُونَ: كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١) بَلَىٰ! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا، وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْـيَا فِـي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا!.

أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْـحَبَّةَ، وَبَـرَأَ النَّسَـمَةَ(٢)، لَـوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ(٣)، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ(٤)، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَـلَىٰ كِـظَّةِ(٥) ظَالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَـظْلُومٍ(٦)، لَأَلْـقَيْتُ حَـبْلَهَا عَـلَىٰ غَارِبِهَا(٧)، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلَأَلْـفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ(٨) عَنْزٍ!»(٩).

---

(١) القَصَص: ٨٣.

(٢) بَرَأَ: خَلق. والنَّسَمَةَ: الرّوح.

(٣) مَن حَضَر لبيعته مِن النّاس.

(٤) أي أنّه مع وجُود المُقاتلين النّاصرين للحقّ لا يجوز القُعود عن التّـصدي للـقِيام بـمهمات الحُكـم والإِصلاح. فوجود الأنصار عَلىٰ الحقّ حجة عَلىٰ القَائد لاَ بُدّ معها من الحَركَة والقِيام بالأمر.

(٥) الكِظّة: مَا يَعتري الآكل من الضّيق عند أمتلاء البَطن بالطّعام. والمُراد هُنا تعدي الظّالم عَلىٰ حقُوق النّاس.

(٦) السَّغَب: شدّة الجُوع. والمُراد هُنا هَضم حقُوق الضّعيف.

(٧) الغَارِب: الكَاهل، النّاقة حِين يَتركها قائدها فلاَ يَقودها يرخي لهَا الخطام، فالكلاَم تَصوير للـترك وإرسال الأمر.

(٨) عَفطَة العَنز ما تَنثرهُ من فَمها.

(٩) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٣) «عَفطَةُ عَنز».

وقال عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلاَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ[1]، وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ[2] مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»[3].

وقال عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَمُهَيْمِناً عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ. فَلَمَّا مَضَىٰ عليه السلام تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ. فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَىٰ فِي رُوعِي، وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلى الله عليه وآله عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلاَ أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ! فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَىٰ فُلاَنٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّىٰ رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلاَمِ، يَدْعُونَ إِلَىٰ مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَىٰ فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ

(١) الحُطَام: مَا يُحطم ويَتفتت من عيدَان الزَرع إذَا يَبس. والمُراد هُنا: متَاع الحيَاة الدُّنيا.

(٢) المَعَالِم جَمع مَعْلم ـ بفتح، فسكُون، ـ وهو الأَثر الَّذي يُستدل به علىٰ الطَّريق.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٣١) «مَتَىٰ يَأْمَن الْمَظْلُوم».

أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلاَئِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ؛ فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّىٰ زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ.

إِنِّي وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَهُمْ طِلَاعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا اسْتَوْحَشْتُ، وَإِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْهُدَىٰ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَعَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي. وَإِنِّي إِلَىٰ لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ، وَحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ؛ وَلَكِنَّنِي آسَىٰ[١] أَنْ يَلِيَ[٢] أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً[٣]، وَعِبَادَهُ خَوَلاً[٤]، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً[٥]، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً، فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ[٦]، وَجُلِدَ حَدّاً فِي الْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّىٰ رُضِخَتْ لَهُ[٧] عَلَىٰ الْإِسْلَامِ

---

(١) آسَىٰ: فِعل مُضارع من «أَسِيت عَليه» أي حَزنت، والمُراد أنّه عليه السلام يَحزن أنْ يَتولىٰ أمر الأُمّة السّفهاء والفُجّار.

(٢) يَلِي: يَحكُم الأُمّة.

(٣) دُوَلاً: أي شَيئاً يَتداولونه بَينهم، كأنّ الحُكم لُعبة أو كُرة يَتقاذفونها.

(٤) خَوَلاً: أي عَبيداً.

(٥) حَرْباً: أي يُحاربون الصّالحين، ويَنصرون الفَاسقين، ويَتّخذونهم حِزباً لَهم.

(٦) الْحَرَام: الخَمر.

(٧) الرَّضَائخ: العَطَايا، ورُضِخَتْ لَهُ: أعطِيتُ لهُ. وقَالوا أنّ عمرواً بن العاص لم يَسلم حتّىٰ طَلب عطَاء

الرَّضَائِخُ. فَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ.

أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ، وَإِلَىٰ أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَإِلَىٰ مَمَالِكِكُمْ تُزْوَىٰ، وَإِلَىٰ بِلَادِكُمْ تُغْزَىٰ! انْفِرُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ إِلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَلَا تَثَّاقَلُوا إِلَىٰ الْأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِالْخَسْفِ، وَتَبُوءُوا بِالذُّلِّ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ الْأَخَسَّ، وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُ، وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ، وَالسَّلَامُ»[1].

لأَجل هذا كلّه قَبلَ عليه السلام أَنْ يتولىٰ الحُكم.

ومَا أَنْ بُويع حتَّىٰ عَالن النّاس بسيَاسته الَّتي عَزم عَلىٰ اتباعها من أجل تَحقيق الأَهداف الَّتي قَبل الحُكم لأَجلها.

وقد عَرفت أَنَّ هذه السّياسة لم تكُن شيئاً مُرتجلاً اصطنعه لنَفسه يوم وليَ الخلاَفة، وإِنَّما كانت خُططاً مَدروسة ومُنتزعة من الوَاقع الَّذي كان يُعانيه المُجتَمع الإِسلاميّ آنذاك، ومعدة لأَنَّ تبلغ بهذا المُجْتَمع خُطوات إِلىٰ أمَام، ومُهيَّأة لتنيل هذا المُجْتَمع المَطامح الَّتي كان يَحلم بها ويَصبو إِلَيها.

وقد كانت إِصلاحاته السّياسيَّة تتنَاول ثلاَثة ميَادين: الإِدارة، والحقُوق، والمَال.

⇔ من النَّبيّ صلى الله عليه وآله فلمّا أعطاه أسلَم.

(١) أنظر، نَهج البلاَغة: الرّسَالَة (٦٢) «إِلىٰ أَهْل مِصْر».

أ ـ الإدَارَة:

فَفيما يَرجع إلىٰ سيَاسة الإدارة عزل ولاَة عُثمَان عن الأمصار، هـؤلاء الوُلاَة الَّذِين كانوا السّبب المُباشر في الثّورة لظُلمهم وبَغيهم وعدم درَايـتهم بـالسّياسة وأُصول الحُكم، وولىٰ من قبله رجالاً ذوي دِين وعَقل وبُعد نظر وحُسن تَدبير.

ب ـ الحقُوق:

وفيما يَرجع إلىٰ الحقُوق نـادىٰ بأنّ المُسـلِمين جَـميعاً سـواء فـي الحـقُوق والوَاجبات في الإسلاَم، وقد كانت هُناك فروق حقُوقية جاهلية نَسفها الإسلاَم ولكن عَهد عُثمَان أعَادها، فقُريش ذات المَاضي العريق في السّيادة عَلىٰ القَبَائل العَربية عَادت في زمن عُثمَان فأتلَعت جيدها وأعادت تلك الفروق، فغدا أُناس لَيس لهم مَاض مُشرّف بالنّسبة إلىٰ الإسلاَم ونَبيه يَتعالون عَلىٰ أعظَم المُسلمِين جهاداً وسَابقة وبلاَء، لمُجرد أنّهم قَرشيون.. هـذه الفـروق المَـعنوية الجَـاهلية حطّمها الإمَام، فقَال:

«فَقُمْتُ بِـالأَمْرِ حِـينَ فَشِـلُوا، وَتَـطَلَّعْتُ حِـينَ تَقَبَّعُوا، وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْـفَضَهُمْ صَـوْتاً، وَأَعْـلاَهُمْ فَـوْتاً، فَطِرْتُ بِـعِنَانِهَا، وَاَسْـتَبْدَدْتُ بِـرِهَانِهَا. كَـالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَـمْ يَكُـنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ. الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِـنْدِي ضَـعِيفٌ حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ. رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا

للهِ أَمْرَهُ. أَ تَرَانِي أَكْذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ وَاللهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي، فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي»[١].

ج ـ المَال:

وفِيما يَرجع إلىٰ سيَاسة المَال وقف موقفاً صارماً، فصَادر جميع ما أقطعه عُثمَان من القطائع وما وَهبه من الأموال العظيمة لطَبقة الإريستوقراطيِّين، وقد صَرّح بذلك في أوّل خُطبة خَطبها بعد خلاَفته، فقَال:

«أَيُّها النّاس! إنّي رَجُل مِنكُم، لِي مَا لَكُم وعَليّ مَا عَليكُم، وإنّي حَامِلكُم عَلىٰ مَنْهج نبيِّكم، ومُنفّذ فِيكُم مَا أمرَ بهِ، ألاَ وَإنّ كُلّ قَطِيعَة أَقْطَعهَا عُثمَان، وكُلّ مَال أعْطَاه مِن مَال الله، فهُو مَردُود فِي بَيْت المَال فإنّ الحَقّ لاَ يُبْطلهُ شَيء، وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!»[٢].

وكَانت سُنّة رَسُول الله ﷺ في تَوزيع الأَموال هي التّسوية بَين الفَاضل

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٣٧) «القوّة للحقّ».

(٢) نَهج البَلاَغة، رَقم النّص: (١٥) ولَم يَذكر الشّريف الرّضي هذَا النّص بتمَامه، وإنّما ذَكره ابن أبي الحَدِيد، وغَيره من شُرّاح نَهج البَلاَغة.

والمَفضُول، لأَنَّ النّظر في هذا الأَمر إِلىٰ الحاجة لاَ إِلىٰ الفضل، ولأَنَّ الفضل ليس عرضاً يُشرىٰ ويُباع، ولأَنَّ الفاضل يجد عند الله وعند النّاس ثواب فضله، ولكن أبا بكر وعمر فضّلا بعض النّاس عَلىٰ بعض، وإِذَا كانا قد فضّلا فإِنّهما قد فعلا ذَلكَ بحِكمة أمّا عُثمَان فقد فضّل دون مقيَاس للتّفضيل، وبذلك زاد التّفاوت بين الطّبقات فُحشاً وبُعداً، فلمّا جاء الإِمَام عليه السلام عدل عن هذه السّياسة وسوّىٰ بين النّاس في العَطاء.

وبقَدر ما كانت هذه السّياسة مصدر جذل وفرح للطبقة المُستضعفة الفَقيرة الرّازحة تحت أثقال من الظّلم كانت أيضاً صَفعة مُدوية لقُريش ولغُرورها وخُيلائها وٱستعلائها عَلىٰ النّاس.

فمِن أين لهَا بعد اليَوم أَنْ تحوز الأَموال العَظيمة دون أَنْ تَنفرج شَفتان تقولان لهَا: «مِنْ أَينَ لَكَ هَذَا؟».

وكَيف لها بَعد اليَوم أَنْ تَستعلي، وتَستبد، وتَفرض عَلىٰ النّاس في ظلّ الإِسلاَم سُلطانها عليهم في الجَاهلية؟.

وكانت هذه السّياسة صَفعة مُدوية لزُعماء القَبَائل العَربية الّذِين كانوا يَقبضون ليَسكتوا.

وكانت هذه السّياسة صَفعة مُدوية لمن مالأ ولاَة عُثمَان عَلىٰ سياستهم من أهل المَدينَة وغيرهم.

وكانت صَفعة مُدوية لولاَة عُثمَان المَعزولين، المُجردين من السّلطان، الَّذِين يَنتظرهم مصير لاَ يُحسدون عليه عند الحَاكم الجَدِيد، بما ظَلموا، وأسَاءوا السّيرة، وجَاروا عَلىٰ الرّعية.

كلّ هؤلاء أورثهم كَرباً شديداً مَصير الحُكم إلىٰ عليّ بن أبي طالب، ولعلّهم قد فكّروا أنْ يُساوموه عَلىٰ بذل طَاعتهم له، عَلىٰ أنْ يُغضي عمّا سَلف منهم، ويأخذهم باللين والهوادة فيها يَستقبلون، فأرسلوا إلَيه بعض زُعماء بني أُميّة يقُول له:

«يَا أبَا الحَسن... إنّك قَد وتَرتنا جَميعاً... ونحنُ نُبايعك عَلىٰ أنْ تَضع عنّا ما أصبنَاه من المَال أيّام عُثمَان...»(١).

ولكنّه أبىٰ عليهم ذَلكَ وأصر عَلىٰ أنْ يَحملهم عَلىٰ الخُطّة الّتي يُريد، والّتي يرىٰ الصّلاح في اتباعها.

* * *

وقد حدث ردّ الفعل عند هؤلاء في حَرب الجمل، الّتي كانت تَدبيراً دبره من لم يُماش الحُكم الجَدِيد أهواءهم من بني أُميّة وغيرهم من ولاَة عُثمَان إلاّ أنّ الحَركَة في صَميمها كانت أُمويّة خَالصة.

وقد كان القائمون بهذه الحَركَة يُريدون أنْ يَعطفوا أزمة الحُكم إلىٰ جَانبهم بعد

---

(١) القَائل هو الوَليد بن عقبة بن أبي المَعيط: «يَا أبَا الحَسن، إنّك قد وترتنا جَميعاً، أمّا أنَا فَقتلت أبي يوم بَدر صَبراً، وخذلت أخي يوم الدّار بالأمس، وأمّا سَعيد فقتلت أبَاه يَوم بَدر في الحَرب ـ وكان ثور (نُور) قُريش ـ وأمّا مَروان فسخفت أبَاه عند عُثمَان إذ ضمّه إلَيه، ونحنُ إخوتك ونُظراؤك من بني عبد مُناف، ونحنُ نُبايعك اليَوم عَلىٰ أنْ تَضع عنّا ما أصبنَاه من المَال في أيّام عُثمَان، وأنْ تَقتل قَتلته، وإنّا إنْ خفنَاك تَركناك، فالتحقنا بالشّام.

فقَال: أمّا ما ذَكرتُم من وتري إيّاكم فالحقّ وَتَركم، وأمّا وَضعي عنكُم مَا أصبتُم فلَيس لي أنْ أضع حقّ الله عنكُم ولاَ عن غَيركم، وأمّا قَتلىٰ قَتلة عُثمَان فلو لزَمني قَتلهم اليَوم لقَتلتهم أَمس، وَلَكن لكُم عَليَّ إنْ خفتمُوني أنْ أُؤمنكم وإنْ خِفتكُم أنْ أُسيّركم.

أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد: ٧/ ٣٩ـ٣٨.

أَنْ صَفِرت أيديهم من مساعدة الإمَام لهم عَلىٰ ما يَبتغون. ولكن الإمَام عليه السلام قضىٰ عَلىٰ الحَركَة في مهدها، ففرّ من أخطأه السّيف، ممّن تولىٰ كبرها، إلىٰ الشّام.

* * *

وٱنتقل الإمَام، بعد أَنْ فرغ من أمر الجَمل، بحكُومته من الحجاز إلىٰ العراق، وٱتخذ الكُوفة قاعدة لحُكمه. والكُوفة يومئذٍ مَركز الثّقل في المُجْتَمع الإسلاميّ النّاشيء.

وفي العراق ٱستمر الإمَام عَلىٰ سياسته المَالية والإدارية الّتي ٱستنها لنفسه، وأذاعها في النّاس، فالمُساواة في الأعطية أمر مَفروغ منه، ومؤاخذة العُمّال عَلىٰ الصّغيرة والكَبيرة، ومرَاقبتهم وإذكاء العيون عليهم أمر لاَزم لا معدىٰ عنه.

وكانت العناصر المُسلمة غير العَربية كثيرة في الكُوفة، فكانت تضم عدداً كبيراً من الفُرس وغيرهم ممّن دخلوا في الإسلاَم، وكان هؤلاء يَحتلون طبقة إجتمَاعيّة مُنحطة في نظر العرب ذوي النّزعة القَبلية، وكان من العَسير عَلىٰ العربي أَنْ يتصور أنّه مساوٍ في القِيمة لهؤلاء، ولذلك كَان يطمح إلىٰ أَنْ يَتميز عليهم، ولكن الإمَام عليه السلام لم يُلْقِ بالاً إلىٰ كلّ هذا، فالمُساواة مبدأ شامل يَسري عَلىٰ كلّ فرد عربياً كان أو أعجمياً.

لقد كان حرياً بهذه السّياسة الواعية لآلام الشّعب وآماله، الطّامحة إلىٰ إسعاده، أَنْ تنجح لو لم تعاكسها سياسة أُخرىٰ.

ففي الوقت الّذي قامت فيه حكُومة الإمَام في الكُوفة، قامت حكُومة أُخرىٰ في الشّام بريَاسة مُعَاوية بن أبي سُفيان.

وبينما كانت حكُومة الإمَام تَسير عَلىٰ نَهج إسلامي خالص، أي أنّها كانت تُحقق للرّعية أقصىٰ قدر مُستطاع ـ في ظُروفها الإقتصاديّة والسّياسيّة والعَسكريّة ـ من الرّفاهية والأمن والعَدالة، كانت حكُومة مُعَاوية تَسير عَلىٰ نَهج آخر في الحُكم يقوم عَلىٰ شراء الضّمائر بالمَال، وتَفضيل طَائفَة عَلىٰ حسَاب حِرمان طَائفَة أُخرىٰ، وتَعطيل السّبل، وتَعكير الأَمن.

ولَم يكن مُعَاوية يُبالي في أَنْ يُنْزِل بدَافعي الضّرائب من الزّراع والتُّجّار أفدَح الظّلم، في سَبيل أَنْ يحصل منهُم عَلىٰ مزيد من المَال يغذي به أطمَاع حفنة من رؤساء القَبَائل العَربية يُؤلفون جهازه العَسكري المُتأهب دائماً لقمع أي حَركة تَحررية تقوم بها جماعة من النّاس.

وقد آتت هذه السّياسة أُكلها جيداً في العراق.

فقد كان رُؤساء القَبَائل في العراق يرون سيَاسة مُعَاوية فيعجبون بها، فهي تُلبي ما يَطمحون إلَيه من غنىٰ ووجاهة وٱرتفاع قدر، بينما هُم لا يجدون شيئاً من هذا في حكُومة الإمَام.

وقد كان المُجْتَمع العراقي قَبلياً، فلكلّ قبيلة رئيسها وأشرَافها وتقاليدها وأمجَادها.

والرّجل ذو الرّوح القَبلية ـ كما يثبت علم الإجتماع ـ عَالمه قبيلته، فهو ينفعل بإنفعالاتها، ويطمح إلىٰ ما تطمح إلَيه، ويُعادي من تعادي، ويَنظر إلىٰ الأُمور من الزّاوية الّتي تَنظر منها هذه القَبيلة، وذٰلكَ لأنّه يخضع للقِيم القَبلية الّتي تُدين بها هذه القَبيلة.

وتتركز مشاعر القبيلة كلّها في رئيسها، فالرّئيس في المُجْتَمع القَبلي هو

المُهيمن، والمرجع، والموجه الأوحدي للقَبيلة كلّها. فيكفي أَنْ يقول الرّئيس كَلمَة لتصبح قانون القَبيلة كلّها، ويكفي أَنْ يتّخذ موقفاً ليكون موقف القَبيلة كلّها، ولاَ أحسب أَنَّ من يَتعالون عَلىٰ هذا الأسر يتجاوزون أَصَابع اليدين كثيراً.

هذه هي طبيعة المُجْتَمع القبلي.

وقد أثر الإسلاَم عَلىٰ هذه الطّبيعة بلاَ شك، ولكن التّأثير لم يكن حاسماً، فقد وقعت في الحقب السّياسيَّة الَّتي خلفت النَّبيّ أخطاء سببت عودة الرّوح القَبلية عَلىٰ أشدها.

وإِذَا عرفنا هذا وسعنا أَنْ نفهم الأَثر البَعيد الَّذي كانت تتركه سيَاسة مُعَاوية في المُجْتَمع العراقي أبَان ذَلكَ العهد.

فهذا المُجْتَمع قبلي يدين لرؤسائه بالطّاعة المُطلقة.

وهؤلاء الرّؤساء يَطمحون إِلىٰ مزيد من القوّة والسلطان والغنىٰ والمنزلة الإِجتمَاعيَّة ولاَ يجدون شيئاً منها عند الإِمَام بينما هم يجدونها عند مُعَاوية كما يَشتهون.

ويقول هؤلاء الرّؤساء إِنّ حكُومة مُعَاوية خير من حكُومة عليّ وهي خير لهم بلاَ إِشكال، وتسمع القَبيلة كلّها مقالة زعيمها فتُدين بها، غير واعية أَنَّ حكُومة مُعَاوية إِنْ كانت خَيراً لرؤسائها فحكُومة عليّ خَير لها، وذَلكَ لأَنَّ هذه تَشتنُّ المُساواة سياسة لهُما بينما تَشتنّ تلك سيَاسة الأَثرة، وهم لاَ يعون هذا، لأَنّهم يَنظرون إِلىٰ الأُمور بالمنظار الَّذي ينظر به الرّؤساء.

عَلىٰ هذا النّحو كانت سياسة مُعَاوية تؤثر في العراق، وقد وعىٰ ذَلكَ جماعة من المُخلصين للإِمام فقَالوا له:

«يا أَمير المُؤمِنِين أعطِ هَذه الأَموال، وفضّل هـؤلاء الأَشـراف مـن العَـرب وقُريش عَلىٰ الموَالي والعَجم وٱستمل من تخَاف خلاَفه من النّاس»[١].

نَاظرين إلىٰ ما يَصنع مُعَاوية، ولم يكن رؤساء القَـبائل العَـربية فـي العـراق يَطمعون بأكثر من هذا، ولكن الإِمَام أجَابهم قَائلاً:

«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللهِ لاٰ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ[٢]، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً[٣]! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ! أَلاٰ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ، وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَـاحِبَهُ فِـي الدُّنْيَا، وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْـرِمُهُ فِـي النَّـاسِ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ. وَلَمْ يَضَعِ ٱمْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَلاٰ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاّٰ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَٱحْتَاجَ إِلَىٰ مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ، وَأَلْأَمُ خَدِينٍ»[٤].

وقَد صارت الشّام ملاَذاً لمَن يغضب عَليه الإِمَام لخيَانة خَانها في عَـمله، أو جَريرة جرّها عَلىٰ نَفسه. ومَطمحاً لمن يُريد الغنىٰ والمَنزلة، فيَجد عند مُـعَاوية

---

(١) شَرح النّهج لابن أبي الحَديد: ٢ / ١٨٢.

(٢) مَا أَطُورُ: مِن «طَار يَطُور حَول الشّيء» إذَا حَام حَوله، أي: مَا أمـرّ بـه، ولاَ أقـار بـهِ «مَـا سَـمَرَ سَمِيرٌ» أي مَدىٰ الدَّهر، وهو مِثل. قَالوا: السّمِير هو الدَّهر.

(٣) أَمَّ: قَصَد: أي مَا قَصَد نَجم نَجماً.

(٤) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٢٦) «لاَ أَطْلُبَ النَّصرَ بِالجَوْرِ».

الإكرام، والرّفعة، والعَطاء، والمَنزلة الإجتمَاعيَّة.

وقَد كَتب عليّ عليه السلام مرّة إلىٰ عَامله سَهل بن حُنيف في شأن قَوم من أهلها لحقوا بمُعَاوية:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَىٰ مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَىٰ لَهُمْ غَيّاً، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً، فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَىٰ الْعَمَىٰ وَالْجَهْلِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا[١]، وَقَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَىٰ الأَثَرَةِ[٢]، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً!!.

إِنَّهُمْ ـ وَاللهِ ـ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالسَّلَامُ»[٣].

وقَد وَصَف عليه السلام سيَاسة مُعَاوية بقَوله:

«طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَىٰ

(١) مُهطِع: مُسْرِع.

(٢) الأَثَرَة ـ بالتّحريك ـ أختصاص النّفس بالنّفع، وتَفضِيلها علىٰ غَيرها. والسُّحق ـ بضَم السّين ـ البُعد.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالَة (٧٠) «إلىٰ سَهل بن حُنَيف».

مَوَاسِمَهُ[١]، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ. قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ الْعَلاَمَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا. مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ»[٢]!.

وهكذا فَعلت سيَاسة مُعَاوية فعلها في مُجتمع الإمام، فتمالأ رؤسَاء أصحابه عَلىٰ الخيَانة، وتَخاذلوا عن نَصره فلا يُجيبونه حين يَدعوهم، ولا يَنصرونه حين يَستنصرهم، وما أكثر خُطبه وكلمَاته الَّتي أعلن فيها شكوَاه منهم، وبَرَمَه بهم، من ذَلكَ قَوله عليه السلام:

«يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ، وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ[٣]، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ، وَلَمْ

---

(١) مُوَاسِمَه، جَمع مِيسَم ـ بكَسر المِيم ـ وهو المُكوَاة.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاغة: الخُطبَة (١٠٨) «أشبَاحٌ بِلاَ أروَاح».

(٣) حِجَال: جَمع حجلَة، وهي القُبّة تكون فيها المَرأة، وموضع يُزن بالثّياب للعرُوس. وربّات الحِجال: النّسَاء.

أَعْـرِفْكُمْ مَـعْرِفَةً ـ وَاللهِ ـ جَـرَّتْ نَـدَماً، وَأَعْـقَبَتْ سَدَماً[١]. قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً[٢]، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ، وَالْـخِذْلاَنِ، حَـتَّىٰ لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُـجَاعٌ، وَلَكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ، للهِ أَبُـوهُمْ! وَهَـلْ أَحَـدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَأَقْدَمُ فِيْهَا مَقَاماً مِنِّي! لَـقَدْ نَهَضْتُ فِيْهَا، وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَـا أَنَـا ذَا قَـدْ ذَرَّفْتُ عَلَىٰ السِّتِّينَ! وَلَكِنْ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ »[٣].

وقَد ظَهر أثر هذه السّياسة عَلىٰ أشدّه بعد صفّين، فحِين ٱنتهت مَهزلة التّحكيم ـكمَا شَاء دهاء عمرو بن العاص وغبَاء أبي موسىٰ الأشعري أو سُوء نيّته ـ دأب مُعَاوية عَلىٰ إرسال جيُوش صَغيرة سريعة فتَضرب، وتَـقتل، وتَـنهب، وتُـروع الآمنِين دون أَنْ يَعترضها مُعترض. فإذا ما دعَا الإِمَام رؤساء أصحَابه إِلىٰ اللّحاق بها تقَاعسوا عنه وصمّوا أسمَاعهم دونه.

وأظهر مصَاديق هذه الخيَانة تجلّت يوم سَيّر مُعَاوية جيُوشه إِلىٰ مصر، فـقد دعَا الإِمَام رؤساء أصحَابه إِلىٰ إنجاد مُحَمَّد بن أبي بَكر قبل أَنْ تـفُوت الفُـرصة وتملك عليهم مصر، فلم يَجبه منهم مُجيب حتّىٰ ٱنتهىٰ الأَمر بسقوط مصر في يد

(١) السّدم: الهَم مع أسَف أو غَيظ.

(٢) النّغَب: بمَعنىٰ جرع، وعَلىٰ وزنها، وهي جَمع نَغبة كجَرعة، وبمعنَاها. والتّهمَام ـ بالفَتح ـ الهَم. وقَوله «أنفَاسَاً» أي جَرعة بَعد جَرعة.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٢٧) «يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ، وَ لاَ رِجَالَ».

مُعَاوية ومَقتل مُحَمَّد بن أبي بكر رَحمهُ الله.

وقَد كان عليه السلام يَعرف كيف يَجعلهم إلىٰ صفّه لو أراد، فيُفضلهم، ويُعطيهم الأَموال، ويَحملهم علىٰ رقاب النّاس، ويُرضي غُرورهم القبلي، ولكن ذلكَ كان ينقلب به إلىٰ جبّار يدعم مُلكه بالسّيف، بدل أنْ يكون أباً للرعية تَدعم سُلطانه القلوب. لقد قَالَ لهم مرّة:

«كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَىٰ الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ، وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ! كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَٱنْجَحَرَ ٱنْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا. الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ! وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ. إِنَّكُمْ ـ وَاللهِ ـ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ، وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ[1]، وَلَكِنِّي لاٰ أَرَىٰ إِصْلاحَكُمْ، بِإِفْسَادِ نَفْسِي. أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ! لاٰ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ، وَلاٰ تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ ٱلْحَقَّ!»[2].

* * *

(١) أوَدَكُم: إعوجَاجكُم.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٦٩) «أفسِد نَفسِي بِصَلاحَكُمْ».

هذا هو الوَاقع الإجتماعيّ والسّياسي الّذي كان عَليه مُجتمع الإمَام.

ومن الجليّ أنّ مُجتمعاً يُمارس حيَاته الإجتمَاعيَّة والسِّياسيَّة عَلىٰ هذا النّحو مُجتمع بَعيد عن التّقوىٰ بُعداً شَاسعاً، فالتقوىٰ والقَبلية شيئان مُتضادان، والتّقوىٰ ونُصرة الباطل شيئان مُتضادان، والتّقوىٰ وحبّ الأَثرة والتّكبّر شيئان مُتضادان.

هذا الوَاقع كيف كان يَسَع الإمَام أنْ يعدّله، هل كَان عَليه أَنْ يُجاري أهواء أصحَابه فيبذل لهم ما تَطمح إلَيه أنفسهم؟. لَقد قَالَ:

«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ»(١).

هل يَقتلهم؟ إنّ ذَلكَ كفِيل بإحراج مركزه وإثارة النّاس عليه.

هل يَنفيهم؟ إنّ ذَلكَ يَدفعهم إلىٰ المُجاهرة بولائهم لمُعاوية وبذلك يجرون وراءهم قبَائلهم.

لقد كان آمن المُوَاقف معهم أبقاؤهم تحت سَمعه وبَصره، إنْ قعدوا عن نُصرته لاَ يستطيعون نُصرة عدوّه. ثُمّ حاول أنْ يُبدل نظرة النّاس إلَيهم ويُبدل نظرتهم إلىٰ هَذه المطامح الّتي يَطمحون إلَيها بوسِيلَتين:

الأُولىٰ: وقد كان يتوجه بها إلىٰ الرّجل العادي ـ هي مُحاربة النّزعة القَبلية. فَقد كان عليه السلام يَعلم أَنَّ قوّة هؤلاء الرّؤساء مُستمدة من إيمان قبائلهم بهم، فَإذا تَزعزع هذا الإيمَان لم يَعد لهُم من قِيمة.

الثّانيَة: هي المَوعظة، وهو بيّن فيها للرّؤساء أَنَّ ما يَطمحون إلَيه وهُم من الوَهم، وإنّ حَاضرهم خَير لهم من دُنيا يَصيبونها عن طريق الخيَانة والغَدر ونُصرة البَاطل.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٢٦) «لاَ أَطْلُبَ النّصرَ بِالْجَوْرِ».

وسنرىٰ أَنَّ الأَلوان الوعظية في نَهج البَلاغة تَدور حَول هذا القُطب.

وقَد كان يتوجّه بهذه المَواعظ أيضاً إِلىٰ الأَفراد العَاديِّين الَّذِين يخشىٰ من أَنْ يَفتنهم رؤساؤهم بتَحبيب دُنيا مُعَاوية إِلىٰ أنفسهم.

ولعلّ هذا يُفسر كَثرة تكرار الإِمَام لموَاعظه. فقلّما ترىٰ خُطبة من خُطبه خَالية عن المَوعظة. إِنَّه كان يَقصد من وراء هذا التّكرار أَنْ يُثبت توجيهاته في ضمَائرهم، لتَكتسب هذه التَّوجيهات قوّة الطّاقة الشّعورية فيأمن زَيغهم وإِنحرافهم.

هذا عن الحَالَة السِّياسيَّة والإِجتمَاعيَّة الَّتي كَانت تَسود عَصره عليه السلام وعن صِلتها بالقِسم الوعظي من النّهج.

* * *

رَاجع في تَعليل طَلبه للحُكم وسيَاسته النّصوص التّالية: (الشّقشقية)[1]

---

(١) «أَمَا وَ اللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا. يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلاٰ يَرْقَىٰ إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَىٰ طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ!. فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ هَاتَا أَحْجَىٰ، فَصَبَرْتُ وَ فِي الْعَيْنِ قَذًى، وَ فِي الْحَلْقِ شَجًا، أَرَىٰ تُرَاثِي نَهْباً، حَتَّىٰ مَضَىٰ الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَىٰ بِهَا إِلَىٰ فُلَانٍ بَعْدَهُ. ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَىٰ:

الشّاعر هُو مَيمُون بن قَيس بن جَندل بن ثَعلبة الوَائلي، ويُكنىٰ أَبَا بَصِير، كمَا جَاء فِي طَبقات ابن سَلاّم: ٣٦. أنظر، دِيوان الأَعشَىٰ قَيس الْكَبِير: ٩٦.

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَىٰ كُورِهَا ... وَ يَـوْمُ حَـيَّانَ أَخِـي جَـابِرِ

فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا، وَالاِعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ بِخَبْطٍ، وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ، وَاعْتِرَاضٍ، فَصَبَرْتُ عَلَىٰ طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ».

و(١٥ و٣٧ و٨٥ و٩٠ و١٢٤ و١٢٩ و١٥٧ و٢٢٢ و٢٣٠) وكتَابه إلىٰ عُثمَان ابن حُنيف الأنصاري عَامله عَلىٰ البَصْرَة ـ باب الكُتب ـ رَقم النّص: (٤٥)، وكتَابه إلىٰ أهل مصر مع مَالك الأشْتَر لمّا ولاّه إمارتها ـ باب الكُتب ـ رَقم النّص (٦٢)[1].

ورَاجع في ذَمّه لأصحابه وتبرمه بهِم النّصوص التّالية:

(٢٥ و٢٧ و٢٩ و٣٤ و٣٩ و٦٧ و٦٩ و٩٥ و١٠٤ و١٦٠ و١١٧ و١٢٣ و١٦٤ و١٧٨ و١٨٠ و١٩٠) (القَاصعَة) وكتَابه إلىٰ عبد الله بن عبّاس بعد مَقتل مُحمَّد بن أبي بكر ـ باب الكُتب ـ رقم النّص: (٣٥)، وكتَابه إلىٰ سَهل بن حُنيف عَامله عَلىٰ المَدينَة في معنىٰ قَوم من أهلها لحقوا بمُعاوية ـ باب الكُتب ـ رَقم النّص: (٧٠) ورَقم: (٢٦١) في المُختار من حِكم أَمِير المُؤمِنِين[2].

---

(١) تَقدّم ذَلكَ.

(٢) تَقدَّم ذَلكَ.

النّظرَةُ الوَاقِعيَّة إِلىٰ الحَياةِ في الإِسْلاَم وَالخُلُق العَربيّ

في الخُلق[1] العَربي الأصيل ظاهرة جديرة بالتّنويه، حقيقة بـالشّرح، لأنّـها مــفتاح كــثير مـن الأَخـلاق العَـربية الكَـريمة. هـذه الظّـاهرة الَّـتي عُـنيت هي (الوَاقعية) كمَا يَفهمها العربي ويَسير عَلىٰ ضوئها في الحرب، ومَنع الجـار، ونَصر الضّعيف، وبَذل المَال. وطَلب اللَّذة.

إنّ المَوت حَتم عَلىٰ كلّ إنسَان ومَصير لكلّ حي. ومَـوعد المَـوت مـجهول غامض فلاَ يدري مَتىٰ يحل ويأزف، وكمَا يَدخل في الظّن أَنْ يكون بَعيداً يَدخل في الظّن كذَلكَ أَنْ يكون قَريباً. ومَاذا بعد المَوت؟ إِنّه القَبر والوحدة والوَحشة. والمَصير إِلىٰ القَبر لاَزم فلاَ مفرّ منهُ ولاَ معدىٰ عنه.

والدُّنيا؟.. أَليس التَّقلب طَبعاً أصيلاً فيها؟ أَليس التّلون مُـلازماً لهـا؟ فـقَد ينقلب الحَـال بـالعَزيز إِلىٰ الذّل، وبـالغَني إِلىٰ الفـقر، بـالصّحيح إِلىٰ المَـرض،

---

(١) فِكرة هذا الفَصل مُقتبسة من الأُستاذ عَبد اللَّطيف شرَارة في كتَابه: رُوح العُروبة، من فَصل قَيم أدَار فيه الحَدث حول ظَاهرة الكَرم العربي وقَد نَقلنا عنهُ الشّواهـد الشّـعرية الأَربـع الأوّل، ونَـقلنا بـقيَّة الشّواهد عن كتَاب البُخلاء للجَاحظ.

وبالسَّعيد إِلىٰ الشّقاء.

وإِذَا كان هذا كلّه حقّاً فلمَاذا أصدّ النّفس عن اللّذة حين تشتهي اللّذة؟ ولماذا الفرَار من الحَرب حين تَستعر الحَرب؟ ولماذا إِمساك اليد عن بَذل المال حين يَفِد صاحب الحَاجة الفَقير، وصَاحب الغرم الثّقيل؟.

إنّ أيّامنا عَلىٰ الأَرض مَعدودة، ونهايتنا بَعد الحيَاة المَوت، وبَعد المَوت القَبر، وبَعد ذَلكَ في حسبَان الجَاهليين ـ النّسيان والفراغ، فلماذا لاَ نُمتع أنفسنا بلذاتها؟ ولمَاذا نَمسك أيدينا عن صنع وجُود كَريم لنا يبقىٰ بعد ذهابنا في قُلوب النّاس وعَلىٰ أَلسنتهم بما نَصنع من خير، وبمَا نُسدي من معروف؟.

إنّ العجز كلّ العجز، والخرق كلّ الخرق أَنْ يَتمرد إِنسان عَلىٰ واقعه فيظن الخلُود لنفسه، ويَدفعه ذَلكَ إِلىٰ إِمساك يده عن البذل، وإِمساك نفسه عن الحرب، والظّن عليها بلذتها.

هذه النَّظرَة الواقعية لَيست شيئاً مُرتجلاً، وإِنّما هي نتَاج تفكير يُفلسف الحيَاة والمَوت، وتقلب الأَنساب بينهما، وهي أكثر ما تكون شيوعاً في الشّعر العَربي.

إِسمع طُرفة بن العَبد كيف يقول في تَعليل إِسرافه في إِنفاقه، وإِسرافه في ملاذه، وعدم إِمساك يده عن البذل، وعدم إِمساك نفسه عن اللَّذة[1]:

أرىٰ قَبر نحّامٍ[2] بخيلٍ بماله ... كقَبر غويٍّ في البطَالة مُفسد
أَلاَّ أيّهذا اللاَّئمي أحضر الوغىٰ ... وأَنْ أشهد اللّذات هل أنتَ مُخلدي؟

---

(١) ديوَان طُرفة بن العَبد: ٣١، تأريخ الطّبري: ٥ / ٢٧، كتَاب العَين للخَليل الفرَاهيدي: ٣ / ٢٥٢، الصّحاح للجَوهري: ٥ / ٢٠٣٩، لسَان العَرب: ١٢ / ٥٧٢، تَاج العَرُوس: ١٧ / ٦٨١.

(٢) النّحِيم: الزّحير والتّنحنح، وذَلكَ لأَنَّ البَخيل إِذَا طلبت إِلَيه حاجة كَثر سُعاله عندها ليُداري أَرتبَاكه.

فَـإنْ كـنتَ لاَ تْسـتطيعُ دفـعَ مـنيَّتي ... فـدعني أُبـادرها بـمَا مـلكتْ يَـدي

* * *

ويقُول يَزيد بن الحَكم الثّقفي وهو يَنصح أبنه[1]:

مَا بـخلُ مـن هـو لـلمنُون ... وريـبها غـرض رجـيم؟

ويـرىٰ القـرونَ أمَـامه ... هَمَدوا كمَا هَمَد الهَشيم[2]!

* * *

وحَاتم الطّائي يقُول لزوّجته[3]:

أمَـاويَّ مـا يُـغني الثّـراءُ عـن الفَـتىٰ ... إذَا حَشرجتْ يَوماً وضَاق بها الصّدر؟

أمَـاويَّ إنْ يـصبح صدَاي[4] بـقفرةٍ ... مـن الأَرض لاَ مَـاء لديَّ ولاَ خَـمر

تـري أنَّ مـا أنـفقتُ لم يكُ ضـرَّني ... وأنَّ يَـدي مـمّا بَـخلت بـه صِـفر[5]

* * *

---

(١) الوَافي بالوفيَّات للصَّفدي: ٢٨/٤٦.

(٢) الهَشِيم: اليَابس من النّبت.

(٣) الغَارات لإبراهيم بن مُحمَّد الثّقفي: ٢/٧٤٢، أمَالي السَّيِّد المُرتضىٰ: ٤/٦٣، شَرح نَـهج البَـلاَغة لابن أبي الحَديد: ١/١٥٢ و ٣٢٩، جَامع البَيان لابن جَـرير الطَّـبري: ١٣/٤٠، أحكَـام القُـرآن للجصّاص: ٣/٥٠٢، تأريخ مَدينة دمشق لابن عسَاكر: ١١/٣٧٥.

(٤) صَدَاي: الصّدىٰ، ذِكر البُوم. والصّدىٰ: الّذي يُجيبك بمِثل صَوتك في الجِبال وغَـيرها. والصّـدىٰ: العَطش. والصّدىٰ هُنا: ما يَبقىٰ من الميّت في قَبره، يُكني الشّاعر بذٰلك عن الوحدة والوَحشة.

(٥) الصِّفر ـ بالكَسر ـ: الخَالي «بَيت صِفر» خَال من المتَاع. ورَجل صِفر اليَدين: لَيس فيها شيء.

وأيَاس بن القَائف يقُول[١]:

يــقيم الرّجــال الأغـنياء بأرضـهم ... وتَرمي النّوىٰ[٢] بالمُقترين[٣] المرَاميا

فأكرم أخَـاك الدّهـر مـا دُمـتما مـعاً ... كـفىٰ بـالمَمات فُـرقة وتـنَائيَا

* * *

وقَالَ النّمر بن تَولب[٤]:

وحثّت عَـلىٰ جَـمع ومَـنع، ونَـفسها ... لها في صُروف الدّهر[٥] حقّ كَـذوب

وكَـائن رأيـنا مـن كَـريم مـرزأً[٦] ... أخـي ثـقة، طَـلْقِ اليَـدين وهـوب

شهدتِ، وفَـاتوني وكـنتُ حَـسبتني ... فَـقيراً إلىٰ أنْ يَشـهدوا وتَـغيبي

أعـاذلُ إنْ يَـصبح صـدَاي بـقفرةٍ ... بَـعيداً نآنـي صَـاحبي وقَـريبي

تَـرَي أنْ مَـا أبـقيت لم أكُ ربَّـه ... وأنَّ الَّـذي أمـضيت كَـان نَـصيبي

وذي إبـل يسـعىٰ ويَـحسبها له ... أخـي نَـصَبٍ[٧] فـي رَعـيها ودؤوب

---

(١) تأريخ بغداد: ١/ ٧٥، مُعجم البُلدان: ١/ ٤٦٤، الوافي بالوفيّات: ١٣/ ٨، و: ٢١/ ٣٠٠، فوَات الوفيّات للكتبي: ١/ ٣٦٤ و: ٢/ ١٣١، أعلاَم الدّين وصفَات المُؤمنين للدّيلمي: ١٨٠، الإصابة لابن حَجر: ٥/ ٣٠٩، خزَانة الأدب للبَغدادي: ٨/ ٢٩١.

(٢) النّوىٰ: البُعد. يقُولون: «بَعدت نوَاهم» إذَا بَعدوا بُعداً شَديداً.

(٣) المُقترين جَمع مُقتر: الفَقير المُقل.

(٤) تَفسير البحر المُحيط لأبي حيّان الأُندلسي: ٣/ ١١٨، لسَان العَرب: ٤/ ٤٥٤ و: ١٥/ ٣٠٠، تَاج العَروس: ١٩/ ٥٩٤، خُزانة الأدب: ٢/ ٧٤ و: ٤/ ١٩٩.

(٥) صُروف الدّهر: تَقلباته ومصَائبه.

(٦) رَجل مرزأ: أي كَريم، يُصيب النّاس خَيره.

(٧) النّصب: التّعب والجُهد.

غَـدت وغـدا ربَّ سـواه يسـوقها   وبـدل أحـجاراً وجـال قَـليب[١]

* * *

وقَالَ أيضاً[٢]:

قَـامت تـباكـي أَنْ سَـبَأت[٣] لفتيةٍ   زِقـاً[٤] وخـابيةً بـعَودُ مـقطَعِ[٥]
وقَرَيت في مِقْرَىٰ[٦] قَـلاَئص أربـعَاً   وقريت بـعد قـرىٰ قـلاَئص[٧] أربـعِ
أتَـبكيًا مـن كـلّ شـيء هيِّنٍ؟   سَـفهٌ بُكـاء العَـين مَـا لم تَـدمعِ
فَـإِذا أتَـاني إِخـوتي فـدَعيهم   يَـتعللوا بـالعِيش أو يَـلهوا معي
لاَ تَـطرديهم عـن فـرَاشـي إِنَّـه   لاَ بُـدَّ يـوماً أَنْ سَـيخلو مَـضجعي
هَـلاَّ سألتِ بـعَادياءَ[٨] وبَـيته   والخـلّ والخَـمرِ الَّـتي لَـم تُـمْنَعِ؟

---

(١) القَلِيب: البِئر. والجَال: جدَار البِئر.

(٢) الدّيـوان: ٧٩، الصّحاح للجوهري: ٦/٢٣٢٣ و: ٣/٥١٥ و١٢٦٨ و١٦٨٦، لسَان العَـرب: ٣/٣٢٣ و: ٨/٢٧٩ و: ١١/٢١١ و: ١٥/٤٣، خزانة الأدب: ١/٣١٠، تأريخ الطّبري: ١/٤٥٣، تاج العَروس: ٥/١٤١ و: ١٤/٢٠٥ و: ١٩/٦٦٦.

(٣) سَبأ الخَمر: إذَا اشتراها ليَشربها. ولاَ يُقال ذَلكَ إلاَّ في الخَمر خاصّة.

(٤) الزِّق ـ بالكَسر ـ: السِّقاء، أو جِلد يجز شَعره أو صُوفه ولاَ يُنتف، يُتخذ للشّراب وغَيره.

(٥) العَود: الجَمل المُسن. والمقطَع ـ بفَتح الطّاء ـ فحل الإِبل الَّذي أنقطع عن الضّراب. يُريد الشّاعر أنّ صَاحبته تبَاكت أسفاً عَلىٰ أنْ أشترىٰ لأَصدقائه خمراً ببَعير مُسن أنقطع عن الضّراب لاَ خير في لَحمه ولاَ يَنسل.

(٦) المِقْرَىٰ ـ بكَسر المِيم ـ وسكُون القَاف، وفَتح الرّاء ـ إناء يقرىٰ فيهِ الضّيف وقريت الضّيف: أحسَنت إِلَيه.

(٧) قَلاَئص: جَمع قَلوص: والقَلوص من النّوق الشّابة، وهي بمَنزلة الجَارية من النّساء.

(٨) عَاديَاءَ. مُراده: السّموأل بن عَاديَاء. قَوله: «هلاَّ سَألتِ بعَادياءَ...» البَاء هُنا بمَعنىٰ «عَن» مُراده

↔

وقَالَ الحَارث بن حَلزة[1]:

بَيْنا الفَتىٰ يَسعىٰ ويُسعىٰ له ... تَاح[2] لهُ من أمره خَالِجُ[3]
يَترك ما رَقَّح[4] من عَيشه ... يَعيث فيه هَمَجٍ هَامج[5]
لاَ تَكسَع الشَّوْل بأغبَارها[6] ... إنّك لاَ تدري من النَّاتج[7]

* * *

وقَالَ الهذلي[8]:

إنَّ الكرامَ مناهِبوك المجدَ كلّهم فنَاهِبْ
أخلَف وأتلف، كلّ شيء ذَرّ عنهُ الرّيح ذَاهِبْ

↩ «هلاَّ سَألتِ عن عَادياءَ...» عَلىٰ نَحو قَوله تَعَالىٰ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُم بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ المعَارج: ١. أي عن عذَاب، فالبَاء هُنا بمَعنىٰ عن. يُريد الشّاعر أنْ يقول لصَاحبته الّتي تَلُومه عَلىٰ بَذله وكَرمه أنَّ عَليها أنْ تَسأل عن ابن عاديَاء الكَرِيم البَاذل لتَعرف أنَّ صَاحبها مِثله.

(١) تَرتيب إصلاح المَنطق لابن السّكّيت الأهوازي: ٤١٠، غَريب الحديث لابن قُتيبة: ١ / ٣٥٤، الصّحاح للجوهري: ١ / ٣٥١، لسَان العَرب: ٢ / ٣٩٢ و ٤٥١، تاج العَروس: ٤ / ٥٣.

(٢) تَاح لهُ الشّيء، وأُتيح له: قَدّر لهُ.

(٣) الخَالجُ: الشّاغل، يُقال: خَلجني كَذا، أي شَغلني، ويُقال: خَلجته أُمور الدُّنيا.

(٤) رَقّح مَاله: أصْلَحه.

(٥) الهَمَج: ذُبَاب صَغير كالبَعوض يَسقط عَلىٰ وجُوه الغَنم والحَمير وأعيُنها. وقَوله: هَامج تَوكيد. يُريد أنّ الإنسَان إذَا أصلَح عَيشه واطمأن يَعرض له ما يُفسد حَاله ويُنغص عليه عَيشه.

(٦) الكَسَع: أنْ تَضرب دُبر الإنسَان بَيدك أو بصَدر قَدمك. والشّوْل ـ بسكُون الوَاو ـ النّوق الّتي خَفّ لَبنها. والأغبار جَمع غُبْر ـ بضَم فسكُون ـ بقيّة اللّبن في الضّرع. وكَسعت النّاقة بغُبرها أي ضَربت ضَرعها بالمَاء البَارد ليَتراد اللّبن في ظَهرها.

(٧) النّاتج: الّذي سَتنتج لهُ هذه النّوق، فربّما تكون أنتَ، وربّما يكون غَيرك.

(٨) ديوَان الهذليّين: ٢ / ١٩٠.

وقَالَت امرأة[1]:

أنتَ وهبتَ الفِتيةِ السّلاهب[2] وإبلاً يَحارُ فيها الحَالِب

وغَنماً مِثل الجَراد الهَارب متاع أيّامٍ وكلٌّ ذَاهِب

* * *

وقَالَ تَمِيم بن مُقبل[3]:

فَأخلفْ وأتلفْ إنّما المَال عَارة وكُلْهُ مع الدّهر الّذي هو آكله

* * *

هَذه الوَاقعيّة هي في العَربي خُلق أصِيل كمَا رَأيت.

وقد جاء الإسلاَم فأكّدها، وهذّبها، وسمَا بها، ووجّهها وجهة إجتمَاعيَّة.

فَإذا كان المَوت شيئاً لاَزماً لنا، وكنّا نَعتقد بأنّ وراء دُنيانا هذه دُنيا أُخرىٰ أعظم وأحفل وأنبل، أو دُنيا أُخرىٰ أنكَد وأجفىٰ وأبلغ في الإيذاء فلمَاذا لاَ نَعد العدّة لرَحيلنا، ولماذا يُلهينا حَاضرنا الحَقير عن مُستقبلنا المَرقوب؟» «ولمَاذا التّكالب والوَحشية؟ ولمَاذا نُصرّ عَلىٰ أخذ الدُّنيا عن طَريق الخَتل والغَدر؟ ولمَاذا نُصرّ عَلىٰ ظُلم إخواننا من النّاس في سَبيل أنْ نَزيد ذَهبنا المُكدّس درهماً جَديداً؟ ولماذا نُباغض إخواننا في الدِّين والإنسانيّة والوطن في سَبيل عرض

---

(١) كتَاب المُنمق لمُحَمّد بن حَبيب البَغدادي: ٣٢٩، مُعجم ما أستعجم للبَكري الأندلسي: ١ / ٣٥.

(٢) السّلهب من الخَيل: الفَرس الطّويل عَلىٰ وَجه الأرض.

(٣) الصّحاح للجَوهري: ٢ / ٧٦١ و: ٤ / ١٣٥٧، لسَان العَرب: ٤ / ٦١٩، و: ٩ / ٨٨، تَاج العَروس: ٧ / ٢٧٥ و: ١٢ / ١٩٨.

حَقير ؟ فنُفسد حيَاتنا عَلىٰ أنفسنا، ونُفسد حياة إخـوانـنا، ونـعيش غـرباء، لاَ تَجمعنا عاطفة، ولاَ تصل بين قُلوبنا رحمَة، ولاَ يتألق في أعيُننا لإخواننا حبّ. ألاَّ يَكفينا أنَّ المَوت سيُفرّق بَيننا ؟ لاَ ... لاَ.

فَأكرم أخَاك الدّهر ما دُمتما معاً   كـفىٰ بـالمَمات فُـرقة وتـنَائيَا

هَذه الواقعيَة الوَادعة المُحببة، وهذا الشّعور الإنسَانيّ الفيّاض الدّافـق، كَـانا غَريبَين عن نفُوس النّاس وقُلوبهم في مُجتمع العراق أيّام الإمَامعليه السلام، وقـد كَـان الإمَام يَعمل عَلىٰ إعادة الشّعور بها إلىٰ النّفوس، وسَنجده في بعض الألوَان الّتي أحتواها القِسم الوعظي من كلاَمه يَنعىٰ عَـلىٰ النّـاس تَـركها، ويـحضّهم عَـلىٰ الرّجوع إلَيها، والصّدور في سلُوكهم عنها.

* * *

وثمّة لون آخر من كلاَمهعليه السلام ربّما لاَ يسمّىٰ وَعظاً، ولكنّه يُندد فـيه بـالنّاس عَلىٰ تَركهم لهذا اللّون من النّظر إلىٰ الحيَاة والمَوت، ويَدعوهُم إلىٰ الرّجوع إلَيه. قَالَعليه السلام:

«عِبَادَ اللهِ، إِنَّكُمْ ـ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ـ أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَـرُبَّ دَائِبٍ مُـضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَـادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاَ يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إلاَّ إِدْبَاراً، وَلاَ الشَّرُّ فِيهِ إلاَّ إِقْـبَالاً، وَلاَ الشَّـيْطَانُ فِـي هَلاَكِ النَّاسِ إلاَّ طَمَعاً. فَـهَذَا أَوَانٌ قَـوِيَتْ عُـدَّتُهُ،

وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ. اَضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً(١)، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً(٢)! أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ، وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ، وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَ لَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ»(٣).

وقَالَ عليه السلام:

«وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَىٰ إِلاَّ مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بِخَيْلٌ. فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ، وَالْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ، وَالْغَارِمَ(٤)»،

(١) الوَفر: المَال الكَثِير.

(٢) الوَقر: ثقل الأُذن وقلّة سمَاعها.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (١٢٩) «الأَغنِيَاء والفُقَرَاء».

(٤) الغَارِم: مَن عَلَيه دَين.

وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ[١] عَلَىٰ الْحُقُوقِ، وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ»[٢].

* * *

راجع النّصوص التّالية: رقم (٢٣)[٣] و(١٠٨)[٤]

---

(١) صَبِرَ نَفْسَه: حَبسَهَا.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (١٤٢) «صَانِع الْمَعْرُوفِ».

(٣) «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ، أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ نَفْسٍ فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً، فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ، وَيُغْرَىٰ بِهَا لِئَامُ النَّاسِ، كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ، وَكَذٰلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ، وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ، وَحَسَبُهُ. وَإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ لِأَقْوَامٍ، فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ، وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ، وَلاَ سُمْعَةٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - عَنْ عِتْرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ.

وَمِنْهَا: أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَىٰ بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ، وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ، وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ».

(٤) «اَلْحَمْدُ للهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ. خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلَّا بِذَوِي الضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ،

و(١١٥)[1] و(١٢٧)[2]

⇐ وَأحَاطَ بِغُمُوضِ عقَائِدِ السَّرِيرَاتِ ٱخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ العَلْيَاءِ، وَسُرَّةِ البَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الحِكْمَةِ. طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَىٰ مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الحَيْرَةِ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ العُلُومِ الثَّاقِبَةِ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ القَاسِيَةِ. قَدِ ٱنْجَابَتِ السَّرَائِرُ لأَهْلِ البَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الحَقِّ لِخَابِطِهَا، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ العَلاَمَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا. مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ... إلخ»!.

(١) «أَللَّهُمَّ قَدِ ٱنْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَٱغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَىٰ عَلَىٰ أَوْلاَدِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالحَنِينَ إِلَىٰ مَوَارِدِهَا! أَللَّهُمَّ فَٱرْحَمْ أَنِينَ الآنَّةِ، وَحَنِينَ الحَانَّةِ! أَللَّهُمَّ فَٱرْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا! أَللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ ٱعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الجُودِ. فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالبَلاَغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الأَنَامُ، وَمُنِعَ الغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ. أَلاَّ تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلاَ تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا، وَٱنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ المُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ المُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ المُونِقِ، سَحّاً وَابِلاً، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ. أَللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً، زَاكِياً نَبْتُهَا، تَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا المَيِّتَ مِنْ بِلاَدِكَ... إلخ»!.

(٢) «فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ، وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَىٰ عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البُرْءِ، وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجَمَ الزَّانِيَ المُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ القَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ، وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ المُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الفَيْءِ، وَنَكَحَا المُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الإِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ. ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَىٰ بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ! وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الحُبُّ إِلَىٰ غَيْرِ الحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ البُغْضُ إِلَىٰ غَيْرِ الحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ!.

⇐

و(١٤٠)[١] و(١٦٤)[٢] و(١٦٥)[٣].

فإنّ الشاذّ مِنَ النّاسِ لِلشّيطَانِ، كَمَا أنّ الشّاذّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذّئْبِ. ألا مَنْ دَعَا إلَىٰ هَـذَا الشّـعَارِ فَاقْتُلوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحتَ عِمَامَتِي هَذِهِ... إلخ».

(١) «وَإنّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ، وَالْمَصْنُوعِ إلَيْهِمْ فِي السّلامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْـلَ الذّنُـوبِ، وَالْـمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ. فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيّرَهُ بِبَلْوَاهُ! أمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمّا هُوَ أعْظَمُ مِنَ الذّنْبِ الّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَأيْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصّغِيرِ، لَجَرَاءَتُهُ عَلَىٰ عَيْبِ النّاسِ أكْبَرُ!.

يَا عَبْدَ اللهِ، لا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلا تَأمَنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ صَغِيرَ مَـعْصِيَةٍ، فَلَعَلّكَ مُعَذّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَىٰ مُعَافَاتِهِ مِمّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ.. إلخ».

(٢) «إنّ النّاسَ وَرَائِي وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أدْرِي مَا أقُولُ لَكَ! مَا أعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلا أدُلّكَ عَلَىٰ أمْرٍ لا تَعْرِفُهُ، إنّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إلَىٰ شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلا خَلَوْنَا بِشَـيْءٍ فَنُبَلّغَكَهُ. وَقَدْ رَأيْتَ كَمَا رَأيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ابْنُ أبِي قُحَافَةَ، وَلا ابْنُ الْخَطّابِ بِأوْلَىٰ بِعَمَلِ الْحَقّ مِنْكَ، وَأنْتَ أقْرَبُ إلَىٰ أبِي رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالا. فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ! فَإنّكَ ـ وَاللهِ ـ مَا تُبَصّرُ مِنْ عَمىً، وَلا تُعَلّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإنّ الطّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإنّ أعْلامَ الدّينِ لَقَائِمَةٌ. فَاعْلَمْ أنّ أفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَىٰ، فَأقَامَ سُنّةً مَعْلُومَةً، وَأمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَإنّ السّنَنَ لَنَيّرَةٌ، لَهَا أعْلامٌ، وَإنّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أعْلامٌ. وَإنّ شَرّ النّاسِ عِنْدَ اللهِ إمَامٌ جَائِرٌ ضَلّ وَضُلّ بِهِ، فَأمَاتَ سُنّةً مَأخُوذَةً، وَأحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً... إلخ».

(٣) «ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ، وَأقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيّنَاتِ عَـلَىٰ لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمَسَلّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أسْمَاعِنَا دَلائِلُهُ عَلَىٰ وَحْدَانِيّتِهِ، وَمَا ذَرَأ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأطْيَارِ الّتِي أسْكَنَهَا أخَادِيدَ الْأرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا، وَرَوَاسِيَ أعْلامِهَا، مِنْ ذَاتِ أجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرّفَةٍ فِي زِمَامِ التّسْخِيرِ، وَمُـرَفْرِفَةٍ بِأجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ. كَوّنَهَا بَعْدَ إذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ

دَعْوَةٌ إِلىٰ التوازن بَيْن الدُّنيَا وَالآخِرَة
مَوقِفُ الإِمَامِ عليه السلام مِنَ العَمَل لِلدُّنيَا
مَوْقِفُهُ مِنَ الفَقْر

لاَ يريد منا الإِمَام عليه السلام أَنْ نَقطع أنفسنا عن دُنيانا وأَنْ نَحرمها لذات هذه الدُّنيا، وأَنْ نَغلّ غرائزنا وشَهواتنا عن الإِنطلاق. إنّ التّحرر عن طريق الحرمان شيء عظيم ونَبيل، ولكن أكثر النّاس لاَ يستطيعونه، ولاَ يقوون عَلىٰ آحتماله.

فها هو عليه السلام يُقرّر في إِحدىٰ كلماته المُضيئة الهادية عُقم كلّ مُحاولة ترمي إِلىٰ آقتطاع الإِنسَان من واقعه: واقع جِسمه وغرَائزه ورغبَاته كإِنسان، وواقع حيَاته ذات المطالب والحَاجات، وواقع كينُونته الإِجتمَاعيَّة.

يُقرّر عليه السلام عُقم كلّ مُحاولة ترمي إِلىٰ آقتطاعه من هذا الوَاقع بالتّنكر لغرَائزه ورغبَاته وحاجات حيَاته ولكن لمَاذا؟. لأَنَّ أُسر هذه الغرَائز والرّغبات مودع في طَبيعة الإِنسَان، ولاَ يسعه التّفلت من أسرها إِلاّ بالإِستحالة إِلىٰ ذات أُخرىٰ.

قَالَ عليه السلام:

↔ دَفِيفاً. وَنَسَقَهَا عَلَىٰ آختِلاَفِهَا فِي الأَصَابِغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لاٰ يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلاَفِ مَا صُبِغَ بِهِ... إِلخ».

«النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلاَ يُلاَمُ الرَّجُلُ عَلَىٰ حُبِّ أُمِّهِ»(١).

كنّىٰ بذلك عن أنَّ دوافع الإنسان إلىٰ إجابة حاجَات نفسه وشهوَاتها مُودعة فيه، وإذَا كانت مُودعة فيه فهي جُزء من كيانه، وهي تُسهم في حَبْك جُزء من نَسيج وجُوده الإنسانيّ، ولذلك فهو يحبّها ويُقبل عليها، ويأخذ بحظّ منها، ولكن لاَ لوم عليه في ذَلكَ، فهو حِينما يُقبل عليها إنَّما يُلبي بإقباله هَاتفاً مُلحاً لاَ قبل له بكَتم صوته مَهما أوتي من عَزيمة ومضَاء.

وهُنا تأتي قصّة عَاصم بن زيَاد شَاهد صِدق عَلىٰ ما نقُول:

دَخلعليه السلام عَلىٰ العَلاء بن زيَاد الحارثي يعوده فلمّا رأىٰ سعَة دَاره قالَعليه السلام:

«مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟ وَبَلَىٰ إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ: تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الحُقُوقَ مَطَالِعَهَا(٢)، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ.

فَقَالَ لَهُ الْعَلاَءُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ.

قَالَ: وَمَا لَهُ؟.

قَالَ: لَبِسَ الْعَبَاءَةَ وَتَخَلَّىٰ عَنِ الدُّنْيَا. قَالَ: عَلَيَّ

(١) نَهج البَلاَغة، بَاب المُختار من حِكم أَمِير المُؤمِنينعليه السلام، رَقم النّص: (٣٠٣).

(٢) أطلع الحقّ مَطلَعه: أظهَره حَيث يجب أنْ يَظهر. ومطَالِع الحقُوق مصَارفهَا الشّرعيَّة.

بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ:

يَا عُدَيَّ[١] نَفْسِهِ! لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ[٢]! أَ مَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَىٰ اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ ذَٰلِكَ!.

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَـٰذَا أَنْتَ فِـي خُشُـونَةِ مَلْبَسِكَ وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ!.

قَالَ: وَيْحَكَ، إِنِّـي لَسْتُ كَـأَنْتَ، إِنَّ اللهَ تَـعَالَىٰ فَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا[٣] أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ[٤] بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[٥]!.

فَفي هذه القصّة نرىٰ الإِمَامَ ﷺ يَلوم العَلاء عَلىٰ سعَة دَاره، ويتّخذ لومه سَبيلاً إلىٰ بَيان وجوه الإنتفاع بها، فيُشير إلىٰ أنّه لاَ حَرج عَلىٰ المَرء في أَنْ يَجمع بَين الدُّنيا والآخرة، فيُمتّع نَفسه في الدُّنيا بمبَاهجها، ويَبلغ في الآخرة عُليا الدَّرجَات.

ثُمّ يُؤنّب عَاصماً عَلىٰ فِعله حين هَجر الدُّنيا ولَبس العبَاءة، فَبيَّن لهُ أنّه بفِعله هذا أَناني يَعمل لنَفسه، إذ أَنَّ جدوىٰ عَمله لو ٱستطاعه ووَالاه لاَ تَرجع إلاّ إليه، وأمّا غيره من النّاس فلاَ يَصيب منهُ نَفعاً وخاصّة أَهْله ووُلده وهُم أَلصَق النّاس بِهِ، وبيَّن أَنَّ من الخَير لهُ أَنْ يَجمع بين العَمل لنَفسه والعَمل لغَيره، وأَنْ يَـجمع بَـين

---

(١) عُدَيَّ: مُصَغّر عدوّ.

(٢) الخَبِيث: الشّيطَان. ٱستهَام بكَ: تَعلقَ بكَ.

(٣) يُقَدِّرُوا أَنفسهم: يُساووا أَنفسهم بضُعفاء النّاس، فيكُونوا قُدوة للأَغنيَاء.

(٤) يَتَبَيَّغ: يَهيج بالفَقِير أَلم الفَقر فَيهلكه.

(٥) نَهج البَلاَغَة: الْخُطْبَة (٢٠٩) «الْعَلاَء وَأَخُوه عَاصِمَ».

الدُّنيا والآخرة. والطّيبات.؟ هل حرّمها الله؟ كلاّ إنّ الإنسان مَدعو لأنْ يُصيب مِنها شَريطة ألاّ يَستغرق فِيها عَلىٰ نحو يُلهيه عن الغَاية الرّفيعَة لوجُوده.

* * *

وقالَ عليه السلام:

«لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ[1]، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ. وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»[2].

وقالَ عليه السلام:

«خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّىٰ عَنْكَ؛ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ[3]»[4].

* * *

هَذا مَوقفه من الدُّنيا: لاَ حرج عَلىٰ الإنسَان أنْ يَطلب الدُّنيا ويَسعىٰ إلَيها ويُصيب من لذّاتها، ولكن عَليه أنْ يَطلب الدُّنيا من طَريق الحلاَل، ويُصيب من

---

(١) يَرُمُّ مَعَاشَهُ: يُصْلح معَاشَه.

(٢) نَهج البلاَغة، بَاب المُختار من حِكم أمِير المُؤمِنين عليه السلام، رَقم النّص: (٣٨٨).

(٣) أي فإنْ لَم تَترك ما تَولىٰ عَنك وأردت أنْ تَطلبه، فليَكن طَلبك جَميلاً، وَاقفاً بكَ عند الحقّ.

(٤) نَهج البلاَغة، بَاب المُختار من الحِكم، رَقم النّص: (٣٩١).

لذّتها ما يحلّ ويجمل، ثُمّ لاَ يتهالك عَلىٰ الدُّنيا ولذّاتها عَلىٰ نَحو غير إنساني، بحَيث يَنقلب من إنسان ذي مشَاعر نَبيلة، وإمكانات رَفيعة عَالية إلىٰ مُجرد آلة... آلة لجَمع النّقود وتَكديسها، لتُنفق في وجُوه غير إنسانيّة. إنّ هذا لَيس جَديراً بالإنسان أنْ يَفعله، أجمل في الطّلب لتُعطي لنَفسك حقّها ولربّك حقّه.

* * *

وَالفقْر...؟ مَا مَوقف الإمَام عليه السلام منهُ؟:

إنّ الإمَام ليَكره الفَقر، ويَستعِيذ بالله منه، ويَأمر النّاس بالإستعاذة بالله منهُ، ويَنعته بأقبَح النّعوت. قَالَ عليه السلام:

«الْغِنَىٰ فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ»[1].

«اَلْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ. وَالْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ»[2].

«الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ»[3].

«أَلَا وَإِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفَاقَةَ، وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ؛

---

(١) نَهج البَلاَغة، بَاب المُختار من حِكم أَمِير المُؤمِنين، رَقم النّص: (٥٥).

(٢) نَهج البَلاَغة، بَاب المُختار من حِكم أَمِير المُؤمِنين، رَقم النّص: (٣).

(٣) نَهج البَلاَغة، بَاب المُختار من حِكم أَمِير المُؤمِنين، رَقم النّص: (١٦٢).

أَلَا وَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ سَعَةَ الْمَالِ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ صِحَّةُ الْبَدَنِ، وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَىٰ الْقَلْبِ»[١].

وقَالَ لابْنه مُحَمَّد بن الحَنفيَة:

«يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ»[٢].

وإنّ إنسَاناً يَنعت الفَقر بهَذه النّعوت لاَ يُمكن أَنْ يُقال عنهُ إِنَّه يُحبذ الفَقر ويَكره الغنىٰ، ولقَد كان عليه السلام يَستعيذ بالله من الفَقر، ويَسأله أَنْ يُغنيه، فمِن دُعاء له عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ[٣]، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِيَ بِالْإِقْتَارِ[٤] فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَىٰ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥]»[٦].

ومِن دُعَاء لهُ عليه السلام:

---

(١) نَهج البلاَغة، بَاب المُختَار من حِكم أَمِير المُؤمِنِين، رَقم النّص: (٣٨٧).

(٢) نَهج البلاَغة، بَاب المُختَار من حِكم أَمِير المُؤمِنِين، رَقم النّص: (٣١٩).

(٣) صيَانَة الوَجه: حفظه من ذلّ السّؤال، واليَسَار الغنىٰ. يَسأل الله تَعالىٰ أَنْ يُغنيه لئلاّ يَضطر إلىٰ السّؤال.

(٤) بَذل الجَاه: إسقاط المَنزلة. والإقتار الفَقر. يَسأل الله تَعالىٰ ألاّ يفقره فتَسقط مَنزلته.

(٥) آل عمران: ٢٦ والتحريم: ٨.

(٦) أُنظر، نَهج البلاَغة: الخُطبَة (٢٢٥) «أعوذ بِاللهِ مِن الفَقر».

«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً، وَلَا سَقِيماً، وَلَا مَضْرُوباً عَلَىٰ عُرُوقِي بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِي، وَلَا مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَلَا مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي. أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ. أَللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي. أَللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ. أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَىٰ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ»(١).

وَهكذا ترىٰ أنّه عليه السلام يُحارب الفَقر حرباً لاَ هوادة فِيها، ويُحذّر منهُ، ويَستعِيذ بالله أَنْ يَبتَليه به.

إنّ الدُّنيا عِندَه جَديرة بالإقبال عَليها، والعَمل فِيها، والأخذ بحظّ من مُتعها ولذّاتها، وإنّ الفَقر عنده أمرٌ مَذموم خَطر، عَلىٰ الإِنسَان أَنْ يَتخلص منهُ ويَستعِيذ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٢١٥) «لله الحُجَّة».

بالله من بَلوَائه.

* * *

راجع النّصوص التّالية: (٢٠٥)[1] و(٢١١)[2] و٢٢١[3])، وفي باب المُختار من حِكم أَمير المُؤمِنين راجع النّصوص التّالية: رَقم (٣) و(٥٦)

---

(١) «تجهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَآنْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَآعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ، وَمُعْضِلَاتُ الْمَحْذُورِ. فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا، وَآسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَىٰ».

(٢) «وَكَانَ مِنِ آقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ آرْتِتَاقِهَا، فَآسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَىٰ حَدِّهِ. وَأَرْسَىٰ أَرْضاً يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ. وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا، فَمَضَتْ رُءُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً. فَسَكَنَتْ عَلَىٰ حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ».

(٣) «يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ! لَقَدِ آسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَىٰ يَتَكَاثَرُونَ! يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ. وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَىٰ مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَوِ آسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً. تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَثْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ».

و(١٦٢) و(٣١٩) و(٣٨٨) و(٣٩٠) و(٣٩٣)[1] و(٤١٦)[2].

---

(١) تقدم ذلك.

(٢) «افْعَلُوا الْخَيْرَ، وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ، وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي، فَيَكُونَ وَاللهِ كَذَلِكَ. إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلاً، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ».

إِتّباعُ الهوىٰ وَطُولُ الأَمَل: مَا يَعنيٰ بهمَا الإِمَامُ؟
وَمَا آثَارُهُمَا في حَيَاةِ الإِنَسان؟

وإِذْ قَد تمّ لنَا أَنْ نَلم بالمَثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم، والوَاقع الإِجتماعيّ الَّذي كان يُعانيه الإِمَام، والواقعيَة العَربية الَّتي آحتضنها الدِّين، ورأي الإِمَامعليه السلام في الدُّنيا والآخرة، والغِنىٰ والفَقر، فلنأخذ سَبيلنا إِلىٰ دراسَة القِسم الوعظي من نَهج البَلاَغة.

والقِسم الوعظي عَلىٰ ضُروب وألوان، فَفيه مواعظ بالتّحذير من آتّباع الهوىٰ وطُول الأَمل، وَأُخرىٰ بالحثّ عَلىٰ العَمل قَبل فوات الفُرصة، وَثَالثة بالتّذكير بالمَاضين، وَرَابعَة بتَقلب الدُّنيا.

* * *

مَاذا يعني آتّباع الهوىٰ وطُول الأَمل في الدُّنيا؟.

أَمّا آتّباع الهوىٰ فهو يعني أَنَّ الإِنسَان يَبني مشَاريعه عَلىٰ أُسس غَير عَقلية، ومن ثمَّ فهي غير وَاقعية، وإِنَّما هي قَائمة عَلىٰ نزوات وشهوات ضخمها الخيَال.

وأمّا طُول الأَمل فيعني أَنَّ الإِنسَان يغمض عَينيه عن أعظم حقيقة هو لاَ بُدّ مُلاقيها وهي المَوت.

وإذاً فهذا اللَّون من الوعظ مُوجّه إلىٰ الَّذِين يَتهالكون عَلىٰ الدُّنيا تهالكاً خطراً يجرهم إِلىٰ أمرين خَطيرين: أوّلهُما تزيِّيف الوَاقع الَّذي يَحيونه، وهذا مَا يُسميه بطول الأَمل، وَثَانيهُما ضمور الحاسة الأَخلاقية فـي النّـفس، إِلىٰ حـدٍّ يـجعل الإِنسَان ضَعيفاً أمَام رغائبه وأهوائه. ويَترك إِلىٰ هـذه الرّغـائب والأَهـواء أمـر صيَاغة مَصيره.

قَالَ عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اَثْنَانِ: اَتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَطُولُ الأَمَـلِ، فَـأَمَّا اَتِّـبَاعُ الْـهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ. أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ[1]، فَلَمْ يَـبْقَ مِـنْهَا اِلاَّ صُبَابَةٌ[2] كَصُبَابَةِ الإِنَـاءِ اَصْـطَبَّهَا صَـابُّهَا. أَلاَ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِـنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُـلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ»[3].

العَمل للدُّنيا عَلىٰ نحو يُوجب ضمور الحسّ الأَخلاَقي في النّفس، وعَلىٰ نحو يُوجب تَزييف الوَاقع وحسبان الخُلود، ممّا يُوجب نسيان الآخرة، والإِندفاع في

(١) حَذّاء: سَريعَة.

(٢) الصُّبَابَة: البَقية من المَاء واللّبن في الإِنَاء.

(٣) أُنظر، نَهج البلاَغة: الخُطبَة (٤٢) «الْهَوَىٰ وَطُولُ الأَمَلِ».

حيَاة مَادية، تجرد الإنسَان من معنَاه الإنسَانيّ لتَحيله إلىٰ مُجرد آلة لجَمع النّقود والإستمتاع، هذا العَمل شرّ كلّه، لأنّه يفسد الشّخصية الإنسانيَّة ويهبط بها، ولذلك فهو عَمل منهي عنهُ.

ثُمَّ نبّه إلىٰ أَنَّ طول الأَمل والتّزييف للواقع أمر لاَ مُبرر له فالدُّنيا سَريعة (حذَّاء) وهي بالنّسبة إلىٰ كلّ شخص، «فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ» فلمَاذا طول الأَمل ومَا مُبرره؟.

وهَاتان الآفتَان النّفسيتَان: اَتّباع الهوىٰ وطُول الأَمل، لاَ تَحلان إلاَّ في نَفس طَرحت النَّظرَة الواقعيَة الإسلاميَّة. وقد كان الوَاقع الإجتماعيّ في زَمن الإمَام يَبعد بين الإنسَان وبَين هذه الواقعية وينأىٰ به عنها.

وهذا النّحو من العَمل للدُّنيَا يُسّبب التّفسخ الإجتماعيّ، فهو لاَ يقتصر بآثاره الضّارة عَلىٰ الفَرد وحده، وإنَّما يَمتد بهذه الآثار إلىٰ المُجتَمع.

قَالَ عليه السلام:

«وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَىٰ بِكُمْ. إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اَغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الآجَالِ[1]، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَىٰ دِينِ

(١) انقضاء آجالهم قطعهم (شذ بهم) عن بلوغ آمالهم.

اللهِ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلاَ تَوَازَرُونَ، وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ، وَلاَ تَوَادُّونَ. مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ذلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ[١] مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْله. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ رَفْضِ الآجِلِ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً[٢] عَلَىٰ لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَحْرَزَ رِضَىٰ سَيِّدِهِ»[٣].

وقال عليه السلام:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ، وَيَمَلُّهُ إِلاَّ الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لاَ يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّت، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَ سَمْعٌ لِلأُذُنِ

(١) زُوِيَ عَنكُم: زوَاه أي نحّاه.

(٢) عبّر باللُّعقة عن الإقرار باللّسان مع كَونه مُخالفاً بالقَلب.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١١٣) «أَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ».

الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا الْغِنَىٰ كُلُّهُ، وَالسَّلاَمَةُ. كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ. قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَىٰ الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ(١)، وَ نَبَتَ الْمَرْعَىٰ عَلَىٰ دِمَنِكُمْ(٢). وَتَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ حُبِّ الآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الأَمْوَالِ. لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ(٣)، وَتَاهَ بِكُمُ الْغُرُورُ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَأَنْفُسِكُمْ»(٤).

أرَأيت إلىٰ هٰؤلاء الَّذين جمعتهم الإنسانيَّة فوحَّدت غرائزهم وقواهم ومداركهم، ثُمّ جمعهم الدِّين والوطن فوحدا آمَالهم، وآلاَمهم، وأهدافهم، ومطَامحهم، كَيف جَعلهم العَمل للدُّنيَا، عَلىٰ نحو جنُوني، يَفقدون أجل مِيزاتهم الإنسانيَّة فلاَ يتوازرون، ولاَ يتنَاصحون ولاَ يتباذلون. واستحالت هذه النّبالات

---

(١) اصْطَلحتُم: اتفقتُم، والغِلّ: الحِقد. أي اتفقتُم عَلىٰ تَمكين الحِقد في النّفوس.

(٢) الدِّمن: جَمع دِمنة، وهي الحِقد القَديم. ونَبت المرعىٰ عَلىٰ دِمنكُم: أي أنَّ حِقد بعضكُم عَلىٰ بعض مَستور بظواهر النّفاق فيمَا بينكُم. وأصل مَعنىٰ الدِّمن: نفَايات الإنسَان من بَطنه وأرواث المَاشية وأبوالها، وسُميت بها الأحقَاد لأنّها أشبه شيء بها، وقد تَنبت عَلىٰ هذه القذَارات الأعشاب الخَضراء فتسترها بمَنظر جَميل، يُخفي تَحته قذَارة تعَافها النّفس، فهٰكذا الأحقَاد الإنسانيَّة المُخبأة تحت ستَار من التّصنع والرِّيَاء.

(٣) استَهَام: أصْله من «هَام عَلىٰ وجْهه» إذَا خَرج لاَ يَدري إلىٰ أين يَذهب، أي أخرجكُم الشّيطان من نُور الفِطرة وضيَاء الشّريعة إلىٰ ظُلمات الضّلال والحَيرة.

(٤) انظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٣٣) «الله، وَمُحَمّد، وَالقُرآن».

في أعماقهم إِلىٰ غرَائز ذئبية فخبثت سرَائرهم، وفسدَت ضمائرهم، وٱنفصمت عرىٰ الودّ فيما بَينهُم، وأُنظر كَيف سَاقهم ذَلكَ إِلىٰ الجُبن الإِجتماعيّ، فيغضي أحدهم عن عَيب صاحبه، لأنّه يخشىٰ أَنْ يُواجهه بعَيبه.

وقَد عَرفت أنّهعليه‌السلام لاَ يَتنكر لمَن يَعمل للدُّنيَا عَلىٰ نحو لاَ يُلهيه عن الآخرة، ولاَ يَحيله إِلىٰ آلة جَشعة لاَ تعرف معنىٰ للشّبع ولاَ للوقُوف، وهو في هذا اللَّون الوعظي لاَ يدعو إِلىٰ هَجر الدُّنيا وإِنَّما يَدعو إِلىٰ التّخفيف من الظّراوة في طَلبها ويَدعو إِلىٰ النّظر إِلَيها من زَاويَة الوَاقع وحدَه.

وإِنّ طَائفَة من النّاس تَحيا هذَا اللَّون البَشع من الحيَاة المَادية الخالصة الَّتي وَصفها الإِمَامعليه‌السلام في النّص الَّذي قدّمناه لبَعيدة كلّ البُعد عن المَثل الأَعلىٰ للحيَاة في الإِسلاَم، فهؤلاء الَّذين أقفَرت ضمَائرهم من الشّعور بالله، وصَار دين أحدهم لُعقة عَلىٰ لسَانه، قد ٱنقلب كلّ منهم إِلىٰ أَنانية تَمشي، فيَتنكر لمُجتمعه ويَسير عَلىٰ هدىٰ شهوَاته.

وإِنّ العَمل للدُّنيَا عَلىٰ هذا النّحو الَّذي يَفقد الإِنسَان أجلّ مِيزاته لهو عَمل جَدير بأَنْ يُحارب.

* * *

رَاجع النّصوص التّالية: رَقم (٤٢ و ٨٤ و ١٠٣ و ١١١ و ١٣١)، وفي بَاب المُختار من الحُكم رَاجع: رَقم (١٨ و ٣٦).

المَوعْظَةُ بالتّأريخ، وَظِيفَةُ التّأريخ

والتّذكير بالمَاضين وبمَا عرض لهم من طوارق الدّهر ونوازل الأَيّام، وبمَا أَلم بهم من نَكبات وآلام، وكَيف أنَّ كلّ ما نصبوا أنفسهُم لجَمعه من مَال لم يُغن عنهم شَيئاً حين حلَّ بهم المَوت.. هذا التّذكير بالمَاضين يتّخذه الإمَامعليه السلام وسيلَة إلىٰ تَجسيم الوَاقع الّذي يُزيفه النّاس، ويَفرون منه، ويَتمردون عَليه.

والتّأرِيخ عند العَاملين للدُّنيَا عَلىٰ نحو جنُوني يَنقلب إلىٰ مَادة للتّسلية والله وبَدل أَنْ يكُون مَنبعاً للعِبرة ومقيلاً من العَثرة، ويَنقلب أيضاً صدىٰ ميّتاً لكائنات لاَ تَصلهم بها صلَة، ولاَ تشدّهم إلَيها وشِيجة، فلاَ تُثير مآسية فيهم طَائف حُزن، ولاَ تَمدهم تجَاربه بالبَصِيرة.

ويُحاول الإمَام في هذا اللّون من موَاعظه أَنْ يَصل ما ٱنقطع بَينهُم وبَين التّأرِيخ بصلاَت الفِكر والعَاطفة، ووشَائج العَقل والقَلب، ليعُود التّأرِيخ في أنفسهم مَادة غَنية بالحيَاة والحَركَة، فهي تُوجه وتُرشد، وتُمسك بالإنسان عن الزّيغ والإنحرَاف.

قَالَعليه السلام:

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا، وَأَشْلاَءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا، مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا، وَمُدَدِ عُمُرِهَا،

بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ. وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ[1]، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ[2]. أَرْهَقَتْهُمُ[3] الْمَنَايَا دُونَ الآمَالِ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الآجَالِ[4]. لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ الأَبْدَانِ[5]، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الأَوَانِ[6]. فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ الْهَرَمِ؟ وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلاَّ نَوَازِلَ السَّقَمِ؟ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلاَّ آوِنَةَ الْفَنَاءِ؟ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ، وَأُزُوفِ الاِنْتِقَالِ، وَعَلَزِ الْقَلَقِ، وَأَلَمِ الْمَضَضِ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ، وَتَلَفُّتِ الاِسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ، وَالأَقْرِبَاءِ، وَالأَعِزَّةِ، وَالْقُرَنَاءِ! فَهَلْ دَفَعَتِ الأَقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ، وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الأَمْوَاتِ رَهِيناً، وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً،

---

(١) الخلاَق: النصيب الوافر من الخير.

(٢) الخنَاق: حبل يُخنَق به. كناية عن أنهم لم يغتنموا الفُسحة في العُمر.

(٣) أرهَقتهم: أعجلتهم.

(٤) إنقضاء آجالهم قطَعهم (شذّ بهم) عن بُلوغ آمالهم.

(٥) لم يَمْهدُوا. أي لم يُهيأوا أنفسهُم للقاء الله تعالىٰ، وهُم في حَال السّلامَة.

(٦) أمر أُنُف ـ بضَمّتين ـ أي أمر جَديد مُستأنف لم يَسبق به قدر.

قَدْ هَتَكَتِ ٱلْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ، وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ، وَعَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَمَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ، وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا، وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا، وَالْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لاَ تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلاَ تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا! أَوَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالْآبَاءَ، وَإِخْوَانَهُمْ، وَالْأَقْرِبَاءَ؟ تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ(١)، وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ(٢)؟! فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لاَهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا، سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا! كَأَنَّ الْمَعْنَىٰ سِوَاهَا(٣)، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا»(٤).

وهكذا يُقرّر عليه السلام صلَة التّأرِيخ بهم، وأنّه لَيس غَريباً عنهم فهو تأريخ آبائهم وأمثالهم.

ويُقرّر أيضاً أَنَّ هذا التّأرِيخ مَشلول عن عَمله، فهو لاَ يَقوم بدَوره في صيَاغة حيَاتهم، لأنّهم لاَ يَزالون يَنتهجون نفس الخُطّة الّتي إِنتهجها من قَبل آباؤهم، فكأنَّ الدُّنيا عندهُم غَايَة كلّ شيء ومُنتهىٰ كلّ غَايَة.

وقَالَ عليه السلام:

---

(١) القِدّة: الطّريقَة.

(٢) تَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ: تَسيرون عَلىٰ سَبيلهم، بلاَ إنحراف عنهُم في شيء.

(٣) كَأَنَّ الْمَعْنَىٰ سِوَاهَا: كأنّ المَقصُود بالتكاليف الشّرعيّة سوَاها.

(٤) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٨٣) «ٱلقُلُوبُ قَاسِيَةٌ لاَهِيَةٌ».

«نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا أَخَذَ وَأَعْطَىٰ، وَعَلَىٰ مَا أَبْلَىٰ وَٱبْتَلَىٰ. الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداًﷺ نَجِيبُهُ، وَبَعِيثُهُ، شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلاٰنَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ.

فَإِنَّهُ وَاللهِ الْجِدُّ لاٰ اللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لاٰ الْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلاّ الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلاٰ يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ، وَحَذِرَ الإِقْلاَلَ[١]، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ، وَٱسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَىٰ أَعْوَادِ الْمَنَايَا[٢] يَتَعَاطَىٰ بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَىٰ الْمَنَاكِبِ، وَإِمْسَاكاً بِالأَنَامِلِ. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً، كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً[٣]، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ، لاٰ فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلاٰ

(١) الإِقْلاَل: الفقر.

(٢) أَعْوَادِ الْمَنَايَا: النعش. «يتعاطىٰ به الرجال» يتداولونه تارة علىٰ أكتاف هؤلاء، وأُخرىٰ علىٰ أكتاف هؤلاء.

(٣) البور: الفاسد الهالك. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانُواْ قَوْمَۢا بُورًا﴾ الأنعام: ١٨، أي هالكين.

مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ! فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَىٰ قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَىٰ دَارِ الْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَىٰ أَوْفَازٍ. وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ»[١].

وإِذَن فَلم يُغن عن هَؤلاء تَزييفهم لوَاقعهم، وغرورهم بأنفسهم، وحُسبَانهم أنّهم خَالدُون.

لَقد دَهمهُم هذا الوَاقع وهُم يَحسبون أنّهم في أمَان، فهل أغنَت عنهُم أموَالهم وهل حصّنتهم قصُورهم؟ لاَ، لَقد ذَهبوا، فليَكن لكَ فيمَا صَار إلَيه أمرهُم عِبرة تَدفعك إلىٰ اليَقظة، وتُرحض عنكَ الغَفلة.

ومن البَيّن أنَّ الإمَامعليه السلام في هذا اللّون من موَاعظه لاَ يُريد النّاس علىٰ أنْ يَفروا من دُنياهم، ويَتركوا العَمل لها، فَقد رأينَاه يَكره هذا اللّون من السّلبيَة إنَّما يُريد أنْ يَحملهم علىٰ أنْ يَنظروا إلىٰ الحيَاة من زَاويَة الوَاقع وأنْ يَصدروا في سلُوكهم عن هذه النَّظرَة الواقعيَة الوَادعة المُصيبَة.

* * *

رَاجع النّصوص التّالية: رَقم (٢٠ و ٣٢ و ٨١ و ١٠٩ و ١٣٠ و ١٨٠ و ٢٢٤)، وفي بَاب الكُتب وصيّته إلىٰ وَلده الإمَام الحَسنعليه السلام رَقم: (٣١)[٢].

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١٣٢) «عَاقِبَةُ المُترَفِين».

(٢) تَقدّم ذَلك.

نَظرَةُ الإِسلاَم في تَكوينِ الشّخْصِيَّة الفَاضِلَة

ذَكر الإِمَام عليه السلام أَنَّ طُول الأَمل يُنسي الآخرَة.

ومن البيِّن أَنَّ الإِنسَان حِين يَنسىٰ أَنَّ ثمّة عَالماً آخر سيَصير إِلَيه، فإِنّه يَحصر جَميع وجُوه نشَاطه في العَمل لدُنياه، ولاَ يَتورع في عَمله هذا عن سلُوك أقبَح الطّرق المُوصلة إِلىٰ حيَازة المَزِيد من المَال، والتّمتع بالمَزيد من القوّة، وهَكذا يَدفع طُول الأَمل إِلىٰ آتّباع الهوىٰ، الّذي عرّفه الإِمَام بأَنّه يَصدُّ عن الحقّ، فهو يَحمل صَاحبه عَلىٰ ركُوب كلّ شيء في سَبيل الوصُول إِلىٰ ما يُريد.

فَإِذا تَمكن طُول الأَمل وآتّباع الهوىٰ من نَفس إِنسَان حَملاه عَلىٰ طَلب الدُّنيا عَلىٰ نحو جنُوني يَجعله خطراً إِجتماعيّاً، وعَلىٰ نِسيان العَمل للآخرة.

في بَعض الأَلوَان الوعظيّة الَّتي يَحتويها القِسم الوعظي من نَهج البَلاَغة يُحارب الإِمَام عليه السلام هذا الإِنحرَاف، ويَدعو الغَافلين عن مَصيرهم إِلىٰ العَمل له.

فَإِذا كان طُول الأَمل غُروراً خَادعاً، وكان آتّباع الهوىٰ باطلاً، وكنّا نَعلم بأَنّ المَصير هو المَوت، وأَنّنا سنَصير بَعد المَوت إِلىٰ دُنيا أُخرىٰ نُجزىٰ فيها بمَا قدّمناه من أعمَالنا: نُثاب إِنْ أَحسنَا ونُؤخذ بجرَائرنا إِنْ كنّا من ذوي الجَرائر.

وإِذَا كان هذا كلّه حقّاً فلماذا لاَ نُقدم لأَنفسنا ما نحرزها به غَداً، ونحنُ نعلم أَنّنا حينذاك لاَ نَملك أَنْ نعمل شَيئاً، فالْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ

عَمَلَ، ونحنُ نَعلم أَنَّ المَوت قَد يلمُّ بنا في أي لَحظة، فلمَاذا التَّسويف؟.

ومن البيِّن أنّه عليه السلام لاَ يدعو إلىٰ تَرك الدُّنيا وإنَّما يَدعو إلىٰ العَمل للآخرة. وكأنَّ الإمَام يَدعو إلىٰ الجَمع بَين الآخرَة والدُّنيا، فهو لاَ يَنهىٰ عن العَمل للدُّنيَا، وإنَّما يَنهىٰ عن الإستغراق في هذا العَمل، بحَيث ينسىٰ الإنسَان الآخرة ويَقفر ضَميره من الشّعور بالله، ويَنقطع ما بَينه وبَين مُجتمعه من أواصر الودّ والرّحمة، وذلكَ كلّه يحول بَينه وبَين أَنْ يَبلغ المَثل الأَعلىٰ في الإسلاَم.

قَالَ عليه السلام:

«قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ[١]، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ[٢]، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغُلِهِ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ[٣]، وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ، وَقَدَمِهِ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ. فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَٱسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ،

---

(١) المَهل: المُهلة والفُسحة.

(٢) إرهَاق الأَجَل: أَنْ يُقرِّب الأجل، فلاَ يَبقىٰ للمُفرط فُرصة يَتدارك بها مَا فَاته من العَمل.

(٣) الكَظَم ـ بالتّحريك ـ الحَلق، أو مَخرج النّفس، والأَخذ بالكَظَم كنَاية عن التّضييق عندَ قُرب الأَجل أو حلُوله.

وَلاَ عَمىً، قَدْ سَمَّىٰ آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ ﴿ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾(١) وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّىٰ أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ ـ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ ـ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْـهَىٰ إِلَـيْكُمْ ـ عَـلَىٰ لِسَانِهِ ـ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْـمَالِ، وَمَكَـارِهَهُ، وَنَـوَاهِـيَهُ، وَأَوَامِـرَهُ، وَأَلْـقَىٰ إِلَـيْكُمُ الْـمَعْذِرَةَ، وَاتَّـخَذَ عَـلَيْكُمُ الْـحُجَّةَ، وَقَـدَّمَ إِلَـيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»(٢).

ومَا نشك في أَنَّ هؤلاء الَّذِين كَان الإِمَامعليه السلام يَدعوهم إِلىٰ العَمل للآخرة قَبل فوَات الفُرصة كانوا قَوماً يُقيمون الصّلاة لأَوقاتها، ويَصومون رمضَان، ويَحجّون البَيت، فمَاذا كان يُريد الإِمَام منهُم غير هَذا؟.

نَعم، إِنّ هؤلاء كانوا يأتون كلّ هذا وزيَادة، وقد يَحسب السّطحيون أنَّ هـذا وحدَه كافٍ لجعل الإِنسَان فَاضلاً، ولكنّه في مِيزان الإِمَام أَضعَف الإِيمَان.

فهَؤلاء الَّذِين كان يتوجّه إِلَيهم الإِمَام بكلاَمه هذا كانوا يُـصلّون ويَـصُومون، ويَحجّون البَيت.

ولَكن القَبلية كَانت تَعصف بهم عَصفاً شَديداً.

وَلكن الأَحقَاد والمطَامع كَانت تَدفعهم إِلىٰ التَّناكر فيمَا بَينهُم، وكَانت تِسلّ من أروَاحهم كلّ خُلق إِنساني حَميد.

---

(١) ٱلنَّحلِ: ٨٩.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٨٦) «لَم يَخلُقكُمْ عَبثاً».

ولَكن سيَاسة مُعَاوية كانت تَستهويهم، فتَحملهم عَلىٰ الخيَانة وتَحملهم عَلىٰ الرّضا بالذّلة، وتَحملهم عَلىٰ أَنْ يَصيروا عَبيداً.

ولكنّهم كانوا فرديِّين لاَ يأبهُون للمُجتمع ولاَ يَحسبون لآلاَمه حسَاباً.

كَانوا غُرباء عن هذه الخلاَئق. ولذَلك لم يَرضَ عنهُم الإِمَام، ولذَلك آستنَارهم إلىٰ العَمل للآخرَة قَبل فوَات الفُرصة.

ولَم يكُن هذا العَمل الَّذي أرَاده منهُم صلاَة ولا صَوماً ولاَ حجّاً. فتِلك أُمور كانوا يَأتون بها، ولاَ يَقعدون عنها.

لَقد كان العَمل الَّذي أرَاده هو الفَضيلة، هو أنْ يكون كلّ منهم خلَّية إجتمَاعيَّة حيّة، تكدح في سبيل خير المَجموع، هو أَنْ يكُونوا أحراراً فلاَ تَستعبدهم الشّهوات، فتَحملهم عَلىٰ الإنحرَاف عن الحقّ، ولاَ تَستعبدهم الحيَاة فتَحملهم عَلىٰ الرّضا بها مُسفَّة حَقيرة عاريَة من كلّ نبالة رَفيعة وهدف عَظيم. كان يُريدهم أَنْ يحطموا أصنَام اللّحم الَّتي يَعبدونها، أعني سَاداتهم ورؤسائهم ومن لهُ عليهم سُلطان ليخلصوا العبَادة لله وحده.

قَالَ عليه السلام:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ، وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَىٰ، وَيَسْخَطُ، أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا آفْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ

عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ[١] بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ[٢] حَاجَةً إِلَىٰ النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَىٰ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اَعْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَىٰ شِبْهِهِ، إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَىٰ غَيْرِهَا، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ»[٣].

وقَالَ عليه السلام:

«فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ. فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ، وَلاَ تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ[٤]، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ، وَلاَ تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الإِدْهَانُ عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ[٥]. عِبَادَ اللهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ

(١) يَعُرَّ: يُعيب ويُلطِّخ، أي أنَّ من أعظَم الجرائم أنْ يُعيب الإنسان غيره بأمر قد فَعله هو.

(٢) يَسْتَنجِح: أي يَطلب نجَاح حَاجته من النّاس بالإبتداع في الدِّين.

(٣) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (١٥٣) «سَيِّئَاتٌ لاَ تَنْفَعُ مَعَهَا الحَسَنَات».

(٤) أي لاَ تُسامحوا أنفسكُم في تَرك المَعصية، ولاَ تَستهينوا لصغَائر الذّنوب، لأَنَّ ذَلكَ يَصير عادَة لكُم فتقعوا فيما وَقع فيه الظَّلمة من الإستهانة بالجَرائم.

(٥) المُدَاهنة: النِّفاق، وإظهار خلاَف ما في البَاطن. والإدهَان مِثله.

أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ، وَالْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ[١]، وَالْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ[٢]، «وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»[٣]، وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ، وَغُرُورِهِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ «يَسِيرَ الرِّيَاءِ[٤] شِرْكٌ»[٥]، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَىٰ مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ[٦]، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ[٧]. جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَىٰ شَفَا مَنْجَاةٍ، وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَىٰ شَرَفِ مَهْوَاةٍ، وَمَهَانَةٍ. وَلَا تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»[٨].

---

(١) المَغْبُون: المَخْدُوع.

(٢) المَغْبُوط: الَّذي نَال نِعمة أستحق بها أنْ تَتطلع النّفوس إليه، وأنْ تَرغب في نَيل مِثل نِعمته.

(٣) أُنظر، أمَالي الشّيخ الصّدوق: ٢٩٢، المُصنَّف للصنْعاني: ١١ / ١١٦، المُعجم الأوسط: ٨ / ٣١، المُعجم الكَبير: ٣ / ١٧٥، المَبسوط للسَّرخسي: ١١ / ٢٤٢، تَكملة حاشية ردّ المحتَار: ١ / ٢٤، الكَافي: ٨ / ٧٤، الخصَال: ٦٢١، شَرح مِئة كَلمَة للبَحراني: ١٧٢.

(٤) الرِّيَاء: أنْ تَعمل ليرَاك النّاس، وقَلبك غَير رَاغب في العَمل.

(٥) أُنظر، نَيل الأوطار: ٨ / ٣٥، عيُون الحِكم والموَاعظ: ٥٥٢، تُحف العُقول: ١٥١، سُنن أبن مَاجه: ٢ / ١٣٢١ ح ٣٩٩١، تُحفة الأحوذي: ٥ / ١١٤، المُعجم الصَّغير: ٢ / ٤٥، المُعجم الأوسط: ٧ / ١٤٥، كَنزُ العمَّال: ٣ / ٤٨٢ ح ٧٤٧٩، تَهذِيب الكمَال: ٢٢ / ٩٢٩، عُيون الحِكم والموَاعظ: ٥٥٢.

(٦) مَنْسَاة للإيْمَان: مُوجبة لِنسيَان الإيمَان، والغَفلة عنهُ.

(٧) مَحْضَرَة للشَّيطَان: مكَان لحضُوره.

(٨) أُنظر، الفِردوس بمَأثور الخِطاب: ٢ / ١٥٩ ح ٢٨١٢، مُسند أبي يَعلىٰ: ٦ / ٣٣٠ ح ٣٦٥٦،

«وَلاَ تبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ[١]» [٢]، وَٱعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ. فَأَكْذِبُوا الأَمَلَ فَإِنَّهُ غرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ» [٣].

في كلّ هذا لاَ يَدعو الإمَام إِلىٰ تَرك الدُّنيا والإنعتَاق من أَسرها، وإِنَّما يَدعو إِلىٰ تنَاولها برِفق، ويَدعو النّاس إِلىٰ أَنْ يكُونوا كَائنَات ساميَة، تَجمع الدُّنيا إِلىٰ الآخرة، فلاَ تُمعن في تِلك إِمعاناً يُلهيها عن الإِستعداد لِهَذه، ولاَ تغرق في هذه إِلىٰ حدّ يعطل فيها شخصيَة الإِنسَان.

* * *

رَاجع النّصوص التَّالية: رَقم (٢٨)[٤] و(٦٢ و ٨١ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٨ و ٩٢ و ١٥١ و ١٥٥ و ١٧١ و ١٨١ و ١٨٨ و ١٩٦ و ٢٠١ و ٢١٢ و ٢٢٨ و ٢٣٥)[٥].

↔ المُصنَّف لاِبن أَبي شَيبة: ٥ / ٣٣٠ح ٢٦٥٩٤، سُنن أبن مَاجه: ٢ / ١٤٠٨ح ٤٢١٠، سُنن أبي داود: ٤ / ٢٧٦ح ٤٩٠٣، مِصباح الزّجاجة: ٤ / ٢٣٨، تَفسِير القُرطبي: ٥ / ٢٥١.

(١) فإِنّها الحَالقَة: فإِنّ المُباغضَة الحَالقَة، أي المَاحية لكلّ خَير وبَركَة.

(٢) أُنظر، سُنن التّرمذي: ٤ / ٦٦٤ح ٢٥١٠، مُسند الطَّيَالسي: ١ / ٢٧ح ١٩٣، الفُردوس بمأثور الخطّاب: ٢ / ٢٢٠ح ٣٠٧١، مُسند أَبي يَعلىٰ: ٢ / ٣٢ح ٦٦٩، مُسند أحمَد: ١ / ١٦٤، مُوطأ مَالك: ٢ / ٩٠٤ح ١٦٠٨، سُنن البَيهقيّ الكُبرىٰ: ١٠ / ٢٣٢، مَجمَع الزّوائد: ٨ / ٣٠.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (٨٦) «اَلحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ».

(٤) «إِذَا كُنتَ فِي إِدْبَارٍ، وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَىٰ!».

(٥) تَقدّم ذَلكَ.

نَماذِجُ مِنْ وَعْظِ الإِمَامِ عليه السلام بتقلّبِ الدُّنيَا مَعْنىٰ الزُّهد وَعَناصره

والقِسم الَّذي يَعظ فيهِ الإمَام عليه السلام بتَقلّب الدُّنيا وعَدم قرَارها عَلىٰ حَال هو أشدّ الأَلوَان الوعظِيَة، فيما يَبدو، حلُوكةً وتَشاؤماً، إنَّه يَصف فيه الدُّنيا بالتَّقلّب، والمَكر، والخدَاع. ويُشبهها بالحيّة السّامّة، ويَدعو إلىٰ الزُّهد فيها، والإنقطَاع عَنها.

ويُلوّح، في بادي النّظر، أنَّ الإمَام في هذا القِسم يدعو إلىٰ تَرك العَمل للحيَاة، ويَدعو إلىٰ الإستراحة إلىٰ خيَالات المَوت والقَبر، فيَشل في الإنسَان الرّغبة في الحيَاة والإقبال عليها، ويَقعد به عن الجِهاد من أجلها، ويُحيله إلىٰ إنسَان مُتذائب وَاهن القوىٰ.

ولَكن قليلاً من التّأمل والإمعان كفِيل بأنْ يُبين خَطأ هذَا الرّأي.

فَقد سبق منّا أنْ تَعرفنا عَلىٰ رَأيه في الدُّنيا والعَمل لها، فرَأيناه يُحبّذ العَمل للدُّنيَا والإقبال عَليها، والتّمتع بطيّباتها، شَريطة ألاَّ يَقعد بِه ذَلكَ عن العَمل لآخرَته والإستعداد لها، وشَريطة ألاَّ يَنقلب به العَمل للدُّنيَا إلىٰ وَحش يُصيب مُجتمعه بالضَّرر في سَبيل أنْ يَزيد ثرَائه، ورَأيناه لاَ يُشجع الإنقطاع عن الدُّنيا والإستغراق في العَمل للآخرة وحدَها، ويَعتبر ذَلكَ أنَانية لاَ يَجمل بالرّجل

الكَامل أَنْ يُمارسها، يَتبيَّن ذَلكَ كلّه في مَوقفه من العلاءَ بن زيَاد وأخيه عَاصم.

ورَأينَاه يَجمل رَأيه في الدُّنيا والآخرَة في هَذه الفِقرات:

«لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ(١)، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيما يَحِلُّ وَيَجْمُلُ. وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»(٢).

هَذا هو مَوقف الإِمَام من الدُّنيا والآخرَة، فهُو يُشجع عَلىٰ العَمل للدُّنيَا في غير إِسرَاف، ويَأمر بالعَمل للآخرة ولَكن في غِير إِعنَات. وهذا هو المَوقف الطّبيعي المَعقُول من الدُّنيا والآخرَة، فلاَ هو يَقعد بالمُجتمع عن تَقدّمه، ولاَ هو يَحيل الإِنسَان إِلىٰ آلة حَاسبة فحَسب.

وَلَكن هذا المَوقف لاَ يُلائم ما يُقال عن هذا اللّون من ألوَان وعظَه عليه السلام من أنّه يَدعو فيه إِلىٰ الإِستراحة إِلىٰ خيَالاَت المَوت والقَبر.

وإِذَا شِئنَا أَنْ نَلتمس حلاً صَحيحاً لهَذا التّنافي الّذي يلوح بَين رأي الإِمَام في الدُّنيا وبَين ما يَبدو من هذا اللّون الوَعظي وجدنَا مفتَاح هذا الحلّ في وصفه للزُّهد وتَعريفه لهُ.

فالإِمَام عليه السلام يَعرض في هذا اللّون الوَعظي جُملة من الحقَائق الّتي لاَ مُراء فِيها بأُسلُوب وعظي أعني مُثير للرّهبة في النّفس.

---

(١) يَرُمُّ مَعَاشَهُ: يُصْلح معَاشه.

(٢) نَهج البلاَغة، بَاب المُختار من حِكم أَمِير المُؤمِنين عليه السلام، رَقم النّص: (٣٨٨).

فهُو يُقرّر في كلاَمه أَنَّ حيَاتنا بقَدر ما تَبدو رَتيبة هي مُتقلبة في عُنف، وبَقدر مَا تَبدو مُسالمة هي تَتربص في كتمَان، وبقَدر ما تبدو جَميلة عَظيمة فإنّها تَنطوي عَلىٰ حقَارات وقبَائح كَثيرة، ثُمّ يكون ختَامها المَوت، وهو حَتم عَلينا سوَاء أرضينَاه أم كَرهناه.

وإذن فهَؤلاء الَّذِين يَحسبونها مُسالمة وَادعة دَائماً، ويَعتبرونها جَميلة عَظيمة دَائماً، ويَعتبرونها حُلوة سَائغة دَائماً، مَخدوعون إذ لاَ واقع لما يَحسبون، فهي في واقعها خَليط من السّعادة والشّقاء، والقَلق والإطمئنان، والشّدّة واللّين.

والإمَام عليه السلام يَبتغي في هذا اللَّون الوعظي أَنْ يُعرّفهم بوَاقعها ليَزهدوا فيها.

والزُّهد الَّذي يُريده الإمَام غير الزُّهد في وعي العامّة من النّاس.

فالزُّهد في وعي هؤلاء لاَ يعدو أَنْ يكون مَوقفاً سَلبياً من الحيَاة، يشلّ في الإنسَان إمكانات الخَلق والإبداع عنده، ويُحيله إلىٰ إنسَان مُتذائب واهن. وكَلمَة (زَاهد) في وعي هؤلاء تَستدعي صُورة كَائن أقل مَا يُقال فيه أَنّه عَالة عَلىٰ المُجتَمع.

أمّا الزُّهد عند الإمَام فهو تَعبير آخر عن رَأيه السّابق في الدُّنيا والآخرة.

قَالَ عليه السلام في صفَة الزُّهد:

«أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ، وَالتَّوَرُّعُ[1] عِنْدَ الْمحَارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذٰلِكَ عَنْكُمْ[2] فَلاَ يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَلاَ تَنْسَوْا عِنْدَ

---

(١) الوَرَع: الكفّ عن الشّبهات خَوف الوقوع في المُحرمات، وأيضاً الكفّ عن المعَاصي مع القُدرة عليها وتَرك الشُّبهات.

(٢) فَإِنْ عَزَبَ ذَٰلِكَ عَنْكُمْ: أي بَعُد. أي فَإِنّ عَسر عَليكُم أَنْ تَقصروا آمالكُم، وتكُونوا في الزّهادة عَلىٰ الكَمال المَطلوب فلاَ يَفوتكُم التحلي بفضِيلة شُكر النّعم، والصّبر عند المُحرّمات.

النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ»[١].

فَقد رَأينا أَنَّ طُول الأَمل يُنسي الآخرة، ونسيان الآخرة يَدفع بالمَرء إِلىٰ اتّباع هوَاه، وعند ذَلكَ يعود الإِنسَان خطراً إِجتماعيّاً، لأَنَّ ذَلكَ يَنقلب به إِلىٰ حَيوان ذي غرَائز طَاغية، لاكَابح لها، تَطلب المَزيد من كلّ شيء.

فقصر الأَمل عبَارة عن وعي الإِنسَان لواقع حيَاته، وأَنَّ المَوت مُدركه الآنْ أو غداً. وهذا الوعي يُمسك يده عن الظّلم حين لاَ يستطيع أَنْ يصل إِلىٰ أغرَاضه إِلاَّ عن طريق الظّلم، ويَسل من نَفسه الشّره والمَطامع والأَحقاد.

والشُّكر عِند النّعم، وهو الرّكيزة الثّانية الَّتي يَقوم عَليها الزُّهد، عبَارة عن فِعل الخَير، وإِسداء المَعرُوف إِلىٰ النّاس، فلَيس المُراد من الشّكر هُنا الشُّكر باللّسان، لأَنَّ الشُّكر باللّسان لا يُقدّم ولاَ يُؤخر في رُقي المُجْتَمع وتَقدّمه. إنّ الشُّكر المُراد هُنا هو الشُّكر بالفِعل. فهذا الَّذي يَعرف الدُّنيا عَلىٰ واقعها زَاهد فيها ولذَلك فهو لاَ يُمسك يَده عن اصطناع المَعرُوف لأنّه يعي أَنَّ مَا يُنفقه في سُبل الخَير بَاقٍ له عند الله وعندَ النّاس. أمّا مَا أمسك يَده عليه فيَصير إِلىٰ غَيره ليَتمتع به.

والوَرع عند المَحَارم وهو الدّعامة الثّالثة من دعَائم الزُّهد نَتيجة طَبيعية لفَهم الدُّنيا عَلىٰ واقعها، فإِذا كانت الدُّنيا لاَ تَستقر عَلىٰ حَال، وكَانت خَاتمتها المَوت، فلمَاذا نَتهالك عَليها عَلىٰ نحو يَذهب بما فيها من بَهجة، فتغدُ و)؟(سلسلَة من القَلق والتّربص والخدَاع والآلام؟ لمَاذا لاَ نأخذ منها بقَدر، مُترقبين نهَايتها سَعيدة كَانت أو شَقية، فلئن كانت سَعيدة فستَنقضي ولمَاذا لاَ نَقضِيها عَلىٰ نحو

---

(١) أنظر، نَهج البلاَغة: الخُطبَة (٨١) «التَّوَرُّعُ عِندَ المحَارِمِ».

أفضل، ولئن كانت شَقية فستَنقضي أيضاً، ولمَاذا نزيدها شقَاء وتعَاسة؟.. حَسْبنا مَا نَلقىٰ مِنها.

هَذا هُو الزُّهد.

فَهل تَجد فيه تَنفيراً من الدُّنيا، وإقصاء عنها؟ لاَ، إنَّه المَوقف الصّحيح من الدُّنيا بَين موقف المُتهالكين عَليها عَلىٰ نحو جنُوني وبين مَوقف المُباعدين لها عَلىٰ نَحو مَرضي.

وقَالَعليه السلام:

«الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَاتَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَـٰكُمْ﴾[1]، وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَىٰ الْمَاضِي، وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ»[2].

فأُولئك الَّذِين يَملك عَليهم ألبَابهم فوات شيء كانوا يَترقبون الحصُول عليه، لاَ يُؤمن منهم أنْ يُقارفوا الإثم في سَبيل الحصول عليه، وهؤلاء الَّذِين تَمتلىء أنفسهم بتصورات هذا الفَائت لاَ يعود لديهم من فراغ النّفس وصفَاء الضّمير ما يُتيح لهم التّسامي إلىٰ دُنيا أرحَب وأنبل وأحفل بمِثل الخَير.

وهَؤلاء الَّذِين يأسون عَلىٰ ما فَاتهم، ويَفرحون بما أتَاهم لاَ يَستطيعون أنْ يَشكروا الله عَلىٰ نِعمته بأفعَالهم، فليسُوا، والحَال هذه، ذوي فَائدة للمُجتمع.

إنّ الزّاهدين هم الَّذِين يَنظرون إلىٰ الأُمور نَظرة واقعية، فلاَ يَملك عَليهم

(١) الحَديد: ٢٣.

(٢) نَهج البَلاَغة ـ بَاب المُختار من حِكم أمِير المُؤمِنينعليه السلام ـ رَقم النَص: (٤٣٢).

ألبابهم فوات ما فاتهم، ولاَ يعمي بصائرهم عن واقع حياتهم فرحهم بما أُوتوا.

هذا هو الزُّهد الَّذي دعا إِلَيه الإمَام أصحَابه وأرَادهم عَليه، فهل فيه تَنفير عن الدُّنيا؟ أَللُّهمَّ، وإِنَّما هو كمَا قُلنا المَوقف الطّبيعي بين مَوقف المُتهالكين عَلىٰ الدُّنيا عَلىٰ نحو جنُوني، والمُباعدين لها عَلىٰ نَحو مَرَضي.

هَذا هو الزُّهد الَّذي يَدعو إِلَيه الإِمَام عليه السلام في هذا القِسم الوعظي مـن كـلاَمه، وهو مَوقف يُوازن بين حَاجات الإِنسَان الجَسميّة والرّوحيّة، وهو مَوقف يَجعل من الإِنسَان كَائناً إِجتمَاعياً ذَا جَدوىٰ لمُجتمعه، يَنفعه ويُغنيه. ويَجب أَنْ نَعي أَنَّ المُتهالك عَلىٰ الدُّنيا، الفَاقد للحسّ الأَخـلاَقي، المُـجرد مـن الإِنسـانيَّة، غَـير الشّاكر، وبعبَارة وجِيزة غير الزّاهد، هو خَطر عَلىٰ المُجْتَمع وعَالة عَليه أكثَر من خَطر ذَلكَ الزّاهد الَّذي فَهم الزُّهد فهماً خَاطئاً فاَتّخذ من الدُّنيا مَوقفاً سَلبياً مَرَضياً.

لأَنَّ غَايَة صَنيع هذا أنَّه لاَ يَعمل، وأنَّه يَعيش عَالة عَلىٰ أهلَه وذَويه، أمّا ذَاك فَعمله أنَّه يَمتص دمَاء الفُقرَاء بنشَاطه الَّذي لاَ يعُود عَلىٰ هَؤلاء الفُقرَاء في صُورة خَدمات إِجتمَاعيَّة.

ولاَ نُريد أَنْ نُنكر أَنَّ هذا اللَّون من وعظ الإِمَام يظهر الدُّنيا في صُورة كـالحَة مُنفرة إِلىٰ حدٍّ بَعيد، ولكن هذا لاَ يدل عَلىٰ رأي الإِمَام في الدُّنيا بقَدر مَا يدل عَلىٰ أَنَّ مُعاصريه الَّذِين توجّه إِلَيهم بهذا الخطَاب كانوا مُغرقين في الدُّنيا إِغراقاً خَطراً دَفعهم إِلىٰ الخيَانة: خيَانة مُجتمعهُم وكيَانهم السّياسي، ودَفعهم إِلىٰ التّناحر فيمَا بَينهُم، ودَفعهم إِلىٰ عبَادة أصنَام اللّحم: رُؤساء القَبَائل والزّعماء، فإِنسَان يُمارس هذَا اللَّون من الحيَاة لاَ يُمكن إِنتشاله من وَاقعه لَحظة يَتملىٰ فيها مَـصيره بـعَين بصِيرة إِلاَّ بهذا اللَّون من التّعبير والتّصوير، وقَديماً قَالَ عُلماء البَلاَغة: «أنّ المُخاطب

كلّما ٱزداد إِغراقاً في الإِنكَار حَسن من المُتكلّم أَنْ يَمعن في تَأكيد مَا يَقُول».

وهؤلاء الَّذِين كان الإِمَام يتوجّه بخطابه إِلَيهم كانوا عَلىٰ هذا الحَال أو قريب منهُ، فقد بلغ من تَزييفهم لواقع حياتهم أَنْ خانوا مُجتمعهم فتمالأَوا مع مُعَاوية وبَاعوه ضمَائرهم بالمَال، وأشعلوا في هذا المُجْتَمع روح القَبلية الَّتي دفعت بهيئاته إِلىٰ أَنْ يقف كلّ منها موقفاً تنَاحريّاً ذا عواقب وخِيمة.

وإِذن فَليس في هذا اللَّون الوعظي تَشويه للحيَاة الدُّنيا، وإِبعاد عَنها، وذَمّ لها، إِذَا تنَاولها الإِنسَان كمَا يَنبغي أَنْ يَتناولها، فَلم يَسرف فيها إِسرافاً يَحمله عَلىٰ الظّلم، ويَنقلب به إِلىٰ حيوَان خَطر.

وإِنَّما هو كَبقية الأَلوَان الَّتي قدّمنا فيما سَبق، ينصح فيه بالنَّظر إِلىٰ الدُّنيا كمَا هي لاكَمَا تَصورها لنَا أوهَامنا وأحلاَمنا، فَإِذا ما تمّ لنا فَهمها دعانا إِلىٰ العَمل فيها عَلىٰ هدىٰ هذا الفَهم. وقد رأينا أَنَّ موقفه من الحيَاة هو المَوقف الصّحيح الَّذي يدعو إِلَيه الإِسلاَم، أمّا الوعاظ الَّذِين أخذوا كلاَمه عَلىٰ ظاهره، وأمّا نَاشئة الجِيل الَّتي ٱنفعلت بإِيحاءات غَربية، فهم جَميعاً مُخطئون في فهمهم للقِسم الوعظي من نَهْج البَلاَغة، لأَنَّهم لم يلقوا بالاً إِلىٰ المَثل الأَعلىٰ في الإِسلاَم الَّذي أرَاد الإِمَام أصحابه عَلىٰ الصّعود إِلَيه، ولم يَلقوا بالاً إِلىٰ الوَاقع الإِجتماعيّ الَّذي حَمل الإِمَام عَلىٰ أَنْ يَفيض في مواعظه هذه الإِفَاضة ويَعرض فيها هذه الأَلوَان. ولم يَعرفوا النَّظرَة الواقعيَة الإِسلاميَّة إِلىٰ الحيَاة الدُّنيا، النَّظرَة الَّتي تُعبّر عن نَظرة الإِمَام إِلىٰ الحيَاة والإِنسَان.

* * *

وفي خَاتمة هذه الدّرَاسة نُقدّم بَعض نمَاذج هذا اللَّون الوعظي الَّذي أدرنَا

حوله هذا الحديث.

قالَ عليه السلام:

«نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَىٰ مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَبْدَانِ.

عِبَادَ اللهِ، أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمِثْلُهَا كَسَفْرٍ(١) سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً(٢) فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ. وَكَمْ عَسَىٰ الْمُجْرِي إِلَىٰ الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَهَا(٣)! وَمَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ، وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يُفَارِقَهَا رَغْماً! فَلاَ تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا، وَفَخْرِهَا، وَلاَ تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا، وَنَعِيمِهَا، وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا، وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا، وَفَخْرَهَا إِلَىٰ انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ

---

(١) السّفر ـ بفتح، فسكون ـ جماعة المسافرين، أي أنّ الإنسان في هذه الحياة كالمسافر في مسافة الطّريق، فإنّه يصل إلىٰ نهاية طريقه، والإنسان لا بُدّ واصل إلىٰ نهاية حياته.

(٢) أمّوا: قصدوا.

(٣) المجري: الّذي يجري فرسه إلىٰ غاية معلومة، فإنّه مهما طال جريه لا بُدّ واصل في النّهاية إلىٰ غايته.

زِينَتَهَا، وَنَعِيمَهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا، وَبُؤْسَهَا إِلَىٰ نَفَادٍ[١]، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَىٰ انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَىٰ فَنَاءٍ. أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ[٢]، وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ، وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَىٰ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ، وَإِلَىٰ الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ! أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ، وَيُمْسُونَ عَلَىٰ أَحْوَالٍ شَتَّىٰ: فَمَيِّتٌ يُبْكَىٰ، وَآخَرُ يُعَزَّىٰ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلَىً، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ[٣]، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَعَلَىٰ أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي! أَلاَ فَاذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الأُمْنِيَاتِ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَاسْتَعِينُوا اللهَ عَلَىٰ أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لاَ يُحْصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ، وَإِحْسَانِهِ»[٤].

وقَالَ عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ

---

(١) نَفَاد: فَنَاء.

(٢) مُزْدَجَرٌ: مكَان للإنزجَار والإرتدَاع.

(٣) مِن «جَاد بنَفسه» إذَا قَارب أَنْ يَقضي نَحبه، كأنّه يَسخو بها ويُسلمها إلىٰ خَالقها.

(٤) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطْبَة (٩٩) «وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَىٰ انْتِهَاءٍ».

خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتحلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا[1]، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ[2] زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ[3]، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ[4]. لاَ تَعْدُو إِذَا تَنَاهَتْ إِلَىٰ أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَالرِّضَاءِ بِهَا ـ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[5] تَذْرُوهُ الرِّيَـٰحُ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[6]. لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً[7]، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً[8]، وَلَمْ تَطُلَّهُ[9] فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ[10]، إِلَّا هَتَنَتْ

(١) حَبْرَتُهَا ـ بالفتح ـ السّرور والنّعمة.

(٢) حَائِلَةٌ: مُتغيرة.

(٣) نَافِذَة: فَانِيَة، بَائِدَة: هَالكَة.

(٤) غَوَّالَة: مُهلكَة.

(٥) الهَشِيم: النَّبت اليَابس المُتكسّر.

(٦) الكَهف: ٤٥.

(٧) العَبْرَة: الدَّمعَة قَبل أَنْ تفيض.

(٨) كنّىٰ بالبَطن والظّهر عن الإقبَال والإدبَار.

(٩) الطَّل: المَطَر الضّعِيف.

(١٠) الدِّيمَة: مَطر يَدوم في سكُون، لاَ بَرق ولاَ رَعد معهُ. والرّخَاء: السّعَة.

عَلَيْهِ مُزْنَةُ[١] بَلاَءٍ! وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَـهُ مُـتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَـانِبٌ مِـنْهَا آعْـذَوْذَبَ، وَآحْلَوْلَىٰ، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَىٰ[٢]! لاَ يَنَالُ آمْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً[٣]، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً[٤]! وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْـنٍ، إِلَّا أَصْـبَحَ عَـلَىٰ قَوَادِمِ[٥] خَوْفٍ! غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَـانِيَةٌ فَـانٍ مَـنْ عَـلَيْهَا، لاَ خَـيْرَ فِـي شَـيْءٍ مِـنْ أَزْوَادِهَـا إِلَّا التَّقْوَىٰ»[٦].

* * *

رَاجع النّصوص التّالية: رَقم(٤٥ و ٥٢ و ٦١ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ و ٩٧ و ١٠١ و ١٠٩ و ١١١ و ١١٢ و ١٣١ و ١٤٣ و ١٨٩ و ١٩٤ و ٢٤٤) وكتَابه إلىٰ الحَارث الهَمداني ـ بَاب الكُـتب: رَ قـم(٦٩) وفـي بَـاب المُـختار مـن الحِكـم النّـص رَ قم: (١١٩) ورَ قم: (١٩١).

وَصف الزُّهد ومَعنَاه: رَقم النّص (٧٩) وفي بَاب المُختار من الحِكـم النّـص رَ قم: (٤٣٩).

---

(١) المُزْنَة: السّحابَة البَيضَاء. وهَتَنت: أنصبت وتَدفقَت.

(٢) أوبىٰ: صَار كَثِير الوبَاء.

(٣) الغَضَارَة: النّعمَة والسّعَة.

(٤) أُلحقَت به التّعب.

(٥) القَوَادِم: جَمع قَادِمة، وهي الوَاحدة من أربَع أو عَشر ريشَات في مُقدّم جنَاح الطّائر.

(٦) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة (١١١) «غرّارَةٌ ضَرّارَةٌ».

الفهارس الفنية العامة

١ ـ فَهْرَس الآيَات

٢ ـ فَهْرَس المَصَادر

فهرس الآيات

الآيـة	رقمها	الصفحـة
البقرة		
﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ﴾	١٧٧	٤١
﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾	٢ ـ ٥	٤١
آل عمران		
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾	٧٧	١٠٢
﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾	١٣٣	٤١
﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾	٢٦	٣٢٤
المائدة		
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟﴾	٨	٤١
الأنعام		
﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾	٥٦	٢٤٣

الآيـة	رقمها	الصّفحة
﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾	٩٥	٩١
﴿وَكَانُواْ قَوْمَام بُورًا﴾	١٨	٣٣٨
الأعراف		
﴿ٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾	١٢٨	٢٤٩
الحِجْر		
﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٣٩	١٥٧
النّحْل		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ﴾	٩٠	٤١
﴿ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾	٨٩	٣٤٣
الإسْرَاء		
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾	٨٥	٢١٠
الكَهف		
﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ﴾	٤٥	٣٥٨

الآية	رقمها	الصفحة
طه		
﴿ٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾	١٣٢	٢٤٩
الحج		
﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾	٢٥	١٨٤
القصص		
﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ﴾	٨٣	٢٨٧
﴿ٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾	٨٣	٢٤٩
لقمان		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾	٣٤	٢٢٧
سبأ		
﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾	١٣	٣٨
ص		
﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾	٧١ ـ ٧٤	١٥٧

الآية	رقمها	الصفحة
الحجرات		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾	١٣	٤٣
﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾	٦	٢٨٠
المعارج		
﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾	١	٣١١
السجدة		
﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾	١٨	٢٨٠
التكوير		
﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾	٢٦	٩١
الحديد		
﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ﴾	٢٣	٣٥٣
التحريم		
﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	٨	٣٢٤

الآيـة	رقمها	الصفحـة
الصف		
﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	٣	١٨٠
النجم		
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾	٤	٥٩

فهرس المصادر

١. شرح نهج البلاغة، للشّيخ مُحمّد عبده، طبعة دار الكتاب العربيّ ١٤٠٦ هـ، طبعة الفجّالة الجديدة ـ مصر ١٤٠٣ هـ.

٢. شرح نهج البلاغة؛ للخُوئيّ، طبعة دار الفكر بيرُوت ١٤٠٦ هـ.

٣. شرح نهج البلاغة، لِابن أبِي الحدِيد المُعتزليّ (ت ٦٥٦ هق)، تحقّيق: مُحمّد أبُو الفضل، طبعة ـ بيرُوت ١٤٠٩ هـ.

٤. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله (ت: ٦٥٥ هـ). طبعة بيرُوت (١٣٧٤ هـ). وبتحقّيق: مُحمّد أبُو الفضل إبراهيم. طبعة دار إحياء الكُتب العربية ـ مصر.

٥. جواهر المطالب في مناقب الامام أبي الحسنين عليّ بن أبي طالب، لابي البركات مُحمّد الباعُوني الشّافعي (النُّسخة مُصورة في المكتبة الرّضويَّة بخراسان).

٦. جواهر المطالب في مناقب الامام عليّ بن أبي طالبعليه السلام، لشمس الدّين أبي البركات أحمد بن مُحمّد الدّمشقي الباعُوني المُتوفّىٰ سنة (٨٧١ هـ) تحقيق مُحمّد باقر المحمُودي، طبع مجمع إحياء الثّقافة الإسلاميَّة الطّبعة الأُولىٰ سنة (١٤١٥ هـ).

٧. مجمع البيان في تفسير القُرآن، لأبي عليّ الفضل بن الحسن الطّبرسيّ (ت ٥٤٨ هـ ق)، طبعة دار المعرفة ـ بيرُوت ١٤١٩ هـ، طبعة دار إحياء التُّراث العربي.

٨. روضة الواعظين، لمُحمّد بن الحسن بن عليّ الفتال النّيسابوري، (٥٠٨ هـ ق)، طبعة

بيروت ١٤٠٢هـ وطبع مؤسسة الأعلمي بيروت الطّبعة الأُولىٰ ١٤٠٦هـ

٩. مُستدرك الوسائل ومُستنبط المسائل، للشّيخ الميرزا حُسين النّوريّ، طبعة طهران ناصر خسرُو.

١٠. المُستدرك علىٰ الصّحيحين، لأبي عبدالله مُحمّد بن عبدالله الحاكم النّيسابُوري، دار الكُتب العلمية ـ بيرُوت، الطبعة الأُولىٰ ١٤١١هـ، طبْعة حيدر آباد.

١١. تفسير الثّعلبي (الكشف والبيان في التّفسير)، لأحمد بن مُحمّد بن إبراهيم النّيسابُوري، (ت ٤٣٧هـ)، مطبُوع الجُزء الأوّل علىٰ الحجر، و(مخطُوط) في مكتبة المرعشي النّجفي العامّة.

١٢. تفسير الجلالين، لجلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطي، طبعة القاهرة ١٣٦٤هـ.

١٣. تفسير الحبري، لأبي عبدالله، الحُسين بن الحكم بن مُسلم الحبري الكُوفي (ت ٢٦٨هـ)، توزيع رئاسة البحُوث العلمية والإفتاء والدّعوة الرّياض.

١٤. تفسير الخازن لعلاء الدّين الخازن الخطيب البغداديّ، (ت ٧٢٥هـ ق)، طبعة دار الفكر ـ بيرُوت ١٤٠٩هـ، وطبعة مصر ١٤١٥هـ دار الكُتب العربية الكُبرىٰ.

١٥. سُبل الهُدىٰ والرّشاد، لصّالح الشّامي. طبعة مصر.

١٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، للعلاّمة مُحمّد باقر بن مُحمّد تقيّ المجلسيّ (ت ١١١٠هـ ق)، تحقيق ونشر: دار إحياء التّراث، الطّبعة الأُولىٰ ـ بيروت ١٤١٢هـ وطبعة مؤسّسة الوفاء بيروت ١٤٠٠هـ، والطّبعة الرّابعة ـ بيروت ١٤٠٥هـ

١٧. سفينة البحار، المُسمّىٰ سفينة بحار الأنوار ومدينة الحُكم والآثار. عبّاس ابن مُحمّد رضا القُمي. طبعة النّجف سنة ١٣٥٥هـ.

١٨. العقد الفريد، أحمد بن مُحمّد بن عبد ربّه الأُندلسي (ت ٣٢٨هـ). دار الكُتب العلمية. بيرُوت: لُبنان. وبتحقّيق أحمد أمين وجماعة، طبعة القاهرة. وتحقّيق: مُحمّد سعيد العريان.

١٩. تأريخ اليعقُوبيّ، أحمد بن أبي يعقُوب بن جعفر العبّاسي المعرُوف باليعقُوبيّ، طبعة النَّجف الأشرف ١٣٥٤ هـ.

٢٠. تأريخ اليعقُوبي، لِابن واضح. طبعة دار صادِر بيرُوت. وأيضاً النَّجف.

٢١. نيلُ الاوطار للشّوكانيّ.

٢٢. حلية الأوليّاء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبدالله. أبُو نعيم الإصبهاني (المُتوفّى ٤٣٠ هـ).

٢٣. التّرغيب والتّرهيب. عبدالعظيم بن عبدالقوّي المُنذري (ت ٦٥٦ هـ). تحقّيق: مُصطفىٰ عمارة. بيرُوت (١٩٦٨ م).

٢٤. مُسند أحمد، لُمحمَّد بن حنبل الشّيبانيّ (ت ٢٤١ هـق)، تحقّيق: عبد الله مُحمَّد الدّرويش، طبعة دار الفكر، الطبعة الثّانية ـ بيرُوت ١٤١٤ هـ، طبعة جامعة أُم القُرىٰ السّعودية، طبعة دار العلم ١٤٠٣هـ.

٢٥. مُسند ابن ماجه، لُمحمَّد بن يزيد القزوينيّ (ت ٢٧٥ هـ ق)، تحقّيق: فُؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر، طبعة ـ بيرُوت ١٣٧١ هـ، دار إحياء التُّراث، بيرُوت، الطبعة الأُولىٰ ١٣٩٥ هـ.

٢٦. مُسند الطّيالسيّ، لسُليمان بن داود الطّيالسيّ (ت ٢٠٤ هـ ق)، طبعة دار صادر ـ بيرُوت ١٤٠٢ هـ.

٢٧. مُسند الإمام الرّضا عليه‌السلام، المنسُوب إلىٰ الإمام الرّضا، مُؤسّسة الإمام المهدي (عجل الله تعالىٰ فرجه) ـ قُم، الطّبعة الأُولىٰ ١٤٠٨ هـ

٢٨. مُسند الإمام زيد بن عليّ زين العابدين، جمع عليّ بن سالم الصّنعانيّ، طبعة دار الصّحابة ١٤١٢هـ. طهران دار الكُتب الإسلاميّة، الطّبعة الثّانية.

٢٩. المُعجم الأوسط، أبُو القاسم سُليمان بن أحمد الطّبري (٣٦٠ هـ). مكتبة المعارف ـ الرّياض. الطبعة الأُولىٰ (١٤٠٧ هـ). قام بإخراجه: إبراهيم مُظفر وآخرُون. تحت إشراف: مجمع

اللُّغة العربية ـ مصر.

٣٠. المُعجم الكبير، لأبي القاسم سُليمان بن أحمد اللَّخمي الطَّبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقِّيق: حمدي عبد المجيد السّلفي، دار إحياء التُّراث العربي، بيرُوت الطبعة الثَّانية ١٤٠٤ هـ.

٣١. المُعجم الأوسط، لأبي القاسم سُليمان ابن أحمد بن أيُوب بن مُطير اللَّخمي الشّامي الطَّبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقِّيق: طارق بن عُوض الله، وعبد الحسن بن إبراهيم الحُسينيّ، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥ هـ.

٣٢. السِّيرة الحلبية (إنسان العُيُون في سيرة الأمين المأمُون)، عليّ بن بُرهان الشّافعي الحلبي، دار الفكر العربي بيرُوت ١٤٠٠ هـ.

٣٣. رجال الطّوسي، لأبي جعفر محمّد بن الحسن المعروف بالشيخ الطّوسي، تحقيق: جواد القيومي، مؤسّسة النّشر الإسلامي ـ قم، ١٤١٥ هـ.

٣٤. مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، لعليّ بن أبي بكر الهيثميّ (ت ٨٠٧ هـق)، تحقِّيق: عبدالله مُحمَّد درويش، طبعة دار الفكر، الطبعة الأُولىٰ ـ بيرُوت ١٤١٢ هـق)، مُصوَّرة عن طبْعة القُدسيّ ١٣٨٩ هـق، طبعة ـ القاهرة الثَّانية بدُون تأريخ.

٣٥. مُروج الذَّهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن عليّ بن الحُسين المسعُوديّ (ت ٣٤٦ هـق)، تحقِّيق: مُحمَّد مُحيّ الدّين عبد الحميد، مطبعة السّعادة، الطبعة الرّابعة ـ القاهرة ١٣٨٤ هـ.

٣٦. مُعجم البُلدان، لأبي عبدالله شهاب الدّين ياقُوت بن عبدالله الحمويّ الرّوميّ (ت٦٢٦ هـ)، طبعة دار إحياء التّراث العربيّ بيرُوت الطّبعة الأُولىٰ ١٣٩٩ هـق.

٣٧. تهذيب الكمال، يُوسُف بن عبدالرّحمن المزي (ت ٧٤٢ هـ). طبعة دار المأمُون دمشق، ومطبعة مُؤسَّسة الرِّسالة.

٣٨. مُعجم رجال الحديث، السَّيِّد أبُو القاسم بن عليّ أكبر الخُوئي، طبعة دار إحياء التُّراث

بيرُوت ١٤٠٦ هـ، ومنشُورات مدينة العلم، قُم، الطبعة الثّالثة ١٤٠٣ هـ.

٣٩. وقعة صفّين، لنصر بن مزاحم المنقريّ، تحقّيق وشرح عبدالسَّلام هارُون، القاهرة، الطبعة الثّانية ونشر مكتبة السَّيِّد المرعشيّ النّجفيّ قُم ١٣٨٢ هـ.

٤٠. تأريخ الطَّبريّ تأريخ الرُّسل والأُمم والمُلوك، لأبي جعفر مُحمَّد بن جرير الطَّبريّ (... ـ ٣١٠ هـ)، تحقّيق مُحمَّد أبُو الفضل إبراهيم دار المعارف القاهرة (١٩٦٠ م) طبعة أُوربا، طبعة الإستقامة مصر.

٤١. تأريخ المدينة المُنورة (أخبار المدينة)، لعُمر بن شيبة. تحقّيق: فهيم مُحمَّد شلتُون. دار التُّراث والدار الإسلاميَّة ١٩٩٠ م بيرُوت: لُبنان.

٤٢. الإستيعاب في معْرفة الأصحاب، يُوسُف بن عبدالله بن مُحمَّد القُرطبي أبُو عُمر المشهُور بابن عبد البر النّمري، (ت ٤٦٣ هـ). تحقّيق: عليّ مُحمَّد مُعوض دار الكُتب العلمية. بيرُوت ـ لُبنان. وتحقّيق عليّ البجاوي. طبعة القاهرة وبهامش الإصابة.

٤٣. أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيىٰ بن جابر البلاذريّ، (ت ٢٧٩ هق)، تحقّيق: كمال الحارثيّ، طبعة مكتبة الخانجيّ ـ مصر ١١٢٥ هـ، طبعة مكتبة المُثنّىٰ بغداد ١٣٩٦ هـ، وتحقّيق المحمُودي، مُؤسّسة الأعلمي بيرُوت.

٤٤. تأريخ الخُلفاء لعبدالرَّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ (ت ٩١١ هـ)، تحقّيق مُحيي الدِّين عبدالحميد، طبعةالقاهرة، ١٩٥٩ م) طبعة دار السّعادة مصر عام (١٤١٦ هـ).

٤٥. الإصابة في تمييز الصَّحابة، مُحمَّد بن حبيب البغْدادي. طبْعة مولاىٰ عبدالحفيظ. القاهرة (١٣٢٨ هـ).

٤٦. الإصابة في تمييز الصَّحابة، (بهامش الإستيعاب لإبن عبدالبر). أحمد ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ). دار العُلوم الحديثة. وطبعات أُخرىٰ لاحقة.

٤٧. الصَّواعق المحرقة، لِابن حجر الهيثمي (٩٧٤ هـ). تحقّيق: عبدالوهَّاب اللّطِيف. مكتبة القاهرة.

٤٨. تهذيب الأحكام، لأبي جعفر مُحمَّد بن الحسن الطُّوسي (المُتوفّىٰ ٤٦٠هـ)، تحقّيق الحُجَّة السَّيِّد حسن الخرسان، الطَّبعة الثَّالثة، بيرُوت دار الأضواء عام (١٤٠٦ هـ).

٤٩. تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرِّجال للشَّيخ الجليل النَّجاشي، للسَّيد مُحمَّد عليّ الأبطحي.

٥٠. الجداول المرضية في تأريخ الدّول الإسلاميَّة (تأريخ الدُّول الإسلاميَّة بالجداول المرضية) كما أثبت في آخره. أحمد زيني دحلان، مُفتي الشَّافعية. بمكَّة. طبعة مصر ١٣٠٦ هـ.

٥١. المُختصر في أخبار البشر، (تأريخ أبي الفداء)، لعماد الدّين إسماعيل أبُو الفداء، (ت ٧٣٢ هـ ق)، نشر مكتبة القُدسيّ، طبعة ـ القاهرة ١٤٠٨ هـ، طبعة إدارة ترحاب السُّنَّة ـ باكستان، المكتبة الإعدادية.

٥٢. أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة، لأبي الحسن عزّ الدّين عليّ بن أبي الكرم مُحمَّد ابن مُحمَّد بن عبد الكريم الشَّيبانيّ المعروف بابن الأثير الجزريّ (ت ٦٣٠ هـ ق)، تحقّيق: مُحمَّد إبراهيم، طبعة ـ القاهرة ١٣٩٠ هـ، وطُبع بالأُفست في المكتبة الإسلاميَّة للحاج رياض، وطبع المطبعة الوهبية بمصر.

٥٣. الأغاني، لأبي الفرج الإصبهاني (ت ٣٥٦ هـ)، تحقّيق: خليل مُحييّ الدّين دار الكُتب المصرية، الطبعة الأُولىٰ ١٣٥٨ هـ، وكذا طبْعة دار الفكر بيرُوت عام (١٤١٢ هـ).

٥٤. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، طبع بيروت.

٥٥. تذكرة الخواص (تذكرة خواص الأُمَّة)، لِيُوسُف بن فرغلي بن عبد الله المعرُوف بسبط ابن الجوزيّ، الحنبليّ ثُمَّ الحنفيّ، نزيل دمشق (ت ٦٥٤ هـ)، طبعة ـ بيرُوت الثَّانية ١٤٠١ هـ، طبعة

النَّجف الأشرف، طبْعة مصْر.

٥٦. التّمهيد والبيان في فضائل الخليفة عثمان، لأبي بكر الأشعري (مخطوط).

٥٧. الإشتقاق. مُحمَّد بن الحسن بن دُريد (ت ٣٢١ هـ). تحقِّيق: عبدالسَّلام هارون. طبْعة القاهرة (١٩٥٨ م)، طبعة جواتنجن عام (١٨٥٤ م)، طبعة بغداد العراق، منشُورات مكتبة المُثنىٰ.

٥٨. الإمامة والسِّياسة، لأبي مُحمَّد عبد الله ابن مُسلم المعرُوف بابن قُتيبة الدّينوريّ (ت ٢٧٦ هـ ق)، مكتبة ومطبعة مُصطفىٰ بابي الحلبي، مصر ١٣٨٨ هـ.

٥٩. المصابيح، لأحمد بن إبراهيم بن الحسن بن عليّ بن إبراهيم بن مُحمَّد بن سُليمان ابن داود بن الحسن بن الحسن السِّبط بن أمير المُؤمنين عليّ بن أبي طالب: ٢٤٨، تحقيق عبدالله بن عبدالله بن أحمد الحُوثي، طبع مُؤسَّسة الإمام زيد ابن عليّ الثّقافية.

٦٠. البداية والنّهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدّمشقي، تحقِّيق: عليّ شيري، دار الكُتب العلمية، الطبعة الخامسة، (١٤٠٩) هـ، مطبعة السّعادة مصر عام ١٣٥١ هـ.

٦١. البداية والنّهاية، مُحمَّد بن عبدالحرّ الكناني (ت ١٣١٢ هـ). طبعة القاهرة (١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ).

٦٢. حاشية البجيرمي علىٰ شرح النَّهج لمُحمّد علي البجيرمي، المطبعة الهندية العربية مصر ١٣١٣ هـ.

٦٣. الطّبقات الكُبرىٰ، لمُحمَّد بن سعد الواقدي الزُّهري (ت ٢٣٠ هـ)، دار صادر، بيرُوت ١٤٠٥هـ، طبعة أُوربا، طبعة ليدن.

٦٤. الأخبار الطّوال، لأحمد بن داود الدّينوريّ (أبُو حنيفة ت ٢٨٢ هـ) تحقِّيق: عبدالمُنعم عامر. طبعة دار المسيرة ـ بيرُوت، طبعة دار إحياء الكُتب العربية سنة (١٩٦٠ م).

٦٥. الشّافي ـ في الجواب علىٰ الرّسالة الخارقة للفقيه عبدالرَّحيم بن أبي القبائل، تأليف

الإمام عبدالله بن حمزة الحسني (٥٦١ ـ ٦١٤). الطبعة الأُولىٰ ١٩٨٩م. منشورات مكتبة اليمن الكُبرىٰ ، اليمن ـ صنعاء.

٦٦. فتح الباري شرح صحيح البُخاري ، مُحمَّد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ). طبعة بُولاق (١٣٠١ هـ). طبعة السَّلفية (١٣٩٠ هـ).

٦٧. فتح الباري شرح صحيح البُخاري ، لأحمد بن عليّ بن مُحمَّد بن حجر العسقلاني ، (ت ٨٥٢ هـ ق) ، النّاشر : دار إحياء التُّراث العربي ، بيرُوت ، والمطبعة السّلفية مصر ١٣٨٠ هـ، وتحقّيق : عبد العزيز بن عبدالله بن باز ـ القاهرة ١٣٩٨ هـ

٦٨. صحيح البُخاري ، لأبي عبدالله مُحمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة الجعفي البُخاري ،(ت ٢٥٦ هـ) ، تحقّيق : مُصطفىٰ ديب البغا ، دار ابن كثير ، بيرُوت ، الطبعة الرّابعة ١٤١٠ هـ، ومطبعة المُصطفائي ١٣٠٧هـ.

٦٩. شرح صحيح البُخاريّ ، عبد الله مُحمَّد بن إسماعيل ، لمحمُود بن أحمد العينيّ (ت ٨٥٥هـق) ، مطبعة الفجّالة الجديدة ـ مصر ١٣٧٦ هـ.

٧٠. صحيح مُسلم ، لأبي الحُسين مُسلم بن الحجّاج القُشيري النّيسابُوري ، (ت ٢٦١ هـ ق) ، تحقّيق : مُحمَّد فُؤاد عبد الباقي ، طبعة ـ بيرُوت ١٣٧٤ هـ . دار الحديث ـ القاهرة ، الطبعة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ ، ودار إحياء التُّراث العربي ، بيرُوت .

٧١. الجامع الصَّحيح (صحيح مُسلم) بشرح النّوَوي ، لمُسلم بن الحجّاج بن مُسلم القُشيري النّيشابوري (ت ٢٦١ هـ ق) ، تحقّيق : مُحمَّد فُؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ.

٧٢. سُنن ابن ماجه لأبي عبد الله مُحمَّد بن يزيد بن ماجه القزوينيّ (ت ٢٧٥ هـق) ، تحقّيق : فُؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التُّراث ، بيرُوت ، الطبعة الأُولىٰ ١٣٩٥ هـ . ونشر دار الفكر ، طبعة ـ

بيرُوت ١٣٧١ هـ.

٧٣. سُنن التّرمذي، لأبي عيسىٰ مُحمَّد بن عيسىٰ بن سورة التّرمذي (ت ٢٩٧ هـ) تحقّيق: أحمد مُحمَّد شاكر، دار إحياء التُّراث، بيرُوت.

٧٤. سُنن الدار قُطني، لأبي الحسن عليّ بـن عُـمر البـغدادي المـعرُوف بـالدار قـطني، (ت ٢٨٥هـ) تحقّيق: أبُو الطّيب مُحمَّد آبادي، عالم الكُتب، بيرُوت، الطـبعة الرّابـعة ١٤٠٦هـ، طبعة بُولاق بالقاهرة.

٧٥. سُنن النّسائي، الحافظ المُتوفّىٰ سنة (٣٠٣ هـ). طبعة دار الكُتب العلمية. بيرُوت ـ لُبنان.

٧٦. سُنن أبي داود، لأشعث السّجستانيّ الأزديّ (ت ٢٧٥هـ ق)، إعداد وتعليق: عزّت عبد الدّعاس، طبعة دار الحديث الطّبعة الأُولىٰ ـ حمص ١٣٨٨هـ وطبعة مُصطفىٰ البابيّ ـ مصر ١٣٩١هـ.

٧٧. المُغني، لأبي مُحمَّد مُوفق الدّين مُحمَّد بن عبد الله بن أحمد بن قُدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ)، دار الكتاب العربي بيرُوت ١٣٥٩ هـ، طبعة مُحمَّد عليّ صبيح وأولاده.

٧٨. المُغني، لأبي مُحمَّد عبدالله بن أحمد بن مُحمَّد بن قُدامة المقدسيّ، علىٰ مُختصر لأبي القاسم عُمر بن الحُسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي مطبعة المنار ـ مصر ١٣٤٢هـ.

٧٩. مُغني المُحتاج إلىٰ معرفة معاني ألفاظ المـنهاج، الشـرح للشّـيخ مُـحمَّد الشّـربيني الهجري، دار إحياء التُّراث العربي، بيرُوت.

٨٠. الملل والنّحل، لأبي منصُور عبد القـاهر بـن طـاهر بـن مُـحمَّد الـتميمي البـغدادي (ت ٤٢٩هـ)، تحقّيق: البير نصري نادر، طبعة دار المشرق، بيرُوت ١٩٧٠م.

٨١. الملل والنّحل، لأبي الفتح، مُحمَّد بن عبد الكريم الشّهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) علىٰ هامش (الفصل)، لِابن حزم الظّاهري، الطبعة الثّانية، أُفست، دار المعرفة بيرُوت.

٨٢. تهذيب تأريخ دمشق الكبير لِابن عساكر، الشّيخ عبدالقادر ريـدران. دار المسـيرة

بيرُوت: لُبنان.

٨٣. تأريخ ابن عساكر (تأريخ دمشق)، الأجزاء الّتي حققّها المحمُودي، ترجمة الإمام عليّ والإمام الحسن والإمام الحُسين عليهم السلام.

٨٤. تأريخ دمشق، حمزة بن أسد القلانسي (ت ٥٥٥ هـ). طبعة بيرُوت عام (١٩٠٨ م).

٨٥. تأريخ دمشق، عليّ بن الحُرّ بن عساكر (ت: ٥٧١ هـ). طبعة دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ م. طبعة (١٩٨٢ م).

٨٦. سير أعلام النُّبلاء، مُحمَّد بن أحمد بن عُثمان الذَّهبي (ت ١٣٧٤ م). تحقِّيق: مجمُوعة من الباحثين تحت إشراف: شُعيب الأرناؤط. مُؤسَّسة الرِّسالة بيرُوت ـ لُبنان.

٨٧. ميزان الإعتدال في نقد الرِّجال، لأبي عبد الله مُحمَّد بن أحمد الذّهبي، (ت ٧٤٨ هق)، تحقِّيق مُحمَّد البجاوي، طبعة دار المعرفة للطّباعة والنّشر بيرُوت ١٩٦٣ م، وطبع القاهرة ١٣٢٥ هـ، دار الفكر بيرُوت.

٨٨. الكامل في التّأريخ، لأبي الحسن عليّ بن أبي الكرام مُحمَّد مُحمَّد بن عبدالكريم الشَّيباني المعرُوف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ). عُني بمراجعة أُصوله: نُخبة من العُلماء. دار الكتاب العربي. بيرُوت ـ لُبنان.

٨٩. الكشف الحثيث، لإبراهيم بن مُحمّد بن سبط ابن العجمي، أبو الوفا الحلبي الطّرابلسي، عالم الكتب، مكتبة النّهضة العربية، بيروت، ١٤٠٧ هـ، ط ١، تحقيق: صُبحي السّامرائي.

٩٠. الكشف الحثيث عمّن رُمي بوضع الحديث لبُرهان الدِّين الحلبي، طبعة القاهرة.

٩١. العلل، لأبي عيسىٰ محمّد بن عيسىٰ بن سورة التّرمذي (ت ٢٩٧ هـ)، (مخطوط).

٩٢. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لابن الجوزي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، طبعة الهند لاهور.

٩٣. ينابيع المودَّة لذوي القُربىٰ، لسُليمان ابن إبراهيم القندُوزيّ الحنفيّ (ت ١٢٩٤ هـ)، تحقِّيق: عليّ جمال أشرف الحُسينيّ، طبعة أُسوة الطبعة الأُولىٰ ـ قُم ١٤١٦ هـ، والطَّبْعة الحيْدريَّة في النَّجف الأشرف.

٩٤. النّهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السّعادات مُبارك بن مُبارك الجزري المعْرُوف بابن الأثير الشَّيباني الشَّافعي (ت ٦٠٦ هـ)، تحقّيق: ظاهر أحمد الزّاوي، مُؤسَّسة إسماعيليان، قُم، الطبعة الرّابعة ١٣٦٧ هـ.

٩٥. الفتن لنعيم بن حماد، نعيم بن حمادالمروزي ،أبو عبدالله، مكتبة التّوحيد، القاهرة ١٤١٢ هـ، ط ١، تحقيق: سمير أمين الزّهيري.

٩٦. الجامع الصَّغير، في أحاديث البشير النَّذير جلال الدّين عبد الرَّحمن بن أبي بكر جلال الدّين السّيوطي (ت ٩١١ هـ ق)، الطبعة الأُولىٰ ـ القاهرة ١٣٦٥ هـ.

٩٧. كنز العُمّال في سُنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدّين عليّ المُتّقي ابن حُسام الدّين الهندي (ت ٩٧٥ هـ)، تصحيح صفوة السّقا، مكتبة التُّراث الإسلامي ـ بيرُوت، الطّبعة الأُولىٰ ١٣٩٧ هـ، وطبع دار الوعي حلب ١٣٩٦ هـ.

٩٨. الدُّر المنثُور في طبقات ربَّات الخدُور، العاملي ـ زينب (ت ١٣٣٢ هـ). طبعة القاهرة (١٣١٢ هـ).

٩٩. الدُّر المنثُور في التَّفسير بالمأثُور، جلال الدّين السّيوطي (ت ٩١١ هـ). دار الفكر بيرُوت: لُبنان.

١٠٠. الديباج، لعبد الرّحمن بن أبي بكر، أبو الفضل السّيوطي، دار ابن عفان، الخُبر، السّعودية، ١٤١٦ هـ، تحقيق: أبو إسحاق الحويني الآثري.

١٠١. الدّيباج على صحيح مُسلم، طبع دار الكتاب الإسلامي.

١٠٢. الدّيباج المُذهب في معرفة أعيَّان المذهب. إبراهيم بن عليّ ابن فرحُون (ت ٧٩٩ هـ). تحقِّيق: مُحمَّد الأحمدي أبُو النُّور. طبْعة القاهرة (١٣٥١ هـ).

١٠٣. البيان والتّعريف ،لإبراهيم بن محمّد بن كمال الدّين المعروف بابن حمزة الحسيني الحراني الدّمشقي الحنفي (ت ١١٢٠ هـ)، طبعة بيروت.

١٠٤. التّمهيد لابن عبدالبر، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النّمري، وزارة عموم الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المغرب، تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، ومُحمّد عبدالكبير البكري.

١٠٥. كشف الخفاء، لإسماعيل بن مُحمّد العجلوني الجراحي ،مؤسسة الرّسالة ١٤٠٥هـ، ط ٤، تحقيق: أحمد القلاش.

١٠٦. كشف الخفاء ومُزيل الإلباس عمَّا اشْتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة النَّاس للمُفسّر إسماعيل بن مُحمَّد العجلُوني الجرّاحي المُتوفّىٰ سنة (١١٦٢ هـ).

١٠٧. تاج العرُوس في جواهر القامُوس، مُحمَّد مُرتضىٰ الزُّبيدي. طبعة مصر.

١٠٨. الرّوض الأزهر، للسيد شاه تقي العلوي الكاظمي الهندي الحنفي الكاكوردي الشّهير بالقندر، أُخذ بالواسطة.

١٠٩. تأريخ بغداد، لأحمد بن عليّ الخطيب البغداديّ، طبعة دار السّعادة مصر.

١١٠. أرجح المطالب لعبدالله الرّازي الأمرتسري، طبعة لاهور ١٤١٦ هـ.

١١١. فرائد السّمطين في فضائل المُرتضىٰ والبتُول والسّبطين والأئمة من ذُرّيتهم، لإبراهيم ابن مُحمَّد بن المُؤيد بن عبد الله الجُويني الحمُويني، (ت ٧٢٢ أو ٧٣٠ هـ ق)، تحقِّيق: مُحمَّد باقر المحمُودي، طبعة مُؤسّسة المحمُودي بيرُوت ١٣٩٨ هـ.

١١٢. الخصائص الكُبرىٰ (كفاية الطَّالب اللّبيب في خصائص الحبيب)، جلال الدّين السّيوطي. طبعة دار الكتاب العربي.

١١٣. أمالي المُرتضىٰ . عليّ بن الحُسين العلوي . طـبعة مـصر عـام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م بتحقّيق / مُحمّد أبُوالفضل إبراهيم . دار الكتاب العربي ـ بيرُوت . لُبنان .

١١٤. أمالي الشّيخ الطّوسي ، لأبي جعفر مُحمّد بن الحسن الطّوسي منشُورات المكتبة الأهلية ، اوفسيت مكتبة الدّاوري ، قُم ـ إيران ، والمطبعة الإسلاميّة ، طهران ١٤٠٤هـ وطبعة مُؤسّسة البعثة دار الثّقافة قُم ١٤١٤هـ .

١١٥. أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن عليّ الرّازي الجصاص ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت (١٤٠٥هـ) . وطبع عبدالرّحمان محمّد .

١١٦. أحكام القرآن، لُمحيي الدّين محمّد بن عليّ بن محمّد بن عربيّ الطّائيّ الحاتميّ المرسيّ الدّمشقيّ (ت ٦٣٨ هق)، تحقيق: حسن حسنيّ الأزهريّ، طبع الحلبي ، ومطبعة السّعادة ـ بيروت ١٤٠٦هـ

١١٧. مُنتخب كنز العُمّال ، عليّ بن حسام الدّين بن عبد الملك (٨٨٥ ـ ٩٧٥ هـ) . دار إحياء التُّراث العربي . بيرُوت ـ لُبنان .

١١٨. المُنتخب من صحيحي البُخاريّ ومُسلم لمُحمّد بن عُثمان البغدادي :(مخطُوط) .

١١٩. المُنتخب من ذيل المُذيل للطّبري ، طبعة مُؤسّسة الأعلمي بيرُوت سنة (١٣٥٨ هـ) .

١٢٠. مودّة القُربىٰ ، للسّيّد عليّ بن شهاب الدّين الحُسينيّ العلوي الشّافعي الهمداني ، طُبع ١٩٩٠م .

١٢١. الميزان في تفسير القُرآن ، لُمحمّد حُسين الطّباطبائي ، دار الكُتب الإسلاميّة ، طهران ، الطبعة الثّالثة ١٣٩٧هـ .

١٢٢. ميزان الاعتدال ، مُحمّد بن أحمد بن عُثمان الذّهبي (ت ٧٤٨هـ) . تحقّيق : عليّ البجاوي . طبعة القاهرة (١٩٦٣ م) .

١٢٣. نسب قُريش، لأبي عبدالله المُصعب بن عبد الله بن المُصعب الزُّبيري (١٥٦-٢٣٦ هـ). عُني بنشره. إليفي بروفنسال. دار المعارف ـ القاهرة.

١٢٤. الوافي، لمحمّد محسن بن مُرتضىٰ الفيض الكاشاني، نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إصفهان ١٤٠٦هـ.

١٢٥. الوفاء بأخبار المُصطفىٰ، لِابن الجوزي. طبعة ١٣٩٥ م. مطبعة السّعادة. مصر.

١٢٦. الوافي بالوفيّات، لصفيّ الدّين خليل بن أيبك الصّفدي، دار النّشر فرانزشتانيز ـ قيسبادان.

١٢٧. وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، لشّمس الدّين أبي العبّاس أحمد بن مُحمّد البرمكيّ المعرُوف بابن خلّكان (ت ٦٨١ هـ ق)، تحقّيق: الدّكتور إحسان عبّاس، طبعة دار صادر ـ بيرُوت ١٣٩٨هـ.

١٢٨. فوات الوفيّات. مُحمّد بن شاكر الكُتبي (ت ٧٦٤ هـ). تحقّيق: إحسان عبّاس. طبعة بيرُوت (١٩٧٣ م).

١٢٩. خُزانة الأدب ولُب لُباب لسان العرب. عبدالقادر بن عُمر البغدادي. طبعة عام ١٢٩٩هـ.

١٣٠. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدّين مُحمّد بن مُكرم بن منظُور الأفريقي المصري، (ت ٧١١هـ ق)، الطبعة الأُولىٰ دار صادر ـ بيرُوت ١٤١٠هـ.

١٣١. لسان الميزان، لأبي الفضل أحمد بن عليّ بن حجر العسقلانيّ (ت ٨٥٢هـ ق)، تحقّيق: عادل أحمد عبد الموجُود، وعليّ مُحمّد مُعوض، طبعة دار الكُتب العلمية بيرُوت، الطبعة الأُولىٰ ١٤١٦هـ.

١٣٢. الوسائل في مُسامرة الأوائل للسُّيوطي طبعة بيرُوت سنة (١٤٠٦ هـ).

١٣٣. وسيلة النّجاة لمُحمّد مُبين الهندي، طبعة كلشن فيض الكائنة في لكنهو.

١٣٤. وسيلة المآل في عدّ مناقب الال (مخطُوط) نُسخة في مكتبة الظّاهريّة بدمشق.

١٣٥. السُّنن الكُبرىٰ، لأبي بكر أحمد بن الحُسين بن عليّ البيهقي (ت ٤٥٨ هق)، تحقّيق: مُحمَّد مُحيي الدّين عبد الحميد، دار إحياء التُّراث العربي ـ بيرُوت ١٤٠٥ هـ. وتحقّيق: مُحمَّد عبد القادر عطا، طبعة دار الكُتب العلمية، الطبعة الأُولىٰ ـ بيرُوت ١٤١٤هـ مُصوَّرة من دائرة المعارف العُثمانية، حيدر آباد الدّكن ١٣٥٣ هـ.

١٣٦. مُسند الشّهاب لمُحمَّد بن سلامة بن جعفر القُضاعيّ، حقّقهُ وخرَّج أحاديثهُ، حـمدي عبدالمجيد السَّلفيّ

١٣٧. الطّبقات الإجتماعيّة دُكتور مُحمَّد ثابت الأفندي

١٣٨. الغارات لإبراهيم بن مُحمَّد الثّقفي

١٣٩. مصباح الزّجاجة في زوائد ابن ماجه للبُوصيري.

١٤٠. المعارف، لأبي مُحمَّد عبد الله بن مُسلم المعرُوف بابن قُتيبة الدّينوريّ (ت ٢٧٦هـق)، حقّقه وقدمّ لهُ ثروت عُكاشه: منشورات الشّريف الرّضيّ الطّبعة الأُولىٰ ١٤١٥ هـ.

١٤١. شرح الاخبار في فضائل الأئمة الأطهار للقاضي أبي حنيفة النّعمان بن مُحمَّد التَّميمي المغربي المُتوفىٰ سنة (٣٦٣ هـ)، مُؤسَّسة النّشر التّابعة لجماعة المُدرسين بقُم المُقدّسة، تحقيق السَّيِّد مُحمَّد الحُسيني الجلالي.